

الخالة أم هاني

(الحكاية وما فيها)

الخالة أم هاني

الحكاية وما فيها

ربيعة ربحان

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خـالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٨٥٠٠ / ٢٠١٩

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 575 - 9

الخالة أم هاني

(الحكاية وما فيها)

رواية

ربيعة ريحان

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

ريحان، ربعة

الخالة أم هاني: (الحكاية وما فيها): رواية/ ربعة ريحان.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٩ ٥٧٥ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٨٥٠٠ / ٢٠١٩

إهداء

إلى روح أيمن في قدسها العلوي..
وإلى عبد القادر وأنيس
توحدنا الحرقه، ويجمعنا الألم..

إحساس طيب ومريح أن يكون لك أمان معجبتان بك، واحدة حديثة، والثانية من الطراز القديم، وفوق ذلك تريان نفسيهما منعكستين فيك، في تلك القسمات المنحوتة بشكل دقيق، والبشرة النقية، والشعر الأملس المسدول، والعينين الملونتين، والشعر المنفرج قليلاً... على شرط ألا تكون واحدة منهما مخبولة، ولا صعبة المراس، وأن تظلا معاً على وفاق مع الواقع، خاصة وأنهما وبشجاعة، مضطرتان إلى تبادل النصائح بخصوص تربيتك، والسيطرة على تصرفاتك.

هل فكرت والدتي في الأمر ملياً وهي تعرضني على الخالة أم هاني؟.. ألم يراودها الإحساس الأمومي بأنها ستفقدني ولن تراني؟.. أكنت رخيصة إلى ذلك الحد الذي سمحت لها فيه بأن تأخذني لتبنياني، وتضع حياتي بمحاذاة حياتها المتقلبة؟..

لماذا لم تفعل ذلك بأختي لمياء الصغيرة، آخر العنقود، التي تحب النوم

ولا تستيقظ للذهاب إلى المدرسة إلا بالشجار؟..

أسئلة نمطية وأنانية لم تخطر لي على البال أبداً، ولم تؤرقني أثناء مراهقتي، بل كنت سعيدة بتلك النزوة غير المعهودة من أمي، نزوة امرأة عاقلة ووفية، وفي حالة من الرضا عن الذات، لأن جدتها لأمها أوصتها وهي على فراش الموت بأم هاني، قالت لها بعد جهد، وهي تنظر في عينيها وتمسك بكفها:

- (عار بنت خالتك عليك)، خذي بالك منها يا ابنتي، ولا تتركها وحدها فهي يتيمة.

وهكذا منحني أمي ألواناً إضافية وعيشاً غير خطي، هنا وهناك، في بيتنا مرة، وفي بيوت الخالة الهامشية مرات، كلها تختلط وتتراب، لتعطي صورة مغايرة تماماً عما عاشه إخوتي.

والدتي لم تتنازل عني، ولا كان في حسابها أن أغيب عن ناظرها أبداً، فالخالة أم هاني كانت تزورنا يومياً، زيارات روتينية معتادة، كواحدة من أهل البيت، تمر قبلها على بهو البلدية الفسيح، الواقعة خلف سكننا، لتقف قليلاً أمام تمثال محمد الخامس، فوق حصانه الأبيض الرشيق، ثم تعود لتنزل الدرجات الرخامية السبع وتأتي إلى بيتنا...

جربت ألا تفعل ذلك، أن تأتي مباشرة إلى فيلتنا، عابرة شارع ابن بطوطة العريض، الذي تصطف على جانبيه الأشجار، لكنها لم تستطع

أن تقاوم رغبتها في الدخول إلى البلدية، ذلك المبنى الذي يقع في الوسط، بين شوارع قادمة من الاتجاهات كلها، الجريفات، حي المستاري، السانية، المطار، هرايات البيض، لالة هنية الحميرية، بياضة... والحملقة طويلاً في عمل النحات الإسباني خوسي بيستانا، مواظبة تقريباً على ذلك منذ الستينات..

كان حينئذ غريباً لا يمكن أن تفهمه إلا تلك الجموع من المتفرجين، رجالاً ونساء، بتيابهم البسيطة، وهم يأتون من كل صوب، ليقفوا قريباً منه، على قدر ما تتحمل المسافة والرؤية، شاعرين كم كانوا يتامى وضائعين من غيره، عندما نفاه المستعمر إلى مدغشقر..

لم يسبق لهم أن شاهدوا في حياتهم أي نحت، خصوصاً بذلك الحجم، ليس لأنه حرام أو حلال، وإنما كمدينة صغيرة، ماذا كان يمكن أن تفعل فيها مثل تلك التماثيل؟..

وها هم أمام نصب حقيقي يلخص زمنهم، زمنهم الموضوعي والذاتي، تاريخ وذكريات وأحداث عصبية لم تنس بعد، حيث كان ذلك الفارس أمها زعيماً وملهماً، جعل أطباع الاستعمار تنهار وتجري في الاتجاه المعاكس، ودفع بالعثرات في أسنفي إلى الاستشهاد في صبيحة باردة من الخمسينات، أطلق فيها المستعمر الفرنسي الرصاص على صدورهم، وهم يحملون الرايات ويهتفون، عاش عاش... يسقط يسقط... في ساحة سيدي بو الذهب.

بدا كأن الخاله اتخذتها هواية، منذ أن انتهت من التأمل الطويل للشايا البيضاء بياضاً شاحباً، لذيل برنوس الملك، وليده العارية المرفوعة للتحية، فصارت تأتي لتقف بعيداً في مواجهته، من الزاوية التي تحبها، على يسار المدخل، جنب مكتب رخص البناء، حيث لم يكن وقتها لا رجال من الأمن، ولا عناصر من القوات المساعدة، ممن يقفون حالياً جنباً إلى جنب، يدققون في الوجوه والهويات، ثم تقفل عائدة، بعد أن تكون قد استعادت للحظات من خلاله صورة السلطان، الذي شاهد الشعب ذات ليلة تفاصيل وجهه في القمر!!..

لدى أم هاني في البلدية أكثر من قريب وقرية، غادروا الابتدائي من زمان، من مدرسة المدينة أو تراب الصيني أو مدرسة درب مولاي الحسن، ليستغلوا في تلك المكاتب، بدرجات وسلام متدنية، أعطتهم وجاهة من نوع خاص، موظف في البلدية!!.. لكن لا واحداً منهم فكرت أن تزوره، وتطلب من الساعي أن يدها على مكتبه.. وكانت تحاول ما أمكن، أن تجعل تلك الزيارة خاصة بالتمثال!!..

ربما قالت أمني في نفسها، وهي تعرضني على الخاله، في ذلك اليوم الذي احتفلوا فيه بعيد ميلادي الخامس، وأوقفوني كما في الصورة إلى جانبها، بشرائط زاهية في شعري، وستان قصير بكمين متفخين، وصدر من الدانتيل، أحملق في الشموع وفي الحلوى عوض الكاميرا: هذه المرأة الجميلة، بنت

خالتي، لا تستحق أن تموت وحيدة من جراء المرض والعطش، عاجزة حتى عن النداء، بذلك الجسد البض، والضحكة البديعة، وبتلك العينين الزبرجديتين الساحرتين، الزرقاوين على اخضرار.

بإيجاز، رغم سني الثلاثين، الخالية من التجاعيد ومن الرجال، ومن المضاجعات بالطبع، مع أنني كنت قد وقعت في الغرام أكثر من مرة، وعشت علاقات عاطفية هوجاء، ولا زلت أعاني من تطاول النظرات التي تقع علي من الشبان، كما من رجال كبار أنيقين، لهم رائحة الرجولة الثقيلة التي تجتذب المراهقات، خاصة أولئك الذين يشبهون الفنانين والنجوم، بالبدلات الرسمية أو بالكجوال، عمر الشريف، جورج كلوني، توم فورد.. غير أن خاطر النوم مع رجل كان أنأى عن تصوري، فقد كنت مصممة مرحلياً على أن أطرده كل هؤلاء من حياتي، باعتباري بنتاً حسنة التربية، استطالت قامتها وبرز نهدها، وامتلاً ردفاها من زمان، ومع ذلك كنت لا أجد غضاضة في أن أطأطئ رأسي وألوذ بالصمت، مهما تعرضت إلى التحرش، وأسمعني الأوغاد كلمات الغزل، غزل يملأ النفس بالرضا ويجعلها في السماوات السبع، جمل بالعربية والفرنسية، أو قصائد مغناة، جاك بريل مثلاً، سأهديك لآلئ المطر، القادمة من بلاد سواها لا تمطر، لأغطي جسدك ذهباً ونوراً، وتكونين أنت الملكة، لا تتركيني...

رغم كل ذلك، كنت لا زلت لا أزن الأمور بعين متفحصة، ولا قدرة لي على الالتزام بالحذر، مادمت قد أرسيت عادة قيامي بالأأ أكتم غيظي،

كلما ورطت في المماحكة والجدل، ومن يورطني؟ .. أهلي وخلائي، الذين هم في الواقع، أهل الخالة أم هاني وخلائها.

تحركت مياه كثيرة تحت الجسر، قبل أن أخلص إلى أن تلك المماحكة والجدل، المليئين بالضحك والصياح، ليسا سوى عناء وملل، العناء بالنسبة لي، وليس إلى أهلي، ومع ذلك لم أنجح في العدول عن موقعي.

ظلمت، كواجب أخلاقي، أواجه الذين كانوا بمجرد ما يروني، إلا وتفتق الرغبة لديهم في الكلام السخيف وطرح الأسئلة المستفزة، بتلك اللكنة الآسفية المضحكة، التي كانت تخص يهود المدينة، مستعملين كل ما يضغط عليّ ضغطاً قاسياً، ويوتر أعصابي:

- أهلاً، أهلاً، وشهلاً (سهلاً)، أين غيابك يا سيما (شيما)؟ .. ويا ترى كيف حالك مع الخالة؟ ..

تلك القواسم المشتركة، التي جعلت الساكنة من المسلمين في أسفي، يأكلون مع اليهود الرقاق والسخينة في بيوتهم، وباقي الطبخات في النزعات في الهواء الطلق، في امزوغن على الخصوص، أو في الأوبرج على الساحل، ويتحدثون مثلهم، لكن لسبب ما، لم يقيموا أبداً معهم (عيد المساخر) ..

كانوا يقولون عن الجبل زبل، والزبدة جبدة، وشامة سامة .. وكثيراً ما تخيلت ضاحكة، تلك التحريفات الممكنة، لبعض الأسماء والكلمات الحميمة، وما يرغبون في قوله عندما يهتاجون من الحب!! ..

كنت أشعر بالراحة، وبسلام داخلي لا يوازيه أي سلام، عندما كانوا ينادون أم هاني أمامي بالخالة، بدل ذلك اللقب الذي خصوه بها: المفروحة... فأنا لحد تلك السن، كانت الخالة هي عالمي، مع ما يلازم ذلك العالم من تصورات وعواطف ورغبات وحنين وميول.

لقب (المفروحة) صيغ بنخبث، والله يعلم من صاغه أصلاً بتلك الكيفية المضحكة، حتى يطلقونه على الخالة، وكنت كلما تناهى إلى سمعي، أحس بغصة في قلبي، ومغص في معدتي...

حصل ذلك، بعد أن راكمت الخالة مقداراً لا يستهان به من المتاعب والتصرفات، التي كانوا يرونها مغيظة، وأجبرتهم على قبولها والتكيف معها، كواحدة تعرف كيف تجيدها بامتياز...

ويا ليته كان اللقب الوحيد، بل هو من ضمن ألقاب أخرى مفضلة لديهم، أجبرتني على الإحساس اليائس بأنني منحت تلك المرأة الحماية، لكنني لم أستطع أن أوفر لها ما يكفي من الأمان!!..

سموها المصطية، ثم المفروحة ثم زان زان.... وكل ما كان يستجد في نفس القاموس، ويصلنا من مختبر النحت في كازابلانكا على الخصوص... مدينة الجن والعفاريت..

من وراء إطلاق تلك الألقاب القبيحة؟.. أم هاني نفسها تقول:
- إنهم أولئك الأكثر ميلاً للتخلي عن الحضارة، من أبناء الأسر العريقة،

والجنوح نحو أخلاق أولاد السوق والشوارع، بعد أن رافقوهم وتصاحبوا معهم، وتعلموا منهم كل أسباب الانحطاط وقلة الأدب، أما بالنسبة لي فهم لا يهتموني.. ولا يسوون عندي إلا الريح..

ثم أوضحت زيادة في إقناعي:

- تلك ليست أخلاقنا، تلك عادات العروبية (البدو)، هم من يوجهون الإهانات لبعضهم البعض، واضعين لكل واحد اسماً تحقيراً ولقباً جارحاً، أما (نحن) فلا علاقة لنا بذلك..

تعرفين يا شيماء كم من مهووس ومخبل بين العائلة والأقرباء، وما لا يعد من ذوي الأمزجة الغربية، والتصرفات المنحرفة؟.. ومع ذلك لم يجرؤ أحد من قبل على الوقوع في الغلط، وإطلاق الألقاب..

- كيف حالك مع الخالة؟..

أتأمل نعمة الترحيب والسؤال، فأجدها من النوع الذي (يُنبت القوق في الرأس)، ملغومة وملتبسة، وغير مناسبة بأن تقال بتلك الكيفية المصحوبة بالضحكات المكتومة، مع أنهم كانوا يعمدون إلى جعل السؤال يبدو عادياً وبريئاً، كسؤالهم عن أحوال الطقس، أو سعر الطماطم.. لكن الذين يعرفون الخبايا جيداً، يستطيعون ترجمته ترجمة غير حرفية، فيكون المعنى واضحاً:

- كيف حالك مع هبل الخالة، ويا ترى كيف يتاح لك تقبل حماقاتها؟..

أسئلة مستفزة، تعودوا أن يواجهوني بها بسبب ارتباطي بالخالة، كأنما أنا من خطط لذلك واختاره، وفرض فكرة التبني على أمي وأنا في تلك السن.

ثم من هم حتى يفعلون ذلك؟.. ولماذا هم يدققون في الأسئلة ويطلقون الألقاب، ويجعلون الخالة مبتسمة؟..



كنت بحكم سني المبكرة، لا زلت بذاكرة ضحلة، لم تستوعب بعد ما يكفي من الأخبار والتفاصيل، ليس في ما يخصني، بل في ما يخص الخالة أيضاً، ماضيها وأعوامها الكثيرة التي مرت، قبل أن تكون قد جاءت بي أمي إلى الحياة، ولم أكن مهتمة بعد بأن أسأل، ماذا هنالك في تلك الحياة التي عاشتها الخالة من دوني، في الخمسينات والستينات والسبعينات.... وماذا اقترفت، وكل تلك التفاصيل التي جعلت هؤلاء مصرين على التهكم عليها، واتخاذها مادة للتندر؟..

وكثيراً ما بررت، أن ذلك بسبب أنهم لم يقتربوا منها بما يكفي، ولم يعاشروها مثلي.. ولم يعيشوا معها تلك الحياة المنفلتة، الخالية من الرجال كحياتي..

فلو فعلوا لاختلفت نظرتهم إليها، ولتخلوا عن أفكارهم المسبقة، المشروطة بتصرفات لا بقلب ومشاعر، ولما أصرروا مجمعين على الإقرار بأن ذلك أصلاً نابع من الهبل.

أذكر كم جهدت، وبدعم مخلص من أمي في الواقع، أن نضع الأساس لبناء نظرة أخرى مختلفة عن الخالة، وتقييم يخفض من منسوب العبث، فكنا نتتهز الفرصة للحديث عن إيجابياتها، والتذكير بحنانها ورقتها وصدقها.... لكن كل ذلك كان بلا جدوى.

وها أنا لا زلت متشبثة برأيي، ولا زلت أومن إيماناً قاطعاً، أن ثمة ضرورة قصوى للدفاع عن الخالة، شرف الانتفاء إليها من جهة، ثم عبء العلاقة الفائض بالتدليل.. فقد كانت من غير مبالغة، نهرًا متدفقًا من المشاعر الرقيقة، مما يمكن أن يلين القلوب الغليظة وأكثرها جفاء... فما بالك بحالي.

غير أنني أحياناً، كان يعن لي أن ألوم نفسي بأسئلة عابرة، ألم يكن حرياً بي منذ اللحظة التي شرعوا يتهمون فيها على الخالة بحضوري، أن آخذ الأمر ببساطة؟.. أن أتمالك نفسي وأتظاهر بأنني لا أهتم، أن أرددًا متسمًا بالفتور، يتوافق مع طبيعتي الأصلية، طبيعة برجى المعروفة بالتروى:

- وماذا بعد؟.. هذه هي الخالة، هل عندكم من مشكل؟.. ثم من هو العاقل الكامل منا، والخالى من الهبل؟.. أي هبل كيفما كان نوعه؟.. كلكم معافون وسليمو العقل، إلا الخالة؟..

لكن ما غاب عن ذهني، أن للزمن حضوره الذي لا يمحي، وأنني كنت خارج دائرة المعرفة الاستثنائية بالخالة، التي لم أنظر إليها أبداً سوى كـ (دون هادي)!!..

منذ كشفني المتأخر لأبعاد تلك الأسئلة، اكتشفت معه ماضيها الحافل بالغرائب والأسرار، مزاجيتها الصعبة، ردود فعلها المضحكة، ارتياها... كما لو لم يكن لها قدر كبير من الخيارات غير ذلك، وعوض أن يكسبني الاكتشاف التحفظ، حرضني على الهجوم.

تغلبت طباعي الحساسة جداً، المتعلقة ببرج الحوت، برجي المائي المتأثر بالقمر، وبطراوة الأسئلة التي كثيراً ما طرحتها حول مصيري، وأنا في إشراف ربيعي، فظلت أنهج ذلك النهج المتسم بالتمرد، مواجهة أياً كانوا، دون إهدار للفرص..

وكم كرهوني في نفسي، عندما جعلوني أدخل في المجادلة والكلام المكرور، واضطروني إلى أن أداهم بنظراتي كل من كنت أحس أنه سيتواقع، ويضع الخالة في تلك الأمكنة التي لا تليق بها، وتلك المراتب الضحلة..

حدث ذلك أكثر من مرة، وكلها في جلسات خاصة بالنساء، أحياناً بحضور الخالة، وتلك هي الطامة، ومرات في غيابها، مما جعلني أقف جاهزة دوماً مثل دون كيشوت، وحيدة عزلاء إلا من نظراتي الغاضبة

ومن لسانی، مواجهة عمات وبنات عمات وبنات خالات، نساء ألعن من طواحين الهواء...

تلك اللقاءات الاعتيادية، التي تخرج فيها النساء من البيوت ليدخلن إلى البيوت، ويجلسن خلف موائد بمفارش من الساتان والأوركيزا، وأكواب من الكريستال، غير مفكرات إن كان ذلك حقاً هو ما يدعى بالتغيير وكسر الملل.

تجيء الواحدة منهن بعد أن يبلغ بها الضجر الزبي، باحثة عن متنفس، فإذا بها تعلق في الروتين، مكلمة تلك الواجهة الاجتماعية، التي لا تتردد المضيفة في تزيينها بالحلوى والقهوة والشاي، مضيفة إليها علبة مستوردة من الشوكولاتة المخلوطة بالبندق.. في حين كانت الجدات زمان، يجتمعن في تلك العصارى ليطنخن بداز والبلبولة والرفيسة العمياء، وكل الأكلات الأخرى التي يستهزئ منها الرجال..

يتركن بيوتهن ومشاكلهن، ويجتمعن على عجل، مخصصات أحياناً جلسات كلها للخالدة، بعد أن تصلهن آخر المستجدات التي تكون قد اقترفتها بإرادتها الحرة، وكأنها مركز هذا الكون، غير مدركات أنهن إنما يصادرن حقها في الجراءة والاختلاف، ورغبتها في أن تعيش حياتها كما تشاء..

لكن، ألا يقول المثل: (على من حكرت أيها المهم، على ابن العم)؟..
تنطلق النساء في الثرثرة، وتبادل الأسئلة عن الأحوال، وكل الأشياء

العادية التي تحصل في الحياة اليومية، بينما تسترق كل واحدة النظر إلى الأخرى، متطلعة إليها وإلى جديدها، لباسها، ذهبها، ماكياجها.... غير قادرة على كبت غيرتها إلا بتلك الابتسامات الصفراء، والكلمات المراوغة، ثم يتفرغن بعدها للخالة.

أكثر من جلسة، كانت الخالة محورها وديناموها الأساسي، كنت قد حضرتها بالصدفة، ولعبت فيها ذلك الدور الذي كنت قد لعبته من زمان، دفاعي عنها، ورغبتني في الذود عنها..

أذكر في بداية الألفية الثانية، أنها كانت قد خلقت الفوضى والبلبل، بعد أن ذهبت إلى الحمام الشعبي مرتين في اليوم.. ومارست طقوسها عارية مثل طرزان، مدلكة جسدها الأبيض البض بالصابون البلدي والحناء، من أعلى إلى أسفل، مستثنية من ذلك وجهها وشعرها الذي كان يبدو فاتحاً وخفيفاً مع العرق والبخار، لأنها كانت تقول عن الحناء مثلها المضحك: (كل شيء تطريه، إلا الوجه تخريه)..

كان الحدث الأكثر ندرة في الهبل، إذ لم يسبق في تاريخ العائلة على امتدادها، سواء من الرجال أو من النساء، من اقترف تلك الحماقة، وقام بذلك الفعل..

لست أنا من يقول ذلك، هن من يرين في ذلك حماقة وقلة عقل، أما بالنسبة لي، فقد اعتبرت أن ذلك شيئاً عادياً، عادياً جداً لدرجة صرت أتساءل بيني وبين نفسي: وما الضير في ذلك؟.. هل أجمرت الخالة وتجرات

على الذهاب إلى الفردوس؟.. ثم لماذا تصوب هؤلاء الحمقاوات بنادقهن نحوها، إذا كانت قد أوضحت أن الحمام كان باردًا في الصباح، فلم (تكمّد) عظامها بما يكفي، فعادت إليه بعد الظهر؟.. ألا نذهب إلى الحمام من أجل الحرارة والبخار؟.. تلك الساونا التقليدية، التي تجعل أجساد النساء في نعومة الحرير؟.. يلفتن انتباه المارة، في تلك المسالك التي يعبرنها باتجاه البيوت، مما كان يفرض على الأزواج من جيل الخالة وما قبلها، أن يخفروهن خطوة بعد أخرى، ذهابًا وأيابًا، مدركين كم الشبق والإحساس العارم بالرغبة، الذي يثيره مرأى أنثى استحمت لساعات، واعتنت بتلك الأجزاء الحميمة عنايتها المركزة المعروفة، مستعرضة أمام الأخريات تضاريسها وممتلكاتها، في نوع من النرجسية والمباهاة، بينما يقال إن الجلدات زمان، كن يدخلن إلى الغرف الحارة متلفعات بالفوطات، وتجلس كل واحدة لتغتسل، ووجهها باتجاه الجدار!!..

تلك المساءات تكون النساء فيها مستبدات، راغبات وممتنعات، يخططن ويساو من بشكل باكر، للحصول على ما يرغبن فيه، مما هو مؤجل وغير مقبول، أو ما هو مرفوض أصلاً، قبل تلك الخلوة الخاصة، التي ينال فيها الأزواج المتشددون بعدها منهكين.

لكن للأسف أصرت الياقوت السمرء، أو (النيغريتا) كما تلقبها الخالة، إحدى حفيدات (ساليغان) من جدتها لأُمها، واحد من الجنود الأفارقة المرتزقة، الذين كانت تجوب بهم فرنسا الشوارع في المغرب، ووجهت إلي

شخصياً توبيخها المفاجئ، في تلك الجلسة التي لم أخطط لأكون فيها، ولعبت فيها الصدفة دورها وأنا أزور ابنة عمي هدى:

- قيل لنا إن خالتك أم هاني ذهبت أمس إلى الحمام مرتين، كانت تود سلخ جلدها؟.. ألا تعرف أن (الطيبات) سيمسكن في قشابتها، ويفضحننا بين الناس؟.. يا خسارة!!.. كلما كبرت هذه المرأة ازدادت هبلاً، كنا نقول عنها إنها (ناقصة طبخة)، وها هي تثبت العكس، أنها (خضرة) تماماً.

أي حظ أوقعني في تلك الورطة، أنا التي أكره اللوم أساساً ولا أطيعه، حتى لو كان في ما يخصني، ويتعلق بي وبحياتي، فما الحل إذا شأنا لا يعينني؟..

وعوض أن أجيب الياقوت مكتفية بالقول، وأنا مالي؟.. هي فعلت ذلك وأنا مالي.. كل شاة تتعلق من عرقوبها.. ورطت نفسي حتى النهاية، كأني طرف في الموضوع، وكأن الخالدة استشارتني فشجعتها على ذلك..

تجملت في البدء بالصبر والتحمل، متجاهلة تعليق الياقوت، بشعرها الأكثر الذي لم ينفع معه الترطيب بستيف، واللغط الذي ساد فجأة والأسئلة، والضحكات..

وضعت يدي على فمي، مكتفية بالنظر هنا وهناك، غير راغبة في الرد، وبماذا سأرد؟.. إنها تجربة لم يخض مثلها أحد من قبل، ولم أسمع عنها، كي أصوغ مبرراً مقنعاً يخرس الياقوت.. مع أن تبرير الخالدة كان كافياً، مادام الحمام كان بارداً، وهي لم تكمد عظامها بما يكفي!!..

فكرت للحظة كمراهقة، أن الناس يتناقشون حول آخر الاختراعات والأسلحة والحروب، وحول الإنسان الآلي والأقمار الاصطناعية، وهما هي (النيغريتا) تحتج على الخالة لأنها كسرت القاعدة، وارتادت الحمام مرتين في نفس اليوم، وتسألني ذلك السؤال التافه.. إن كانت تود أن تسليخ جلدها؟..

ما هذا الهراء؟.. ألا ترى أن ذلك هو أصل التخلف، وأن أمثالها هم من سيجعلوننا نبقي خارج التاريخ، ما دمنا لا نرى أبعد من أنفسنا؟..

ما الذي أرغم تلك المنحوسة التي لا تحبها الخالة، على توبيخي، ثم مالها هي ومال الخالة؟.. أما كان أجدد أن تشغل بنفسها، وتبحث بالمناسبة عن أصلها وفصلها، ومن أين جاء جدها؟.. من غينيا أو من التوغو أو من أية مستعمرة أخرى، لا زالت ملزمة بدفع الضرائب لفرنسا إلى حد اليوم؟.. تلك الضرائب التي لولاها لما امتلكت بلاد الغال أي تاريخ لها في القرن العشرين، ولكانت انزلت مثلنا إلى مرتبة دنيا مع دول العالم الثالث، ثم تعرف أيضًا بالمناسبة، كيف تحول من مرتزق إلى مواطن ينتمي إلينا، ويتزوج واحدة من نساتنا؟... هل يكون قد تخلّى عن فرنسا وانضم إلى المقاومة عندنا، بعد أن سحرته جدتها بجهاها، وهو يراها في تلك الدروب العتيقة مارة بالصدفة؟.. أم يكون قد اغتصبها عنوة وترك بذرته فيها، وغيرها من الأسباب التي لا زالت الياقوت تجهلها، ولا زالت عندما يسألها أحد، وهي المعلمة في الابتدائي، من أي مستعمرة جاء جدها، كانت تكتفي بالقول من إفريقيا..

كنت أرى الأمور بشكل مختلف، حيث يلزم ألا أقف مكتوفة الأيدي، وأن أواجه الياقوت وأصطدم بها إذا اقتضى الحال، وإن حدث ذلك، يجب أن أكون على حذر، حتى يمكن أن أتجاوز المأزق، كسفينة عابرة، تستطيع أن تتجاوز جبلاً من جليد.. وإلا لماذا يوجد العقل، إذا نحن لم نمارس حقنا في الجدل، ونخلع معنى على كل ما يحصل؟..

لكن عدوى التعليقات والسخرية اتسع مع الأسف، فانضمت إلى الياقوت بعض العجائز الأتيكات، نساء لا علاقة لي بهن ولا علاقة لهن بجيلي، ينتمين إلى ثقافة أبعد، زمن (السيية) والمقايسة سلعة بأخرى، صوف مقابل عدس، وقمح مقابل بصل.. تلك المقايسة التي أراها مجحفة، ليس في حق أصحابها، لكن في حق السلع نفسها، والتي تجعل الجواهر مقابل أكل الدجاج..

انتهزت احداهن الفرصة، فجلست متحفزة لتصفي حساباتها مع الخالدة، كانت تنكئ على جنبها فاستوت، وضعت لها كتنها أكثر من مخدة حتى تجلس باستقامة، وتدير في راحة حبات السبحة في يدها، والله وحده يعلم أية حسابات هي، ربما كانت قديمة قدم تجايعدها، وأسنانها المعدمة.. أو أنها لا مبرر لها أصلاً..

قالت بغضب وتصميم، وصوتها المخدوش يعلو شيئاً فشيئاً:

- لالة أم هاني صارت مثل (بعلوكة)، وتعمل عمل البعلوكات، فلم تعد تتحكم في تصرفاتها، ولا تعطي اعتباراً لسنها ولا لأصلها... من منا

استطاعت أن تتجرأ وتحمل سطرتها وتذهب إلى الحمام مرتين في اليوم؟..
والحمد لله أن الكثير من الحمامات صارت للنساء فقط، ولم تعد للرجال
والنساء!!..

ضح الصالون بالضحك.

سيتصور من لا يعرف تفاصيل عن حماماتنا الشعبية، أن (حمام الشنطة
للرجال والنساء) في هرايات البيض، أو (حمام الصحة والراحة) بالجريفات،
تعني أنها مختلطة.. مثل مدرسة تراب الصيني للبنين والبنات، بينما هو في
الواقع يكون مخصصاً في الصبح للرجال، وبعد الظهر للنساء، وأن الضحك
انطلق من فكرة أن الرجال كانوا يتركون حيواناتهم المنوية على البلاط
الساخن، وهم يستمنون سرّاً بالصابون البلدي أو الشمبوان، متخيلين
أفواج النساء القادحات بعدهن عاريات، الصدور والبطون والأفخاذ
والمؤخرات... والأمهات المحتاطات كن حريصات وهن واقفات، على
دلق جرادل كثيرة من الماء البارد حتى لا تحبل البنات!!..

تابعت العجوز وسط المهرج، وهي تمسح على طيات وجهها المرتخية:

- سمعت أيضاً أنها أخرجت صاجاتها في عرس ابن لالة خدة مؤخرًا،
وغنت تلك الأغاني المغيظة التي لا تجمع بالملقاط، أغاني السوق، (زدردك
عاود دردك)، (بسململ يتململ).. يكذب من يدعي أن ذلك ذوقها، هي
من عشاق الآلة والطرب الأندلسي، أعرفها، ومن محبي أم كلثوم وفريد

الأطرش، وإنما تفعل ذلك بسبب الهبل، ولو كانت قد وجدت من يضبطها من زمان، ويربها وجهها في المرأة، لما تجرأت وفعلت ذلك، ولا جاءتنا بتلك البدعة في أواخر عمرها.

صدمت بذلك التحامل، لا بد أن العجوز التي مدت ساقها الطويلتين والنحيلتين مثل بوقراش (نوع من الجراد)، وصارت تربت على جلدهما اليباس، كانت تغار من الخالدة غيرة مميتة، وأنها في يوم ما شكلت بالنسبة لها منغصاً حقيقياً بحضورها وطلتها، وإلا لما نصبت نفسها رقيباً عليها، ولا بد أن ذلك الألق الذي ظل يشع من عيني الخالدة الزبرجديتين ولا يزال، كان مصدر إزعاج لها، وسبباً في كرهها..

استمرت لالة فخيتة، العتيقة مثل اسمها، تتحدث بسلبية عن الخالدة، انتقلت من وصفها بذلك الاسم القدحي لطفلة غرة (بعلوكة)، إلى تعداد عيوبها وحماقتها... القذارة التي تتخيلها في أواني وصحون الناس، وفي أفرشتهم وأغطيتهم، التحكم وفرض الرأي مثل (قايد الخاوية)، دون احترام للآخرين، الإعلان عن رغباتها واشتهاءاتها، حتى لو لم تكن تملك فرنكاً واحداً في جيبيها...

كل ما قالته العجوز وهي تبرم وجهها وشفيتها صحيح، لكن من وجهة نظر متحاملة، تقلب الحقائق وتشوهها..

ليست كل البيوت تراها الخالدة كذلك، ولا كل المطابخ والأفرشة

والأغطية، لكنها تعرف جيداً من هي المرأة النظيفة ومن هي العفنة، من تبذل قصارى جهدها أن يكون فضاؤها

عطراً مثل الفل، ومن هي التي تتعفف الخالة بصراحة، من أن تشرب عندها كأس شاي، رائحته زفرة، وملطخ بالبصمات..

كلنا تسكننا الهواجس بخصوص النظافة، ومن منا يغامر ويفتح فمه في بيت لا يشرح النفس؟..

ثم ماله التحكم؟.. ولماذا تشبه المرأة الخالة بـ (قايد الخابية)؟..

الخالة تعرف حدودها جيداً، ولا تتحكم إلا في تلك الأجواء التي تراح فيها، وفي تلك البيوت التي ترحب بها وتستقبلها بالحفاوة والأحضان، مثل بيتنا مثلاً، حيث تأمر أم هاني وتنهى كما تشاء، وتتلاسن مع عيدة خادمتنا العبدية، وتقترح وتعلن عن رغباتها في أكل الطبخات التي تحبها، وتحدد الأوقات المناسبة لشرب الشاي، والأخرى المناسبة للقهوة بالحليب، وتفرض أنواع الحلوى التي تتماشى مع كل مشروب، ملححة أن النوع المعمول بالشيكو لا طنة تناسبه القهوة ولا يناسبه الشاي.

أغلب (البييزات) التي عملتها أم هاني في حياتها، استعرضتها العجوز، دون أن تهمل شيئاً، بما في ذلك، تلك الحركة اللطيفة التي لم تكن لتخطر لأحد منا على البال، وضع ملابسها الداخلية وكيلواتها في الصيف في الثلاجة، وعدم إخراجها إلا عند اللزوم...

وهل في ذلك مشكل؟..

تمنيت لو تصمت العجوز، فحديثها بذلك الشكل عرضني للضغط، ولم يزد إلا أن يعزز من عضد ذلك التحالف، ويشد من أزره، فكيف أستطيع لجم ذلك العدد الفائق من المتهكمات وحدي، في تلك المساحة المغلقة التي تقع عليها تلك الجبهة؟..

يقول الكثيرون إن رأسي (قاسح) مثل الحجر، وشديدة العناد، كأنما أروضتني كناوية (سوداء)، وأنني أشبه في ذلك والدي وعمي سي الطاهر، لدرجة تجعلنا قرييين جدًا من ذلك المثل القائل: (ولو طارت معزى)، لكن ذلك مجرد تهمة لا غير..

الأمر أبسط من ذلك بكثير، أنا فقط أو من إيمانًا قطعياً لا رجعة فيه، أن من حق أي كان أن يفعل ما يشاء، وأن ينام على الجنب الذي يريحه.. ومستعدة أن أقف عند تلك النقطة الساخنة التي تسمى عادات وتقاليد، أو في أحسن الأحوال حالة من حالات المألوف، وأنسفها بمفردي!!..

هالني ذلك الضغط في الصالون، كان قوياً، زكاه وأججه اللغظ والفوضى، فإلى جانب تقرير لالة فخيتة عن طبائع الخالة وسلوكاتها المضحكة، هناك الهمس الجانبي، الذي كان يحصل حولي بين كل اثنتين، ولا أدري إن كان يخص الخالة، أو له علاقة بلالة فخيتة نفسها، والنبش في السبب الذي

يجعلها تتحامل على أم هاني بتلك الطريقة..

توترت أعصابي وغلى دمي، وتلك بداية لا تبشر بخير، حواسي كلها صارت في فوضى، كيف سأحتمل هذه الأصوات المتفككة، وفناجين القهوة وأكواب الشاي، وغريبة والكيك، والفطائر بالسمن والعسل، وكريب الأطفال المدهون بنوتيلا؟.....

كانت الأصوات والضحكات تنزل على رأسي كطرقات الآلة الكاتبة العتيقة، التي يحبها والدي في المخزن الخلفي في الحديقة، هناك حيث يعرش اللبلاب وتنمو الأعشاب التي تغطي الممر الضيق، في تلك الزاوية خلف البيت، حيث توجد أشياء أخرى من زمن مضى، لا تزال تحتفظ بسحرها: طاولة بلياردو، آلة خياطة سنجر يدوية، غرامافون بالبوق، مطحنة القهوة الخشبية، فرن كاز من النحاس الأصفر الكامد، كان يقول عنها إنها أفرحت والديه ذات يوم ومنحتها قيمة، وأنها بعد سنين قادمة ستصبح في عداد التحف الثمينة...

وكنت عندما أتواجد هناك لسبب ما معه، كنت أهرع لألعب بتلك الآلة، ناقرة كل حرف بشكل سريع ومتواصل حتى النهاية، كطائر نقار الخشب يضرب بمنقاره على سطح من حديد، مسببة لوالدي الشقيقة. كان يكتفي وهو مشغول، بأن يلقي علي نظرة واحدة حادة، من عينيه السوداوين قائلاً بغضب:

- اهديني وأوقفني أصابعك قبل أن أكسرها لك .. ما هذا الصداق؟ ..
فأهدأ.

قلت للياقوت نافذة الصبر، وأنا أدفع بشعري البني الطويل خلف
أذني:

- اتركي الخالة في حالها يا أستاذة، ماذا فعلت لك؟ .. خرجت عارية،
وعلقت رجليها في الشارع؟ .. ما هذا الخراء؟ ..

كلمات لا تقوها بدم بارد بنت حسنة التربية، أمام نساء كبيرات في السن
وعجائز، مجرد مراهة عليها أن تنصت وتصمت، وتقول آمين ..

وها أنا أرفع صوتي محتجة، مما يعني أنني تجاوزت حدودي، بدليل أن
عمتي لالة كريمة الجالسة على يميني، وجدت الأمر في غاية الإحراج،
فلكرتني في جنبي أولاً، ثم حدجتني بعدها بنظرة منذرة ..

- تأدبي قليلاً، ما هذا السلوك؟ .. أجننت؟ .. تردين على المرأة، ألا تعرفين
ماذا سيقولون عنك وعن أمك؟ .. بنت لم يعرف أحد كيف يربيهها، ثم إن
كلب السوء لا يأتي سوى باللعة إلى صاحبه .. اسكتي واحشمي ..

أحدث كلام عمتي في نفسي بعض القلق .. كلب السوء!! .. إلا أمي،
أشياء كثيرة يمكن أن أتقبلها، لكن لست مستعدة أن يخرج أحد والدتي
بسببي، ولا أن يغضبها بادعاء أنني طائشة.

لكن كأن عمتي لم تردعني، وكأن العيون التي التفتت نحوي مستهجنة، لم تكن لتعني لي شيئاً أبداً، فقد قابلتها من جهتي بالتجاهل والعبوس، ثم زدت على ذلك بأن قلت لهن جميعاً، لأنهي ذلك الدور الذي كان على عاتقي:

- انظرون... أمتنعن منعاً باتاً أن تتعرضن إلى الخالدة أمامي، أو تضحكن عليها، تعرفن كم أحبها، إنها عندي مثل ماما وأكثر، بل هي ماما بالفعل، ثم ماله الحمام، وحتى لو ذهبت إليه في اليوم ثلاث مرات، أين هو المشكل؟..

نقلهن قولي من حالة الاستهجان إلى المرح، أعطيتهن الفرصة لإدخالي إلى المعمعة، فانطلق الغمز في الصالة، ثم انفجرت بعدها الضحكات، مما أعطاني الانطباع كأنها انزاحت الستارة أمامهن فجأة على كوميديا مسلية..

هل يمكن أن يفكرن فيما إذا كان الهبل وراثياً؟.. وأنهن يتعاملن مع هذا المعطى بجدية؟.. هل يمكن أن يندفعن بعيداً، وينظرن إلي كواحدة يمكن أن تراث ذلك من أم هاني؟.. ماذا يدور برؤوس هؤلاء التافهات، وحول ماذا يحومن في هذا العصر؟..

ربما قلن إنني مثلها، وأن (الحك وقع ووجد غطاءه)، وتلك الأمثال الأخرى المضحكة.. ثم ما الذي يجمعني بالخالدة، حتى أراث منها ذلك؟.. إنها ابنة خالدة أمي، فلا هي جدي ولا هي جديتي.. ودماؤنا لم تعد صافية، اختلطت إلى حد ما بالغريب منذ الستينات من القرن الماضي، ولم تعد موريسكية بما يكفي.

تحضر الملامح والبشرات البيضاء النقية والعيون الملونة، لكن الأمزجة تغيرت، والسلوك أيضًا، وقلت اللوثات، خاصة عندما أصبح بإمكان بعض الرجال أن يتزوجوا نساء عشقوهن من خارج محيطهم، دون أن يثير ذلك حربًا أهلية..

فقيرات جميلات من الأحياء الشعبية والهوامش، تقا تل بعض العشاق من أجل فرضهن، لكنهن ظللن معزولات لا يمتلكن نفس الوضع، ودائمًا ينظر إليهن على أننا من صنف، وهن من صنف آخر، مجرد انتهازيات وسحارات، تعلقن حيث يمكن أن يتفلخن، وسيقن مصنفات كوافدات، لا تفتح لهن القلوب ولا يطلعن على الأسرار، في ذلك الغيتو الذي لا يفتح بابه إلا للقريبات ذوات النسب الأصيل.

الضحك اللاذع مسخرة، ما رأيت أحدًا يضحك بتلك الطريقة إلا وركبني عفريت، أنا واحدة ممن لديهم حساسية تجاه ذلك النوع من الضحك، أكرهه حد الموت، وعندما يضحك الآخرون بتلك الكيفية، تصبح أم هاني في ورطة، وكثيرًا ما رددت أن الضحك الباسل (المقيت) يفسخ البيع.. ثم تتدبر أمرها خائضة في الشتائم، أو تقوم متوجهة نحو الباب، تاركة إياه مشرعا خلفها.

أنا إذا في نظرهن، لست سوى مجرد (معارضة) رعناء لا أكثر ولا أقل، أترك في كل مرة انطباعات كارثية عني، كواحدة تحاول أن تغطي عين الشمس بالغربال، هكذا تراني قريباتي، مثلما كان يراني إخوتي، الذين لقبوني

باسم ذلك الزعيم العربي الأخرق، الذي قتل في الشارع.

إنها شجاعة مني أن أكون كذلك، خضت في الدفاع عن الخالة وسأبقى كذلك، لإحساسي أن تلك المرأة الرائعة الرقيقة، هي أُمي، وأنها تستحق مني ما هو أكثر، وكل مخاوفي أن يضطري أحد أن أنسلخ ذات يوم عن جلدي، وأتكر لها.

نظرتي الطيبة عنها تخصصني وحدي، وتساحي أيضًا، حتى لو كان الآخرون محقين في كل ما يدعون.

نظرت إلى الخالة في خيالي فرأيت شبح الغضب على وجهها، شيء ما يوحى لي بأنني لن أغير من الواقع في شيء، لقد حشرت نفسي كالعادة في تلك الزاوية الضيقة، وأوقعت نفسي في الفخ.

لأي هدف كنت أفعل ذلك، مادام الذي صار قد صار؟.. وماداموا قد إلتموا في تلك الجلسة من أجلها، وما جدوى المماحكة والجدل؟.. هل أستطيع أن أغير مسار سيدي بوزيد باتجاه سيدي واصل؟.. إطلاقًا، فالأول سيظل وحيدًا قابلاً في هضبته العليا بالشمال، يحرس مداخل المحيط إلى حدود سيدي بو الذهب، بينما الثاني ينعم بالمساحة الآهلة حوله بالأحياء الشعبية في الجنوب، وبروائح غاز الأمونياك السام، والأدخنة الصفراء المتسربة من ثقب معامل كيماويات المغرب، وتكرير الفوسفات.

لن يتغير شيء في تلك العقليات، ولن أستطيع أن أجتاز تلك العقبات

وأقاوم الفضول، وأعلن بالسهولة التي كنت قد أعلنت بها سابقاً أن الخالة تحفة، وأنهم لم يقتربوا منها بما يكفي، ولم يعاشرها مثلي..

ذلك المساء، لم أكن محظوظة بما يكفي كي أحظى بالمساندة، ولم أكن أمتلك من الصبر ما يؤهلني من المكوث طويلاً بين صف من المتكلمات، شبابات وعجائز، فانسحبت من غير وداع، وأنا أفكر في عمل أنجزه..

هؤلاء النساء على استعداد لكي يستعرضن المزيد من الفظاظ وقلة الذوق، ليست حكاية الحمام هي ما يدعوهن إلى ذلك، إنهن يعلمن الكثير من الأمور في ما يبدو، مما أجهله، ويراودني الأمل ألا أصارع مشاعري ذات يوم، حتى أتفادى ثورتي ضد أم هاني، إذا ما اكتشفت فجأة أن هناك شيئاً مبتدلاً لعملته الخالة، يضعني في موقف صعب.

لكن مع الأسف، لدي اعتقاد جازم أن شيئاً من ذلك كان قد حصل بالفعل... لقد جعلوني موسوسة هؤلاء الطواغيت.



كنت أسمع أحياناً، وأنا صبية، همساً مختلفاً عن كل الهمس الدائر من حولي، همس يأتي من الزمن السابق، مثير للفضول، يخص الخالة.. أشياء عن المقبرة، أو بالأحرى عن زيارة المقبرة، مع ربط ذلك باسم الخالة، يتبعه ضحك مسعور، وإشارات بالأيدي تدعو إلى الحذر والتحفظ وخفض الصوت.

ماذا تراهن يضمرن هؤلاء التافهات؟ .. وما هو ذلك الشيء المخجل الذي يدعو إلى الضحك والتكتم؟ ..

أعرف منذ سنين أن الخالة تقوم بزيارات لمقبرة بوديس، الواقعة عند مدخل المدينة على يسار الطريق، وسط الأحرش الكثيفة المليئة بالحلزون وشجيرات الرتم، حيث لا أقرباء موتى لنا هناك، فالمقابر التي دفنت فيها العائلة موتاهما، تقع في مناطق قريبة من الأسوار، سيدي منصور، سيدي بوزكري، لالة هنية الحميرية... والمغادرون الجدد يدفنون في سيدي عبد الكريم..

وكم مرات ارتدت جلبابها الأسود أمامي وتعطرت، ووضعت التمر والتين وماء الزهر في كيس، وذهبت إلى هناك، حيث تنتصب الشواهد من حجارة وطن، وحيث لا مسالك عند ملتقى المقابر، مما يضطر الناس إلى السير فوقها، دون أن يخفف أحد الوطء.

لم يفارقني الفضول أبدًا وأنا أراها تفعل ذلك، كنت أريد أن أرافقها، طلبت منها ذلك مرات، لكنها كانت تأخذني إلى بيتنا لتكمل السير وحيدة.

توقفت مرة عن الرجاء، وسألتها سؤالًا عاديًا:

- من تزورين هناك في تلك المقبرة يا خالة؟ ..

انتفضت أم هاني فجأة، قبل أن ترد وعيناها بعيدتان عن عيني، وكان وجهها قد أبيض أكثر:

- لماذا تسألين؟..

قالت ذلك بشكل مشوب بالقلق وعدم الألفة، كأنها لا تعرفني، وكأننا مجرد شخصين غريبين التقيا على رصيف قطار.
لابد أنني فاجأتها بفضولي... لكن لماذا تسمرت وعادت تنظر نحوي؟..

حركت هواجس الخالة بسؤالي، جعلتها تهتز، فكان في تلك النظرة ما يكفي من لماذا وكيف وما السبب؟.. من الذي حرضني على أن أسألها، وهل لذلك علاقة ببعض الحقائق والمعلومات؟..

لحد تلك اللحظة، كل شيء كان لا يزال شيئاً ومثيراً للمرح، وفي الوسع أن يجعلنا نثرثر ونضحك معاً، ونأكل ونشرب ونغني إذا اقتضى الحال، ولا شيء أكثر، وهو وراء التحدي الذي كان يضعني على طول الخط في صفها، ولا أجد في ما تقول وتفعل ما يخجل..

لكن شيئاً ما دفع بالخالة إلى التراجع والابتسام، غيرت سريعاً من شكل نظرتها ونبرة صوتها، جعلتها حائيتين كما هما دوماً، واقتربت مني أكثر:

- تذكرني جيداً، ذات يوم سأخبرك يا شيء، سأحكي لك بالتفصيل من أזור هناك، لا أريد الحديث عن ذلك الآن، ليست لدي الرغبة، ولا أتصور أنك ستفهميني بما يكفي، ليس لأنك في هذه السن فحسب، لكن الموضوع أكبر مني ومنك، ليس أكبر، أقصد شيئاً حدث، لكن لا أدري كيف أفسره..

ثم أهملتني، وراحت تأكل من اللوز الذي في كفها، حبة بعد أخرى..

ترى ماذا تخبيء الخالة عني؟.. وما هو ذلك السر المؤجل الذي يلزم الصبر؟..

ترددت قليلاً قبل أن أصوغ رجائي:

- ولم لا تخبريني الآن؟.. حتى لو أنني في هذه السن، ماذا سيحدث؟..
لأنني مراهقة يعني؟.. وحتى لو كنت مراهقة فأنا أفهم، ولدي إحساس
جميل بك وبكل ما تفعلين، ألسنا كذلك؟..

كان مبرر الخالة أقوى من رجائي بكثير، وهي تمضغ برفق:

- لا لا.. بلاش، اتركيني على راحتني، سيكون ذلك مناسباً في حينه،
لا تلحي أكثر يا شيماء عافاك ولا تعندي، أنت تعرفين، تعندين، فأعند
أنا الأخرى أكثر..

عيب الخالة أن صبرها قليل، وصدرها ضيق لا يحتمل الفجاجة ولا
قلة الذوق، وهو شيء لا يمكن الاعتراض عليه، ويمكن فهمه، لكنه
سيظل نقطة ضعف الخالة، الثغرة التي يستغلها كل من يعشق أن يسكب
الزيت على النار، ومداخل لمن يهوى أن ينخرط في لعبة استفزاز الخالة،
بالوقاحة التي تسمح له بأن يتسقط كل عمل مضحك تقوم به، أو أي
كلمة ساخرة تنفوه بها.

فماذا تراني أفعل من أجلها؟..

كنت أتصرف أحياناً بخصوص الخالة، مثل الدبة التي قتلت صاحبها، لم أقتل الخالة بالمعنى الحقيقي، لكنني كنت أستغل الفرصة في بيتنا حين نكون مجتمعين فأفضحها، أُمِّي لالة نعيمة، وأبي سي عبد المولى، وإخوتي الثلاثة الذكور سعد ومراد وفريد، بالإضافة إلى لمياء الصغيرة، أو في بيوت أخرى بين أقربائي، فأحكي لهم، من هبلي، آخر الطرائف التي عملتها في تلك العشوائيات، دون أن أهمل التفاصيل.

كان ذلك شكلاً من أشكال التعبير عن الانبهار بها، والإعجاب بتصرفاتها، وكنت ساعتها لا أزال صبية..

حكيت لهم مرة في بيتنا كيف تسلمت الخالة من شق الباب سمك الجارة الرخيص، الذي (ذوقتها) منه، ورمت به مباشرة في كيس النفايات، وانتظرت لفترة ثم بعثتني لأطرق الباب، وأعيد لها صحن البروص الأبيض نظيفاً ومشفوعاً بكلام منمق، عبرت عنه الخالة بصوتها الضعيف من حيث تقف، من مسافة ستة أمتار تقريباً من أمام باب بيتها، وهي تحجب عنها شمس الصيف بشالها الأبيض الرقيق:

- بارك الله فيك يا لالة جميعه، هذا السمك لذيد، الله يعطيك الصحة،

عرفت كيف تضعين له (شر مولة) متقنة، تبارك الله عليك.

بينما هي في الواقع، كانت تود أن تقول لها من كل قلبها، يا لالة ابتعدي عني ولا تطرقي بابي، اتركيني لشأني ولا تبعثي إلي بأي زفت!!.. أنا وحيدة كما ترين، وسيماء (شيء) لا تأتي عندي كثيرًا، لأنها منشغلة بامتحاناتها. غير أنها كانت تضطر إلى أن تتكثك أحيانًا، فتصير مجاملة، يحصل ذلك عندما تقوم بإجراء تقديراتها، وتقديراتها عن تلك الجارة لم تكن طيبة، بل كنت متأكدة من أنها كانت خجلة من أن تقول لي إنها تخاف منها، خصوصًا عندما ترسم القسوة على وجهها.

أكثر الكوارث كرهًا عند الخالدة، المرأة ذات الوجه القاسي، تعتبرها بكل بساطة ذكرًا وليست بأنثى، (بومذكر) كما قالت، موضحة أن جارتها تلك، تشبه الغليمية الخنثى، المرأة الضخمة المتشردة، التي كانت تجوب حافية شارع الرباط في الخمسينات، بقدميها المشققتين، وتتصرف مثل وغدة، حاضنة الرجال من الخلف، لا لشيء، سوى لتفتش في أعطافهم، فقد أشيع أن البوليس الفرنسي جندها لتقوم بالتجسس على المقاومين.

لم تكتف الخالدة بأن نعتت جارتها بأنها (بومذكر)، بل بحسب تعبيرها تتسم بالغموض والتهديد، وتتدخل قسرًا في ما لا يعينها، بالإضافة إلى أنها لا تحيد الإنصات، مما يجعل صوتها الأجش العالي، يطغى على صوت الخالدة الضعيف، فدمر ذلك منذ البدء أي رغبة لديها في التواصل معها، أو إقامة أية علاقة.

لكن مادام (الباب في الباب) ويا للأسف، ومساحة ضيقة من أرض متربة، فلا بأس من مجاملتها واتقاء شرها، أحياناً تدعو الضرورة إلى ذلك!!..

الصورة التي حاولت أن تعطيها الجارة الفقيرة عن نفسها، كانت شيئاً آخر، تصرفت باعتبارها عملت مزية، أمام امرأة مميزة في الجمال والنسب، (مدينية) بيضاء من عائلة خرينكو، شردها الزمن وجاء بها إلى الهامش، لا لتقيم، بل لترحل، لأن نومها في تلك الأحياء ظل مليئاً بالقلق والكوابيس.

لا أدري لماذا ينشط ذهني ويبرع في المقارنة، كلما وقفت امرأة قرب الخالة، وها هي الجارة واقفة في قوة وعنفوان، مشمرة عن ساعديها الأسمرين، رافعة إلى الأعلى ذيل ثوبها الأخضر المرصع بالأزرار الصفراء، وصحن البروص الأبيض في يدها، فأرى الخالة إلى جانبها شيئاً مختلفاً تماماً، امرأة أخرى تشع بالنعومة والصفاء، في الصوت والحركة والملبس.

ردت الجارة على مجاملة خالتي الكذابة، من خارج إطار باب بيتها المترب:

- الجار للجار يا لالة أم هاني، قلت مع رأسي ستصلك رائحة القلي الشهية، ويستحيل ألا أذوقك، بصحتك..

ثم التفتت نحوي وهي تبتسم، فبدت أسنانها الأمامية الكبيرة بلونها البني الغامق، ولم تكن أي واحدة منها تشبه الأخرى:

- كيف حالك يا شيء؟.. جئت لتؤنسي أمك؟.. إنك مثل هلال

العيد، لا تباين إلا مرة في الشهر.. هاهاها، لا تغيب عنها كثيرًا... إنها وحدها المسكينة.

ثم تركتني ونادت على ابنتها بطريقة جافة:

- تعالي أنت خذي الصحن من يدي يا بنت الحرام، أين اختفيت؟..

وجاءت الشابة وانتصبت خلفها ناظرة نحونا بعبوس، بعينين واسعتين وحشيتين، قبل أن تنتر الصحن من كف أمها وتذهب، بينما تابعت الأخرى تثرثر وتثرثر، بدرجات صوتها العالية دون توقف.

التفتت الخالة نحوي بعد أن عدنا، وهمست على قدر ما تستطيع من الثبات والهدوء، وهي تغلق الباب بمزلاج واحد، من النوع الذي لا يصدر عنه أي صوت:

- ادخلي، دعي الققط تتعشى الليلة بحوتها المسوس (عديم الملح)، من قال لهذه المعفونة إنني أحب كابايلا (نوع رخيص من السمك)؟.. أرايتها؟.. في الصيف تردي الجوارب، ترى ماذا ستلبس في الشتاء؟..

وضحكنا مختبئتين على جواربها الملونة، واضعة كل واحدة منا كفها على فمها.

لكن بعد حين هزت أم هاني رأسها متأسفة:

- أسمعت ما قالته عن ابنتها؟.. بنت الحرام!!.. كأنها غريمتان، أحيانًا

أسمعهما وهما تتشاجران، المسكينة بصوتها الحاد والثانية مثل العفريت، كم مرة نعتتها بالقذرة.....، وكلمات أخرى قبيحة، عادي، ومرات أبصرتها وقد شدتها من شعرها إلى الخلف.

كانت الخالة تقفل الباب بسرعة وتتوارى عائدة إلى غرفتها، كانت تكره العنف، مثلما كرهت صوت جميعه، الجارة الأخرى التي كانت شتائمها تلعلع عاليًا في الفضاء، من الصف الخلفي لتلك البيوت الواطئة:

- السايبة التي ليس عليها حكم تأتي إلى هذا الحي لتلوثه، أعطى الله العزارة (العزاب)، ما بان لك غير المتزوجين..

تتصور الجارة جميعه أن عانسًا أتت من الضواحي لتشتغل في السردين، لها علاقة بزوجها مسلك المجاري، فكانت لا تكتفي بالشتائم وحدها، بل تملأ جردلاً بالماء المخلوط بالبول، وتفرغه أمام بيتها..

فتستغرب أم هاني وتقول في نفسها:

- من سيسحر لرجل يسلك المجاري؟.. ما هذا الحمق؟.. وماذا ستفعل البنت المسكينة برائحته؟.. إن جميعه (تخربق).. لا لا.. لا شك أنها تخربق..

من فرشتها المعهودة للقيلوله، في تلك الزاوية التي يقل فيها ضوء النهار، خاطبتني الخالة:

- آه، قبل أن أنسى، سأبعث لها بمربي السفرجل الذي سأعمله هذا

المساء، لدي حبات كبيرة منه، دعيها تتعرف على شغل يدي، قبل أن أرحل قريباً وأترك لها الجمل بما حمل.

ثم استدركت بسرعة:

- وأنت!!..

بتلك الطريقة السريعة التي انتقلت بها الخالة من الحديث عن الجارة إليّ، كانت كأنها تود تثير اهتمامي، وتشعري بالفضول.

التفت نحوها، كانت تنظر إليّ بتركيز وهي تتفحصني من فوق إلى تحت، والشال الأبيض الرقيق، لا يزال يغطي نصف شعرها الذي صارت صبغته حمراء هذه المرة.

أحياناً كنت أنخرط في ضحك متواصل، عندما كانت تنظر إلي بتلك الطريقة الجادة الصامتة، بعينها الزبر جديتين الساحرتين، لكن هذه المرة لم أفعل.

- مالي أنا؟..

- لقد كبرت يا شيماء، وقريباً سيكون لك بيت، صار بإمكانك أن تتعلمي يا ابنتي، مثلك في الرابعة عشرة كنت قد أتقنت كل شيء تقريباً، الطواجن بأنواعها، الكسكس، السفرة، الحريرة، أعجن وأخبز وأعمل الفطائر، أصول وأجول ببراعة في البيت من غير صعوبة، (القراية) وحدها لن تنفعل في شيء، ماذا ستطعمين أسرتك؟.. الأقلام؟..

والمربك في الأمر أنها صمتت قليلاً، ثم أدخلتني في موضوع مثير:
- انظري، بمقدوري أن أقول لك شيئاً آخر، لم أكتف بذلك، كنت
أتابع في الخفاء كيف تتوضأ النساء (الوضوء الكبير)، بعد أن ينمن مع
أزواجهن في الليل، تعرفين يعني.... (وغمزت لي بعينها كإشارة إلى ذلك
الشيء)، لأنني أنا نفسي كنت ساعتها قد بدأ ينام معي رجل، (لم تقل لي
زوجاً)...

توقفت للحظة لتحك جبينها، لكن عيناها ظلتا مسطّتين علي، كأنها
وجدت الفرصة مناسبة أكثر مما كانت تتصور، ففتحت قلبها بانتظار أن
أفتح أنا الأخرى قلبي:

- تأخرت كثيراً يا ابتتي!!... يااه.

تأخرت في ماذا؟.. لم أسأها، رغم أنها شنجت زاوية فمها اليسرى حتى
تجعدت قليلاً، وهزت رأسها..

ماذا كانت الخالة تقصد بذلك التأخير الذي كنت عليه، أنني لم أتعلم
مثلها بعد طهي تلك الأكلات المعقدة، وأنا في بداية مراهقتي؟.. أم قصدت
أن تقول لي إن حظي عاثر، لأنني لم أتزوج بعد، ولم ينم معي رجل؟..

بحسب منطقها المتذبذب، وعقليتها الخاصة، أرجح أنها كانت تقصد
في تلك اللحظة بالذات، الشيء الثاني، ومن ثم أجزم أنها لو كانت مطلعة
وعلى معرفة بالكتب، فلم تكن لتكتفي بحثي على قراءة (دلائل الخيرات)

وحده، بل لأرشدتني إلى كتاب جلال الدين السيوطي، (نواضر الأيك في معرفة أصول النيك)!!..

وابتسمت عندما تذكرت قولها، إنها عندما كانت صغيرة، كانت لها تصرفات حمقاء، بدليل أنها كانت تقول مثلاً لمن حولها، إنها لن تتزوج إلا جدتها!!..

كانت خالتي أم هاني كطاهية ممتازة، تشمر عن ساعديها البضين، وتدخل إلى مطبخها النظيف، لتتفنن بالفعل في تهيين أنواع أخرى من المربى والمخللات، تعملها بكثرة حسب المواسم والفصول، برتقال، مشمش، تين، عنب، زيتون، ليمون، فلفل حار.. وتضع العلب في الثلاجة، أو تخزنها في العليات.

هل في ذلك أي ضرر؟.. لماذا ينساق هؤلاء الناس نحو تلك الأفعال الصغيرة، ويتركون الأهم، لماذا لا يضعون في حساباتهم تلك المهارات التي تمتلكها الخالدة، وتجعل من يعرفها يصبر على أن يأكل من طبخها طواجن لا يتقنها أحد سواها، ولماذا يتدخلون في أمور لا تعنيهم؟..

اعترض والدي سبيلي، بعد أن أنهيت حكاية الجارة والسماك، وكانت قد قلت حركة الأيدي، وهدأت ضوضاء الملاعق والشوك والسكاكين، فأخرجني في الصمت:

- هل هذا شيء يحكى يا ابنتي؟.. هل رفض كابايلا قصة، احك لنا عن (الحجرة)!!... ولماذا لم تعد خالتك أم هاني تطأ بقدميها حي أشبار بالمرة.. هه؟.. احك.

وغرقوا في الضحك ومسح الدمعات، حتى لمياء الصغيرة، التي كانت لا تزال تقول في براءة عن بولها (بيبي)، وعن شيئها (طويطة)، غير مدركة بعد قيمة ولا خطورة تلك الطويطة، والتي ستشعر لاحقاً في فهمها، وتلقي الأوامر والنواهي بشأنها، فكانت تنحاز إليهم وتنشط بشعرها البني وبمؤخرتها الوردية، وتظل تتلوى وتضحك بشكل مضحك، إلى أن تخنق وتبتول على السجادة.

فكانت أمي تسرع نحوها بكوب الماء، ناهرة إياها على اعتبار أنها تطير مثل الجنية:

- لا زلت تلبسين فردة حذاءك اليمنى في قدمك اليسرى وتضحكين؟..
أعرفين لماذا هم يضحكون؟.. اجلسي، كفى من الطيران!!..

كان في قول أمي بعض من الاحتجاج، لكنه احتجاج مبطن، غير موجه للمياء الصغيرة وحدها، كان موجهاً للمشاعيين الكبار أيضاً، الذين كانت تعرف أنهم سيشرّحون الخالة ويملّحونها، في واحدة من تلك القصص الكثيرة المضحكة، التي لا يملون من تكرارها.

مضى على ذلك الحال سنوات، ودائماً كانوا يملكون تلك الروح المرحّة

لتشريح الخالة، وما أكثر ما همست لي أُمِّي باستياء، مديرة ظهرها لهم، غير معطية لما يقولون قيمة:

- لماذا تقابل ابنة خالتي بكل هذا السفه؟.. لماذا يتعقبونها في الشاذة والفاذة، ويحولونها إلى تسلية؟.. انظري، كأن لا أحد يوجد في الدنيا غيرها، ناسين من هم، وماذا يفعلون..

من الكبير إلى الصغير، كان بوسع الخالة لو كانت هنا لردت لهم الصاع صاعين، ستوجه إليهم المواعظ أولاً كالعادة، حيث الجراءة على الكبار مناطق محرمة لا يجب الخوض فيها، وأن هناك طبقات من الحياء يجب أن تفصل بينهم، إذا ما أرادوا أن يكونوا (أولاد الناس) حقيقيين، وليسوا (رعاوين)..

ويامكانها أن تشتمهم إذا ما تمادوا وتفرعنوا، شتائم تليق بهم، خاصة وأنها تعرفهم واحداً بعد واحد، وتعرف عنهم ما يكفي من الفضائح والانحرافات، وأنها صامتة لأنها لا تحب أن تجرح أحداً، ولا أن تخوض في الأسرار... الذي ظل يتبول في الفراش حتى دخل إلى الإعدادي، والخواف الذي لا يستطيع النوم بمفرده، والحزاق الذي لا يستطيع حبس ضراطه، والكسول الذي تضعضع مستواه الدراسي بإدمانه الكولفازير.... بل تعرف حتى شكل أعضائهم الذكورية أيضاً، منذ كانت مجرد نتوءات مضحكة..

لكن ذلك لن يتم إلا في غياب أبي، أما في حضوره، فهي لا تملك إلا

أن تصمت وتحتاج، ناظرة نحو أمي مرة، ونحو أبي وإخوتي مرات، لحظتها كانت تنفلت خارجة لتصفق الباب خلفها بعنف، رافضة المكوث رغم صيحات أمي التي كانت تهزول وراءها متوسلة:

- كبري عقلك يا لالة أم هاني ولا تعلمي رأسك برأسهم، ولا تنصتي إلى هؤلاء الكلاب، (تقصد الثالوث الأرعن إخوتي)، إنهم يمزحون معك، عودي من فضلك... عودي الله يهديك.....

لكن الخالة بخبطها الباب بقوة، كانت تسد أمامها كل أمل في الرجوع.

حصل ذلك كثيرًا، مما كان يثير سخط ماما، خاصة حين كان يتجرأ البعض أحيانًا على الخالة، وهي لا تزال واقفة بجلبابها، بعد أن وصلت للتو، فيستفزها بكلمة أو تعليق.

- للمرأة حرمتها وليست مزحة على الإطلاق.. ما هذا السخف؟..

ذلك كل ما كانت تقوله أمي، وهي تنظر إليهم طويلاً بأحد حاجبيها مرفوعاً، ثم بعدها تنسحب وهي مستغرقة في الهمهمة وهز الرأس..

تصرف آلت على القيام به كلما أغاظها أحد منا، وأخرجها عن طورها، كانت هادئة وحليمة، كما ينبغي أن تكون عليه الأمهات، حتى وهن يتفرجن على أفعالنا القبيحة، وتصرفاتنا الخائبة، فكنت أتساءل على الدوام، من أين تأتي أمي بكل ذلك الصبر؟..

لكن لماذا يلح والدي على قلب المواجه، ولماذا يكرر النبش في حكاية (الحجرة)، وخروج الخالدة من حي أشبار، وعدم السكن فيه ثانية على الإطلاق؟.. ألا يرى أن الزمن كفيل بطي كل شيء، ولفه بالكتان؟..

إخوتي سعد ومراد وفريد، يقولون لي عند أتفه الأسباب إنني أشبه الخالدة أم هاني، هم لا يقصدون ملاححها بالطبع، ولا لون بشرتها، هي من صنف وأنا من صنف آخر.

أم هاني بيضاء تميل إلى الشقرة، وأنا بيضاء (كحلية)، أي بعينين بنيتين خضراوين، وحاجبين أسودين تقريباً، وشعر عسلي.

الخدود والشفاه ربا، مدورة وممتلئة قليلاً، ولا يعني ذلك أنني أقل جمالاً وجاذبية، وأنني لا أثير الانتباه وأجتذب النظرات، لاعتة في صمت الشهوة التي تحرض الرجال على جسدي، جسدي الذي يصفونه بدقة، ويضعون أعينهم على مكان الفتنة فيه، الساقان، المؤخرة، النهدان، الشعر البني المرشوش بالمش، المشية، الزاز (الأناقة)، وكل ما يشعرني بأنني كبرت، وصرت أنثى بحق، وأنني أستطيع أن أغمض عيني، وأتصور اللحظة التي ستهل عليّ، فأحب فيها وأحب، لكن الشبه الذي يقصده إخوتي، هو تعبير مهذب بأنني سخيصة مثلها ومسطحة، وفي سذاجة تلك الأدوار الكوميديّة التي يقوم بها عبد الرؤوف وبنبراهيم، والكوميديين الآخرين،

الزكري والداسوكين.. منذ أن وعوا، وصاروا يرونني برفقتها، وأنني هنا وهناك، في بيتها مرة وفي بيتنا مرات، حدثت حوارات طويلة وأسئلة وتهور وضحك..

ورغم أنني أتسم بالتحفظ، وأنني الآن من أشد البنات اجتناباً للثرثرة، فقد علقت زمان في مآزق مغيظة، شلت قدرتي على الحركة، وقلبت الغرفة بمن فيها ضدي..

لم يكن ما قمت به في تلك السن تبجحاً ولا استعراضاً للعضلات، بل كان حكيماً خالصاً، تعميماً للمعرفة والإمتاع.

التبجح طبع لا يناسبني، ولست أنا من تفعل ذلك، ولا يوجد ضمن أولوياتي كواحدة تنتمي إلى برج الخوت، بدليل أنني لا أكف عن الاستياء والضجر، ممن يحب الهرطقة ويميل إلى الاستعراض، أجد ذلك أمراً مملاً، ولا علاقة له بالتسلية.

ولكن، هل أنا أعنى بالأبراج؟.. منذ متى كنت أرى أنها هي من يحدد لي أولوياتي؟.. هل أنا، برحابة ما في الحياة التي وهبتها، لا أستطيع أن أتصرف خارج برجتي؟..

قلت مرة لقريباتي، المهووسات بقراءة الطالع والأبراج، في المجالات أو على الميديا:

- فلنفترض مثلاً أنني من الصين، وصادف تاريخ ميلادي برج الفأر

أو الكلب أو القرد، أو حتى برج التنين؟.. ألا يتمتع ذلك البرج بالحماسة والمغامرة، والمهارات المتعددة، وتوجيه الطاقة بطريقة حكيمة؟..

ردت علي سارة بنت خالي، أكثرهن شغفاً بمطالعة برجها الأحمق، برج الأسد، وكانت من خلاله تدير علاقاتها كلها في الحياة والعمل ومع الناس:

- رؤساء وملوك وفنانون يؤمنون بالأبراج، فلماذا لا أو من أنا؟.. يقولون إن تهور الثور هو الذي أسقط مبارك من الحكم، في الربيع العربي.

عاجلتها بالقول أختها سلمى، أستاذة الرياضيات بالباكالوريا:

- والله؟.. برجه هو الذي أسقطه؟.. مسكينة، كم أنت خرقاء، سياسة آخر الزمن، وأنت ما الذي أسقطك؟..

واستهزأت منها بالمناسبة، مشيرة إلى فشلها في الترقية، كموظفة متخصصة في الإعلاميات.

أذكر من بين الأمور التي أعطتني الدرس باكراً، وعلمتني أن الفم المغلق لا يدخله الذباب، أحد أخطائي السخيفة تلك، وكنت أيامها قد ازددت إعجاباً بالخالة، وصرت أنظر إليها كتاريخ من التجارب والخبرات، وأنها بعد جدي لأبي، الله يرحمه، واحدة من أهم مرجعياتي ومصادر معلوماتي.. ويكيبيديا متنقلة، أقضي معها ساعات من المتعة والخيال..

الذين نجبهم ونألفهم، نحن الصغار، لا غبار على ما يقولون في هذه الآفاق الواسعة، حتى لو ألفوا لنا الروايات واختلقوا القصص، نظل نحملق فيهم بعيون صافية وقلوب مرهفة، تشجعنا على أن نلقي عليهم تلك الأسئلة المضنية، عن الله والموت والملائكة..... لا يفهم الكبار كيف صغناها بذلك الشكل، وجعلنا الأجوبة عنها صعبة كالفلسفة والميتافيزيقا، والأخرى المخجلة: من أين جئنا وكيف ولدنا... مما يدفعهم إلى النظر إلى الواحد منا شزراً، كشیطان جاء في هيئة طفل.. أو بالأحرى: جن مصور.

حكيت مرة لأقراني في تلك السن، أن الكرة الأرضية يحملها ثور فوق قرنه، وأن ذلك الثور يقف على ظهر حوت، والحوت على ظهر صخرة، والصخرة في الماء..

ذلك ما روته الخالة.. ومن يستطيع أن يكذب الكبار، أو يتهممهم بالصفاقة وقلّة العقل؟..

لم تكن الخالة تعرف أن الثور في الميثولوجيا العربية اسمه نون، وله أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة، وأن الحوت يسمى البهמות، عرفت ذلك بنفسه بعد أن كبرت، وصار بإمكانني أن أقرأ وأنقصي، وأبحث في وجه الغرابة في تلك الحكاية التي سخرني الأطفال من أجلها، بناتاً وبنيناً، وكانوا قد جاؤوا في لقاء عائلي كبير، من اللقاءات الكثيرة الممتعة التي تحصل في الفيلا عندنا، وجلسنا لصق بعضنا البعض، على الأرائك والمخدات وفوق الزربية، في الجزء العلوي من بيتنا، في تلك الحجرة الجانبية

المفضلة، التي كنا نغزوها كمكمن، بعد أن يصعب علينا أن نتخلص من الصغار، أصحاب دور الحضانة، الذين كانوا يصدعوننا.

- هاهاها...

ضح الملاعين بالضحك فضحكت معهم، تصنعت المشاركة لأنه لا خيار أمامي، غير أن نبرة ضحكي كانت مختلفة عن نبراتهم، فقد كانت خجلة وجبابة..

وماذا كان بوسعي أن أفعل؟..

ببساطة كنت ساعتها لا أجيد الدفاع عن نفسي، ولا أجيد الجدل، وأول رد فعل خاطئ كان يمكن أن يحصل في حالتي هو الغضب، كانت ستتأبني التشنجات، وستقلص ملاحني باتجاه البكاء، ويصبح وجهي فرجة..

الاختيار الأفضل أنني تصرفت وكأنني أنني واحدة لا تؤثر فيها حركات صبيانية، ولا تشوشها الضحكات على الإطلاق!!!..

ثم من أين لي أن أعرف أنني أدخلتهم إلى تلك المنطقة الغامضة من دنيا الأساطير، إذا كانت الراويات أنفسهن لا يعرفن؟.. الجدات والخالات والعمات ولالة أم هاني، ونساء أخريات مررن في حياتنا، وكن يعدن من الذاكرة سرد القصص والحكايا، من أجل أن يمضي الوقت وننام.

موروث عبر الزمن والمسافات، وانتهى إليهن كوقائع خارقة، لا يستطيعن فك مغاليقها، ولا هن معنيات برمزيتها: بغلة القبور، الكائن الملعون إلى

الأبد، التي تخرج من المقبرة ليلاً تركض وتجر وراءها السلاسل، والشر يتطاير من عينيها، بابا عيشور أو (سانتا كروز) المغرب، الرجل الحكيم الفاضل الذي يساعد الفقراء، حوض النون (المسكون) في قلعة شالة بالرباط، الذي تسبح فيه السمكات جنباً إلى جنب مع الزائرين، باعتبارها جنيات، وفي الليل تطير لتحوم حول القلعة...

حكايات شعبية ممتعة، يقول عنها بياجي إنها قادرة على خلق أطفال مبدعين، ويعترف فيشر أنها تزيد من مهاراتهم في الاكتشاف، بينما يقول بعض المختصين عندنا إنها تربطهم بالهوية المحلية.

تشجعت وواصلت القول، وكأن ما حدث حولي لا يعنيني، أو كأنه حدث في مكان آخر، رغم أنني كنت في وضعية مهتزة حتى الحضيض، وإيقاع قلبي حزين:

- أتعرفون كيف يحصل الزلزال؟..

كنت أود أن أنقل إليهم كل ما جاء على لسان الخالة من خبرات، حمق اعتيادي، لكن لا بأس به، أشرح لهم أن الثور عندما كان يتعب، كان يضطر إلى أن ينقل الأرض من قرن إلى قرن، فيحدث الزلزال، وأن البركان ما هو إلا بوابة تتنفس منها جهنم!!..

لكن وجدت أن صوتي كان قد فقد حماسه، فكرت أيضاً أنهم يمكن أن ينظروا إلي نظرتهم لابن الجيران، حمزة المنغوليان، الذي كان يحمل باستمرار

مجسمًا صغيرًا لعلم المغرب، ويرتدي تيشيرتات البارصا، ويرقص ويغني في الشارع: بوسي الوأوا خللي الوأوا يصح..

طفلة كنت، لا علاقة لها بعلوم الأرض ولا بهزات الصفائح الصخرية والانزلاقات، ولا تدري شيئًا عن المعادن المنصهرة، ورغم ذلك لم يرحمني أخي مراد، كان دومًا على رأس المشاغبين، كمراهق متعب، وقائد الجوقات عندنا..

بأي حق كان يفعل ذلك؟.. إنه السؤال الذي كان يطرحه البعض صارخًا متضررًا، وأنا واحدة منهم، رافضة تلك السلطة الغامضة وتلك العنجهية، فكانوا يهدئوننا قائلين:

- لا بأس، إنه أخوكم الكبير..

كبير في ماذا؟.. في التبجح واستعراض العضلات؟.. أم في يده التي تسبق فمه، يده البارعة في شد الشعر، وجذب الأذنين، وأحيانًا توجيه اللكمات؟..

كنت مهياة للتفكير في حكاية أخرى، ومتحمسة لأن أروياها بدقة، الدوجال (الدجال)، وكل الحكايا الأخرى التي تراكمت في ذهني، من سنين الطفولة، حيث كان كل هم الخالة أن تقربني منها وتشدني إليها، بتلك القصص المغوية، لولا أن مراد حطني في دماغه، بعد أن استفزه قولي.

حذق في قليلًا بعينه البنيتين الواسعتين، وشعره العسلي وشاربه الرفيع،

وألقى نحوي ببسمة مليئة بالحنق:

– bravo bravo bravo .. هل لا زالت لديك أقوال أخرى؟ .. هه؟ ..
يا الله، قولي.

ثم مضى مقحماً إبهامه داخل فمه، وقلد صوت فرقة الفلين في زجاجات
الشمبانيا، كما نراها في الأفلام. برااa

صفر الأولاد تباعاً، ذكوراً وإناثاً، صغيراً مزعجاً وصفقوا وتصايحوا،
واستلقوا على ظهورهم ضاحكين بتشيرتاتهم المعمولة بطريقة direct to
garment، والمطبوع عليها شعارات عن الحب والحرب وبناء الأجسام،
وكأنهم عصابة من المجانين..

ولو كانت الخالة لحظتها هناك، لأوقفتهم عند حدهم، فهي أكثر واحدة
تعرف أنني مثلها، هشة وسريعة العطب، ولأخبرتهم أنهم عندما سيكبرون،
وعندما لا يعودون قادرين على التلوي والتدحرج من الضحك على السجاد،
سوف يفعلون مثلها، ويقفون موقفها ضد التهور وقلة الأدب..

قال أيضاً:

– انظري، هذا الهبل ليس غريباً عليك، وأنت لم تأتين به من الخارج،
من عاشر قوماً....، أو مثل ما تقول يايا (لقب جدتي لأبي): الي ما عنده
هم، تلده له حمارته!!!..

لم ينعتني أخي شخصياً بالحمار، فوالدي ويا للغرابة، كان يمنعنا نهائياً أن نتناز باللقاب!!.. لكن مراد المطمئن إلى خوفي منه، وإعراضي عن فضحه، كان يجد ألف طريقة كي يقول بها كل ما يشاء.

أصدر المشاغبون ضجة أخرى من أجلي، فصرفت النظر عن تلك الحكاية.

صوت الخالة الذي أصغيت إليه في ذلك المساء بشغف، ظل يتردد بداخلي، كانت تستند على المخدة وتحكي، مختلسة النظر إلى ساعة يدها العتيقة، ماركة اوميغا، حتى لا يفوتها المسلسل المكسيكي لغوادالوبي.

راحت توضح لي كيف تناسلت الأخبار في كل مكان، في بداية ذلك الأسبوع، عند مطلع القرن الرابع عشر، في البيوت والأزقة والحمام، وفي المقاهي، وأماكن الشغل، وفي الشارع.

تفاصيل لا أحد كان يدري من أين تأتي، ومن هم مروجوها، عامة أم خاصة، رجال دين أم مشعوذون وجهلة... والأهم من ذلك، تلك الحمى التي سرت بين الناس، فادخروا الخنطة والعفس والفول، وقرطيس السكر والشاي وصابون (الكف).. وانزوى كل واحد في بيته، بانتظار أن تمر فرقة موسيقى الغيطه والطبل، التي يوجد بها رجل بملابس النساء يرقص فوق الكارو.. قيل إن ذلك سيكون الطعم الذي سوف يسحب وراءه إلى الفناء، المغرورين بالدنيا والمفتونين بالمباهج، والتاركن الإيوان..

فأين السذاجة في ذلك، وأين والتسطيح؟..

كانوا كلهم يستفزونني بطريقة ما، حين تتاح لهم الفرصة، فريد وسعد ومراد، لكنهم لم يستطيعوا أن يجبطونني، أو يؤثروا على نفسيتي تأثيراً سلبياً، فأنا الأثيرة، تغمرني العواطف من كل صوب، من أمي وأبي وجدتي، وأكثر شيء من خالتي أم هاني، ولا أحد أهملني أو تخلى عني..

ثم، هل الخالة التي يشبهونني بها مختلفة إلى ذلك الحد، وتكرس نفسها كظاهرة للإزعاج؟..

إطلافاً. هي لا تشبه (ميدوزا) على كل حال، وليست (الكاهنة)... لم تكن أحداً، ولم تعلنها حرباً شعواء على أحد، كل ما هناك أننا يمكن القول تجاوزاً إذا أحببنا التعميم، أنها تسبب القلق والضيق، هكذا يقولون، ووالدي سي عبد المولى مثلاً، كمدير بنك منضبط، كان تقريباً لا يطيقها، أو في أحسن الأحوال يتحجر وجهه عندما يراها، ثم يسعى جاهداً إلى أن يضايقها.

أبي ممتلئ بذاته وبقراءاته الفرنسية، مولير، موباسان، ساتر، هيجو... وله نظرياته الخاصة في الثقافة والناس لا يقبل فيها النقاش، ربما لذلك يعتبر أم هاني سخيفة، بل يعتبر حتى المتحدثين بالعربية الفصحى سخفاء مثلها، خصوصاً المتخمين بالضجيج، الذين باستثنائه، يدعون مجرد ادعاء أنهم لا يطيقون الإزعاج!!..

بالمقابل، حددت الخالة موقفها بدورها من أبي، بالنسبة لها هو رجل الكلمات القاطعة والعين المتسلطة، يسمح هيئة من لا يجب من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فوق، بنظراته القوية المضغوطة، واضعاً ساقاً على ساق، وقد فعلها معها مرة وهي تمد إليه بوثيقة، مما جعلها تقرر يومها (ان تكويها في يدها)، وألا تلجأ إليه مهما كان، ومن تم تربي ذلك الجفاء وكبر، وصار متبادلاً بينهما..

تتذكر أنها اقتربت منه ذات أحد، وهو جالس في ركنه القضي بعيداً عن الصداق، في شرفة بيتنا الخلفية، يستمتع بعطلته الأسبوعية وبتدخين سيجارته، متطلعاً براحة إلى المساحة التي تعرش فيها شجيرات الورد والبرتقال والليمون، وشجيرات الزينة، وتغزوها مغردة بين الحين والآخر، أسراب من الطيور الصغيرة المختلفة، التي تعيش بيننا: قبرات، هزار، سمان، دوري، أبو الحناء... وأمامه على سطح مائدة فنجان وطبق من الخبز الصيني الأبيض، به قهوة مرة..

خطت الخالة نحوه قادمة على مهل، وهي لا تزال بجلبابها وحذاءها الموكاسان، وحرصت ما أمكن على أن تضيف البهجة على صوتها:

- صباح الخير سي عبد المولى.

رفع والدي رأسه نحوها، في اللحظة التي كان قد نفث فيها سحابة من الدخان، ولأمر ما شعر بأن الخالة اقتحمته وأخذته على حين غرة، فلم يخامر الشك بأن تلك عادة أخرى من عاداتها القبيحة، تضاف إلى

سجلها الحافل... فعلى الأقل كان يجب أن تتنحج أو تسعل، وهي قادمة على يمينه من مسافة معقولة.

بالنسبة للخالة، لديها أيضًا رأي خاص لا نقاش فيه، أن المدخن مثل السكير، كلاهما يمكن أن يفقد رشده، أما مدمنو (المعجون)، فتلك حكاية أخرى.

هشت أم هاني الدخان غير متأففة، ورأت كيف تردد والدي قليلاً، قبل أن يمسك بالورقة التي مدتها إليه، ونظر إليها كما ننظر إلى شخص انشقت الأرض وأنبته أمامنا فجأة.

بحسب أمي التي تعرف تنافرهما من زمان، كانت تشبهها بالقط والفأر، وفي العادة خالتي أم هاني هي الفأر.

قال لها والدي عابسًا:

- أهلاً... صباح الخير لالة أم هاني، نعم؟.. ماذا تريد مني في هذا النبوري (الصباح الباكر)؟..

وشرع يمسد بلوؤم خصلات من شعره الأملس الكثيف ليرجعها إلى الخلف، بعد أن أطفئ السيجارة في المنفضة.

تكدرت الخالة ووجدت عناء في استيعاب الموقف، هل هذا ردد؟.. ثم أين هو هذا (النبوري) الذي يحكي عنه هذا المعكاز (المتكاسل)؟.. إنها الحادية عشرة تقريباً، والمارة يملؤون الشوارع، ما الذي يجعله مملاً إلى

ذلك الحد؟.. تساءلت الخالة في نفسها متذمرة، لكن ذلك التذمر سرعان ما خبا، إنه (سي عبد المولى وليس اللعب)!!..

بادرت الخالة أم هاني إلى القول سريعاً، وكأن ليس لديها أي مأخذ على طريقة رده:

- اقرأ لي عافاك ما في هذا (الرسم)، لقد وجدته بالصدفة ضمن أوراقى، ولا أعرف ماذا يوجد فيه.

وكان الناس قديماً يطلقون لفظ (الرسم) على الوثائق الإدارية، وبعض المحفوظات.

- أقرأ لك ما في هذا (الرسم)؟.. هه، هات لأرى، تركت الأوراق في البنك، وها أنا أجدها أمامي في هذا الصباح.
ومد يده نحوها وأمسك بالوثيقة.

بحلق والدي قليلاً فيها بعينيه السوداوين الماكرتين، وبأنفه اللامع، وشفتيه السمراوين، ثم وضعها على الطاولة، وقال لها هازئاً:

- هذه الوثيقة شكلها قديم يا لالة أم هاني، كأنها من أيام سيدنا نوح، ومكتوبة بالسمغ، bon، اتركها واذهي، أنا مشغول الآن، في ما بعد!!..

ثم أدخل أصبعه السبابة في علبة مالبورو، وسحب منها سيجارة أشعلها بعود الكبريت، وأخذ يعبث بشاربه..

كان صوته مفعماً بلهجة الأمر، مما حدا بالخالة إلى الامتثال، فتحركت عائدة محبطة ومكتئبة إلى المطبخ، في الدور الأرضي حيث تركت أمي، إذاك صاح خلفها وهي تهبط أولى درجات السلم:

- ألا يمكن أن تكون هذه الورقة، وثيقة طلاق من طلاقاتك الخمسة مثلاً يا لالة أم هاني؟.. وارد جدًا، فماذا يمكن أن يكون غير ذلك، لكن هذه صغيرة، ورقة طلاقك لا بد أن تكون بحجم حصيرة..

وضحك فرحاً لكي يستفزها، وكانت ضحكته مكتومة، عندما يطلقها ترتج منها كتفاه.

لم يكلف والدي نفسه عناء أن يوضح للخالة، أن قراءة العربية بالنسبة إليه أمر مضحك، وهو لم يسبق له أبداً، كدارس في البعثة الفرنسية، أن صبر واستغرق في قراءة صفحة كاملة من ماجدولين المنفلوطي مثلاً، ولا الأجنحة المتكسرة لجبران، وسواها من الكتب التي كان أبوه يجبره على قراءتها، ولا حفظ بيتاً من الجرومية أو نهج البردة، وأنه لو أمضى وقتاً وهو يتهجى كلمات تلك الورقة، ويبدل جهداً خارقاً لفهم معانيها، لن يفهمها.

لكن ويا للعجب، لا ينفي أنه صار يجب أن يدندن أحياناً بقصائد نزار التي يغنيها الساهر، أشهد أن لا امرأة أتقنت اللعبة إلا أنت، واحتملت حماقتي عشرة أعوام كما احتملت، وكثيراً ما كان يضطر إلى أن يلتفت نحو أمي متسائلاً بنظرة واحد مغموم:

- ما معنى على محيط خصرها تجتمع العصور؟.. وفي سرتها مركز هذا الكون؟.. ماذا (يخربق) هذا le poète؟.. قلت لي ما اسمه؟..

لحسن الحظ، لم يكن والدي قد أهدى الخالة شيئاً أبداً، لا شالات ولا مناديل رأس ولا أحذية، لذلك لم يحدث أن لمتها كلها في سرعة ووضعتها في كيس، وأعادتها إليه.

ولا ضير في أن تقفل عائدة على مهل، عسى أن يهرع أحد نحوها ليصالحها، بعد أن تكون قد استنفذت كل التوتر، وهدأت أعصابها..

نوع من الاختبار لمعرفة مدى تشبث الناس بها وقبول حركاتها، غير أن الآخرين كانوا لا يتركون الفرصة تمر دون أن يصالحوها.. وكانوا بالمقابل يتغامزون قائلين: (عيني عليه، وتفوق عليه)... هاهاها..

إنه أسلوبها في الخصام ضد أي كان، وتصفية حساباتها معه، الخلاصة التي تجعلها في راحة، ثم بعدها تتنفس الصعداء.

أما ما يؤكل، فلحد اللحظة لم تنجح في إيجاد صيغة لإعادته، لأنها ببساطة تكون قد استهلكته على عجل، ووزعت بعضاً منه على جاراتها اللطيفات، وانتهى الأمر..

فأي شبه بين الخالة وبينني، وأي استفزاز، ما كان ليزيدني إلا إصراراً وتحدياً للآخرين، لأن الحكمة في ذلك لم تكن محدودة أبداً، لذلك كنت أستمع بتركهم غارقين في الغيظ.



تسمي الخالة والدي (سلطان الطلبة)، تلك الشخصية الاحتفالية للملك الوهمي في فاس، الخاتم لستين حزباً من القرآن، والذي لا تتعدى سلطته مدة أسبوع، يضطر بعدها إلى أن يخرج ليلاً متخفياً، حتى لا توسعه حاشيته ضرباً ويلقونه في النهر.

وفي اللاحق، وضعته ضمن خانة نماذج لا تعيرهم انتباهاً، مثل أشهر النماصات في العائلة، ممن حظين في الآونة الأخيرة من الحفيدات بألقاب غريبة لا تفهمها: غوغل، وات ساب، تويتري!!! وكلهن تقريباً سبعينيات وما فوق..

وحتى قبل أن تفهم الخالة إلى حد ما معنى تلك الكلمات، أو على الأقل تدرك في أي مجال تستخدم، ولفائدة ماذا، فقد ظلت ترى والدي مصنفًا ضمن تلك الخالة، مع أنه ليس نمامًا، ولا يجب استطلاع الأخبار..

ربما كانت عيوبه في رأي الخالة أكثر حدة، لكنه كان ينأى عن الخوض في أعراض الناس، أو الاصطدام بهم في قضايا تخصهم..
قلت لها مستدركة ذات مرة:

- أنت مخطئة يا خالة، في هذه النقطة بالضبط أنا لا أنفق معك، لماذا تشبهين والدي بأولئك؟.. والدي يمكن أن يفعل أي شيء، إلا النميمة، وأنت تعرفين..

قالت متفقة تمامًا معي:

- أعرف.. والدك رجل محترم، وبعيد كل البعد عن تلك الخصال، لكنه ترك كل شيء وتخصص في شخصي، ولو انتبهت إلى هجومه عليّ، والنظر إليّ مثلما ينظر الجندي إلى مؤونته، لوجدت أن كل ذلك بدون موجب شرع..

ثم بالمناسبة استفسرت من ابنة عمي هدى، وألحت عليها أن تعرف صاحبة كل لقب على حده، وكأن ذلك يعني لها كثيرًا..

إنهن قريبات الخالة هؤلاء النساء، وقريبات البنات أيضًا، شبكة محيرة من الأنساب والعلاقات، تتداخل مع بعضها البعض، وتجعل الكل ينتمي إلى الكل، في دوائر كانت لا تنفتح إلا بصعوبة، لأولئك الوافدين إلى المدينة، من ذوي الأموال والاختصاصات المهمة والمناصب الرفيعة، والموظفين والكادحين.

عائلة واحدة كبيرة، لكن فيها أجنحة قوية وأخرى ضعيفة، تخوض صراعاتها الخاصة باستمرار، من أجل أن تحتل المواقع وتدبر الشؤون، شؤون العائلة والمدينة كلها، في المصاهرة والوجهة والنسب والسياسة والاقتصاد.. مؤسسات محلية، رمزية وفعلية لا غنى عنها..

سرت أم هاني كثيرًا حين علمت أن عمتي لالة سعاد، المرأة البيضاء بياضًا شاحبًا، وصاحبة الشيب في الضفيرة، هي غوغل، أي النمامة رقم واحد..

كانت لا تحبها، ليس لأنها أخت والدي، بل لأنها تقف لها دائماً مثل العقدة في المشار، وتضايقها حتى يحمر وجهها ويصفر ويبيض من الغيظ، وكثيراً ما سلكت كل السبل من أجل أن تفشل مشاريعها وخططها في (النشاط)، ثم تحاول ما أمكن أن تلعب دور اللوسة (أخت الزوج) مع أمي، لكن ماما امرأة عاقلة، كانت تفهمها وهي طائفة..

عمتي لقبت كذلك، لأنها تدس أنفها في الكبيرة والصغيرة، وتسعى إلى أن تلم بالشاذة والفاذة، حتى تبدو مطلعة وقرية من الكل، وصاحبة علاقات واسعة ومصدر ثقة، ولو أتيح لها أن تترشح في أسفي، كما قالت، لكانت شغلت مقعداً في البرلمان!!..

سمعتها مرة تقول وهي تحكي وتضحك من هاتفها المحمول:

- أنجح والله دون أن أدفع رشوة، يكفي ترويج اسمي، الناس يحبونني ويتسابقون على تدليلي، ولا أستطيع مغادرة بيت إلا بشق النفس، كل يمسكني من جهة من ثوبي، خليك معنا قليلاً، نامي عندنا، نحن لم نشبع منك ولا من أحاديثك، رجاء..

تدعي عمتي سعاد أن الأخبار تأتي إليها من تلقاء نفسها: خيانات، جرائم، تصفية حسابات، شذوذ، شجار، إفلاس، احتيال، طلاق.... وبارعة في معرفة الدروب العتيقة والأزقة شبراً شبراً، ومعرفة العائلات، من عاش ومن مات، كأنها تتلمذت على يد النسابة هشام السائب الكلبي، لكنها غير أمينة على الإطلاق، ولا يهدأ لها بال إلا بعد أن تضيف إلى أخبارها الكثير من الإبزار (التوابل) والتفاصيل.

أما الواتساب أو لالة ربيعة، زوجة الحاج قدور ابن عم الخالدة، المرأة السمراء الجذابة، فهذه لا تساوي بصلة إذا ما قارناها مع لالة سعاد، فخلافاً لها، أخبارها قليلة، وهذا يعني أنها لا تتقن فن الهبش والنبش، ولا تستطيع تسليط الضوء على الأسرار المخفية، غير أنها حيوية وفعالة، وأسرع من يروج الأخبار ويفلح في نشرها.

لالة أمينة تويتر، حماة من الحموات الكثيرات، ويمكن الكشف ببساطة كم هي شنيعة!!..

صندوق أسود للأخبار المروعة، من أصيب بالزهايمر أو ابتلي بالرعاش، من صار مقعداً بسبب الشيخوخة والشلل، ومن أجرى عمليات دقيقة، أزالوا له فيها عضواً حيواً من أعضاء جسده المعتل، ثدي، مرارة، رحم، خصية، غونغيرينا....

وقد تعودت أن تواجه بطرق معروفة، ففي واحدة من تلك الأخبار، كثيراً ما كان يتم الصراخ في وجهها:

- ذكرنا السمن والعسل، من فمك إلى كمك!!.. ما هذه الأخبار؟..
فتضحك بأسنانها الاصطناعية ضحكة مديدة، إلى أن تشرق وتكح، وتتناول جرعة أو جرعتين من الماء، ثم تواصل تلاوة النشرة، بينما البعض المتهالك الذي يبدو معتوهاً بعض الشيء، كان يعتمد إلى أن يخرسها بوضع كفه على فمها، أو دفن نفسه تحت الأغطية!!..

ألقاب تختلف تمامًا عن الألقاب المضحكة، التي أطلقتها الخالة نفسها على بعض النساء المتعبات: عروس الحديقة، الطيارة أم خط، غميج، لاراف....

أحبت الخالة خفة البنات، كانت روحها قريية من أرواحهن، وسائرة معهن على طول الخط، في ما يخص الشيطنة والتعليق والتنكيت، مع أنها في الواقع، كانت تتذمر من رؤية شق مؤخرة سمر بنت خالتي، ومن شريط كيلوتها، وكثيرًا ما همست لي مغتظة:

- ما بها سمر؟.. لماذا ترتدي هذا السروال الذي يعري مؤخرتها، وتزوق مثل التعريجة؟.. لماذا تعلق السلاسل في رقبتها وخصرها، وتنفش شعرها مثل بوبي (تقصد الكلب)، وذلك القرط في الحجاب!!.. والأظافر، وحذاء الصوبيصات (العاهرات) ذي الكعب العالي، هل خرجت هكذا أمام والديها؟..

كنت أود أن أقول للخالة، إن المؤخرة العارية والسلاسل والقرط في الحجاب والأظافر، لا تساوي شيئًا إذا قارناها بما خفي، وما خفي ليس لأنه الأدهى، بل يمكن أن يوصلها إلى أقصى من الفلقة.

سمر تدخن وتتحشش، وتؤمن بضرورة فعل (ذلك الشيء)، جنسًا كاملاً، حتى لا تنمو البثور على وجهها..

وعندما حاولت أن أنصحها مرة، استهزأت بي كما ينبغي، وسخرت

مني لأنني لم أكن لأستهين بالبكارة مثلها، بل أفعل ما هو مضحك، أصونها من أجل عريس الغفلة المحتمل، حارمة نفسي إلى أجل غير مسمى، من أحلى متعة في الكون.. وختمت بأن غيرتني بالعدراء المتزمطة..

قالت لي وهي تنظر نحوي، غير عابئة بي ولا بردة فعلي:

- ستتزوجين رجلاً ستتقاتلين معه طول اليوم، وسيسود عيشتك، وستتقطين حياتك في المشاكل والصراعات، والبسي ولا تلبسي، وتزوقي ولا تتزوقي، ولماذا ينظر إليك هذا ولماذا ينظر إليك ذاك، وسلسلة من السخافات وقلة القيمة، وفي الليل يعلق لك رجلك مثل دجاجة مشوية في الروطي.. اسمعي الكلام وعيشي حياتك، ولا تعملي لي فيها رابعة العدوية..

ثم خبطت على كففي بقوة، وتابعت:

- والله أنت لمهزلة!!..

ثم لم تنس أن تستعرض أمامي بالمناسبة، نماذج من المطلقات المتعوسات، اللواتي كانت تصادفهن في المحكمة، حيث تشتغل أمها، (يقطعن القلب)..

- أتريدين أن تكوني مثلهن، تدورين دائخة مع أطفالك من مكتب إلى آخر مثل الدبانة؟..

ليست سمر وحدها من تفعل ذلك، وتمارس حقها الكامل في الجنس، كثيرات يقلن لي إنهن يحرقن طاقتهن الجنسية من أجل توازنهن النفسي،

ويمارسن ذلك بكل الضغط والجنون، حتى يكسرن الرقابة من حولهن ويتحدين المجتمع، ويفرضن الذات، دون أن يلقين بالاً إلى أحد..

حدقت أماني حفيذة عمتي سعاد هي الأخرى مرة في وجهي، بوشمها وأقراطها، وماكياجها الغامق black up، الذي تستخدمه السوداوات، وقالت لي بكل بساطة:

- مال الآخرين ومالي؟.. إنه جسدي وأنا حرة فيه، ولماذا سأكبتة؟..
ما الذي سيمنعني من أن أستمتع كما يحلو لي، وبعدها لها مدبر حكيم..
الصين بارك الله فيها مستعدة لسد المثقوب..

سيكون صدمة للخالة، لو واجهتها بتلك الحقيقة المفزعة، وبأبعاد النزوات الشبابية المتهورة، ستشهق شهقة النساء التقليديات، هيسيسيس، وستضرب بلطف على صدرها، ومن المؤكد أنها ستستهزأ أقرب فرصة لتأمر الأمهات بأن يتركن النميمة، ويراقبن بناتهن عن كثب.

أول أم ستصادفها الخالة من قريباتها، سواء كانت ابنتها منحرفة أو جادة، ستخاطبها بصوتها الساخط:

- أنت!!.. اتركي الكلام الفارغ واهتمي بابتك، تعرفين أين هي الآن وماذا تفعل، وأنت جالسة تغتابين في الناس؟.. هل بوسعك تخمين برفقة من يمكن أن تكون؟.. فكري في الأمر واطركي الناس في حالهم، فعلاً، الجمل لا يرى حديثه، لا يرى سوى حذبات الآخرين!!..

جو الضحك بقي مستمراً مع تحريف الخالة للكلمات، أعادت تويت وغول وواسطاب عدة مرات، من أجل أن تضحك البنات، وتستغرق معهن في الضحك، هكذا كانت تقضي وقتها عندما تكون رائقة، تحب الخفة والمرح وراحة البال، ثم أخيراً حكّت لهن كإضافة توضيحية، أن أولئك النمامات كن شيئاً آخر، كن شاببات لطيفات في الستينات، يرتدين الميني جيب، ويقدن الفيزبا عبر عقبة بياضة وأشبار وجنان الفسيان، ويرقصن التويست في السيربريز بارتي، وفي حفلات عيد العرش بقاعة الأوتوهول، أو في بهو البلدية، حين كان يقيم الأعيان والبورجوازية حفلات خاصة، لا يحضرها الرعاع..

في عيد العرش تنتفي (الأحكام)، ورغم انتهاء بعضهم إلى أوساط مفرطة في التزمت، إلا أنه لا أحد كان يتخلف عن ذلك العيد..

قالت ذلك وهزت رأسها يميناً وشمالاً للحظات، متأسفة لما آلت إليهن أوضاعهن، بعد أن تركن الحياة التي كن فيها، وانغمسن في التفاهات... حياة الأنافة والانطلاق، وأشعار الحب والقلوب المرسومة في رسائل العشق البريدية..

- يا الله!!.. ما الذي غيرهن، وسمم أرواحهن الجميلة؟..

حاولت البنات ألا يأخذن كلام الخالة بجدية، تصورن أنها تهرج، وإلا كيف يمكن لتلك الأجساد المستهلكة أن تفعل ذلك؟.. التجاعيد الفظيعة، الركب المتورمة، السيقان المليئة بالعروق الزرق، الكواحل المعوجة، نظارات

قعر الكأس، أطقم الفم المعمولة عند (صانع الأسنان).... العكاكيز .
فكرت البنات على ذلك النحو، لكن الخالة دافعت عن النهمات بصدق،
قالت إنهن كن من بين الشابات الأجهل والأكثر شياعة في أسفي، يلفتن
النظر ويدرن الرؤوس، نموذج حي للعصريات، بنات المدارس المتعلمات،
والحاصلات على الشهادة الابتدائية والبروفي.

ارتفعت حواجب الصبايا دفعة واحدة إلى الأعلى، ونظرن إليها بحدقاتهن
المزيفة، وابتساماتهن المشككة.

يبدو وكأن الخالة كانت تنبش حول هذه الأسماء على بعد مئات السنين،
والزمن لا يرجع بقفزة واحدة، ولا بكلمات سهلة، تنزلق الكلمات، لكن الاحداث
تبدو بعيدة وغير حقيقية، أكثر مما يمكن أن تتصور الحفيدات..

وكنوع من التسليم، قالت ابنة خالتي هدى، الطويلة والضامرة مثل
المانكانات، مواجهة أم هاني بعينيها المزيفتين، اللتين هما أصلاً سوداوين
وساعتها كانتا فستقتيتين:

- impossible!!!... لا أتصور أن هؤلاء كن كذلك، تبدين جادة يا
خالة، والله لو أقسم لي أحد آخر على ذلك لن أصدقه.. عجيب.

انتبهت الخالة إليها، فقرصتها بلطف في خدها وقربتها منها:

- تعالي أنت هنا.. ما بك؟.. شيء ما متغير فيك.. ألم تكن عيناك
سوداوين أنت الأخرى؟..

أخضر وبني وأزرق وفيروزي.... عدسات تراها الخاله شنيعة وتثير البلبله، حتى أنها لم تتعرف ذات مرة على كاميليا، فكلمتها بتحفظ واحتياط، معتقدة أنها غريبه، ثم أمطرت بعدها أمي بوابل من الأسئلة:

- لماذا تجعل خطيبة مراد عينيها مثل الهر؟.. هل شاهدت عيوننا في الدنيا مثل تلك؟.. فهميني لماذا؟.. هل هي عوراء (ضعيفة البصر)؟..

عندما كنا صغارًا، كنا نتصور أننا وحدنا من حظينا بتلك الطفولة، وأن الكبار جاؤوا كبارًا بتلك التجاعيد والأدوية والروماتيزم، وبشهقة الكحة المختنقة، أو السعال العسير..

من يستطيع أن يستعيد من الذاكرة صور الكبار وهم صغار مثلنا؟.. (الذاكرة العرضية) أو (قرن آمون) لا يسترجع سوى أحداث السيرة، ما تشكل في اللحظات العاطفية من الوجوه والحقن والأدوية والختان وثقب الأذنين، وربما أشياء أخرى كريهة، كحادث اغتصاب أو تعذيب..

التلف في أعين الصغار صفة ملازمة للكبار، حتى وإن شاهدوا ألبوم صورهم العتيقة بالأبيض والأسود وهم أطفال، أو بالألوان الطبيعية المائعة.. إنهم أنانيون إلى أقصى حد، وذاتيون في كل ما يتعلق بما حولهم.

لكن السؤال الذي لم يبرح شفتي الخاله، كعادتها، هو ماذا عنت البنات بتلك الكلمات بالضبط؟.. غوغل وتويتر و.....

ظل شيء ما من قلة الفهم والاستيعاب يضايقها، ولم تستطع سمر أن تقنعها بما يكفي.

كانت الخالة ملحاحة في كل شيء، بل و(مقجرة) أحياناً، حتى في الوقت الذي نكون فيه قد تصورنا أننا قد تجاوزنا أحاديثنا السابقة بكثير.

- أحد منكن يشرح لي يا بنات...

أصرت الخالة قائلة بشغب، بينما كل واحدة من حولها من البنات، كانت قد انزوت ودخلت سريعاً إلى عالمها الخاص، متطلعة إلى هاتفها المحمول، ربما ذلك ما جعل الخالة تلح أكثر، عسى أن تستعيدهن مرة أخرى، وتكمل معهن أشواطاً أخرى من الضحك والسخرية و(النشاط).

تطوعت أمي، خريجة الإعدادية في السبعينات ووضحت لها الأمر، حاولت أن تفهمها بطريقتها العملية حتى تنهي الموضوع:

- شيء يشبه حكاية البرق والتلغراف التي كانت عندنا زمان، وظلت مكتوبة على مبنى البوسطة الكبير إلى حدود الثمانينات، أتذكرين؟.. هاهاها، كنت أعتقد وأنا طفلة أن هناك أنفاقاً أرضية ممتدة من صندوق الرسائل، لتذهب مباشرة إلى حيث العناوين، شيء من هذا القبيل يعني.

وضحكت الخالة مجارية أمي، ثم رمت بتلك الأسئلة خلف ظهرها، كما ترمي ببعض أشياءها في مكب النفايات..

لم تكتف الخالة إذا بأن تسمي والدي سلطان الطلبة، بل سارعت بوضعه

ضمن تلك الخانة، وصارت في غيابي تسميه بتلك الأسماء، مرة تويتر ومرة غوغل أو الواتساب، وعملت مجهوداً خارقاً حتى يمكنها ألا تحرف تلك الكلمات كثيراً، وأن تنطقها إلى حد ما سليمة... لكن هيهات!!..

كنت قد لويت فمي، وقلت لأبي ببرود مفتعل، حين ذكر حكاية (الصخرة) وحي أشبار، ونحن لازلنا على طاولة الغداء في ذلك اليوم، ولماذا لم تعد الخالدة تذهب إلى هناك:

- أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك.

وكنت في الواقع أعرف.

قام والدي بحركة بسيطة من يده الموضوعة فوق المائدة، المغطاة بأطباق كانت مملوءة بالباربا، تكتوكة، زعلوك، خيار، خس، زيتون أخضر وأسود، كرتان البطاطس بالبشاميل، وفي الوسط صحن كبير مليء بلحم الغنم المطبوخ بالقوق والبازلاء.. وكان يعني بذلك تفضلي!!..

ثم بعدها سمعته يقول، وهو يحشر كالعادة جملاً فرنسية في كلامه العادي:

- حسناً، لا تكوني مصدومة، va_y، أسألها إن كنت حقاً لا تعرفين، دعيها تحكي لك بنفسها، قولي لها تعالي اسكني في حي أشبار، وستسمعين

الرد...!! comme elle est folle. المصطبة (المعتوهة) ..

وظل يهز رأسه لمدة غير يسيرة، وعلى وجهه علامات السأم، بينما إخوتي وهم يضحكون، كانوا يعرفون أنهم يعزفون له على الوتر الحساس، كمسخنين من الدرجة الأولى وهواة تشجيع، كانوا كلهم نسخة طبق الأصل منه في الشكل، ويقال إن ذلك لأنها لم تكن تحب أبي في الوح.

أكبر ورطة قديمة وقعت فيها الخالة وأنهكتها نفسياً، تلك القصة، حكّت لي ذلك ذات مرة، وكانت تجلس فوق سريرها ذي القوائم النحاسية العالية، آخذة في تلمس عظمتي ركبتيها، مثلما تفعل كلما أحبّت أن تتحدث في بعض الذكريات القديمة، ركباتها اللتان لم تتصلبا بعد، ولا زالت تستطيع أن ترقع وتسجد أثناء الصلاة، على عكس جل النساء في سنّها، اللواتي صرن يصلين وهن جالسات على الأرض..

كانت ترتدي لباساً أبيض ليلياً، وتضع على رأسها منديلاً من الكتان، بينما لباسي كان مكوناً كما هي العادة في الصيف من قطعتين، شورت وتي شيرت من القطن الخالص، ومن دون حمالة صدر، وكنت أتمدّد على مبعدة منها، بمسافة معقولة بسبب الحر.

قالت لها مباركة، الجارة من أصول بدوية، وقد جاءت قادمة إليها من بيتها، لتغريها بالذهاب معها إلى سيدي بوشتي، حيث يمكن أن تمارساً معاً طقساً غريباً، يتعلق بفتحة داخل صخرة، وكانت قد صاغت اقتراحها في فكرتين:

- ألم تملي يا لالة أم هاني وتقنطي؟ .. تعالي نغير الجو ونجرب مثل كل الناس، الذي سيعبر بسهولة من الثقب مرضي الوالدين، والذي سيعلق مسخوط!!..

بين خالتي أم هاني والجارة جدار واحد مشترك، كان بوسعها سماعها من خلاله وهي تنفجر بالضحك، متتبعة التمثيلية الهزلية للهرونونية مع الماريشال قيبو في المدياع، أو سماع طرقاتها كلما احتاجت أن تستعير منها شيئاً، ملحاً أو فلفلاً أو عود كبريت..

أي امرأتين مجنونتين!!.. من يصدق أن نفقاً ضيقاً في صخرة، يوحى بتلك المشاكل؟..

ثم من أين جاءت تلك الصخرة وإلى أي عصر تنتمي، في تلك التضاريس التي يصفونها هناك في الساحل، بأنها أراض صخرية غير صالحة للزراعة؟..

لا أحد سأل ولا أحد اهتم.. كل ما هنالك أنهم حولوا تلك الصخرة إلى مزار، جموع من البدو، وبعض الحمقى من المدينة، ممن يخلقون الصخب والزحام والفوضى، حتى لو لم يدركوا لماذا هم يفعلون ذلك أصلاً.

سمعت عن مزارات غريبة في العالم، يرتادها الناس للهو والمتعة والاستكشاف... كهف الساحرة الأم شيبتون في انجلترا، حديقة الجحيم في التايلاند، المكتوب على مدخلها (اهلا بكم في الجحيم)، الغابة الراقصة في روسيا، حديقة الجنيات، متحف الأعضاء التناسلية للشذليات...

لم أتصور أن المخيلة الشعبية، يمكن أن يصل بها الجنوح إلى ذلك الحد في موضوع (الرضى والسخط)، مهما كانت نزقة وغريبة الأطوار..

في الثقافات الإنسانية المختلفة، هناك البر بالوالدين، ودرجات أخرى من الإحسان إليهما، مثل التودد، وفهم طبيعتهما والتعامل بما يقتضي ذلك، ليس كواجب ديني أو أخلاقي فقط، لكن كراحة للضمير..

غير أن دكتاتورية بعض الوالدين عندنا نحن أمر مختلف، يختلط فيه الديني بالاجتماعي، وتتحكم فيها العادات والتقاليد، بل هي فوق الدين أحياناً، ولا عجب إن وصلت إلى درجة التعسف والتدخل في الكبيرة والصغيرة، وفرض الآراء والتوجهات..

صديقتي لبنى، الطالبة القادمة من مدينة خريكة، والتي درست وإياها التاريخ في الجامعة، أخبرتني ذات يوم أن جدتها استغلت موضوع الرضى والسخط استغلالاً سيئاً، فطلقت أمها بتوكيل رسمي من أبيها المهاجر، الذي كان يعمل في إيطاليا، وحكت لي أنها كانت تقف عائناً أمام نوم كنتها مع ابنها، مدعية أن الممارسة كل ليلة تفقد الرجل همته ونضارته، فكانت تعتمد إلى فعل كل ما من شأنه أن يزعجها، ويشعرهما بالحرج.

بدت فكرة سيدي بوشتي مثيرة في عيني الخالة، عملت أشياء كثيرة مجنونة في الحياة، إلا مثل تلك، لم يسبق لها أن عبرت زاحفة على بطنها من فتحة، ويعلم الله ماذا اعتبرته، شيئاً روحانياً أو حاجة تشبه الخوارق..

المهم أن تتصور أي شيء، إلا أن تفترض أنها مجرد فتحة نحتتها الريح في صخرة!!..

وبما أنها تشرق أحياناً بابتسامتها أمام نصف فكرة، وتترك النصف الآخر، فلم تناقش ولم تفكر في العواقب، وهكذا تخلت بسرعة عن تحفظاتها، وراحت تسأل وتتحدث، وظهرت عليها السعادة العارمة.

قالت للجارة ذات الزغب فوق الشارب، وهي ترفع كتفها كقرار مدروس:

- فلنذهب، ولما لا؟.. ليس ورائي شيء، أنا حرة، لنجرب.

فقلدتها الجارة:

- وأنا مثلك، حرة أيضاً، أنت مطلقة وأنا زوجي مات، ولا أولاد (يبرزطوننا).

وشرعت الخالة في طرح الأسئلة وإعداد الترتيبات.

إنها من برج الحمل، من أصحاب ارتياد المخاطر والقرارات الخاطئة، الذين يعتبرون التفكير في العواقب مجرد مضيعة للوقت.

قالت الخالة للجارة مستفهمة:

- وأين يقع سيدي بوشتي هذا؟.. وهل سنحتاج إلى الكثير من النقود؟..

ردت عليها مباركة، وهي ممتلئة بالرضى والطمأنينة:

- لا عليك، كل شيء سآرتبه بنفسي، لا تقلقي، استيقظي أنت باكراً
واخطي على الجدار، وكل شيء سيكون على ما يرام.

من محطة كدية سي حمزة، ركبت الخالة الحافلة مع الجارة صباح اليوم
التالي، حافلة عتيقة لم تستطع أن تذكر ماركتها، ترددت قليلاً مشرّبة قبل
أن تصعد إليها، كانت مدبوزة (غاصة) على الآخر، تستوعب أربعين راكباً
في الأصل، لكن كان بها حوالي ستين، ومع الناس العاديين، كان يركب
المرضى والحمقى والمعطوبون، والذين يتحاورون بحدة طوال الطريق.
تذكرت الخالة الزحام والروائح وهي تحكي، المازوط وزيت الموتور
والقيء، ودخان سجائر كازا سبور الحمراء والزرقاء، والفليتوكس، ودواء
البرغوث والأنفاس، يااه!!.. ولعنت ذلك اليوم الذي فتحت فيه الباب
للجارة، وتبعها مثل نعجة.

في المسافات الطويلة إلى كازا أو إلى أكادير، أخبرني الخالة أنها كانت
لا تتركب سوى (الستيام) بالنهار، أو (السلوقي) بالليل، عندما لا تتوفر
سيارات الأقارب القديمة، ذات العيون المدورة، الأوبيل والشفيروليه،
التي كانوا يقودونها بسرعة الخمسين أو الستين كيلومتر في الساعة، باتجاه
المدن البعيدة...

وكجزء من الذكرى، استعادت ضاحكة أيام بدأت السيارات تدخل إلى أسفي، وكان الناس يقفون على الأرصفة ليتفرجوا عليها، ولا يعبرون الشارع من غير أن يتماسكوا بالأيدي، ثم يقطعونه راكضين، بينما السيارة لا تزال قادمة من بعيد... سيارات الأعيان والفرنسيين.

حافلتان لا يركبهما إلا (التجار) و(الدومال)، كانوا كأنهم سيركبون طائرة تقودهم إلى رحابة الفضاء، شياكة وخطور وحقائب أثيقة، ومقاعد مريحة، وسائقان يتناوبان عوض سائق واحد.. لماذا تتقوض الحضارة وتنهار؟..

لا أقصد الحضارات العظيمة، حضارات الأمم والشعوب، أقصد مدينة عريقة في القدم، أسفي، اسمها ورد في أمهات المعاجم، ياقوت الحموي وابن بطوطة، وحظيت بامتيازات كثيرة وسفارات وقناصل، مرساها خصصت للتصدير في الزمن الغابر، الحبوب والسكر والشمع والصوف والذهب والصقور وملح البارود، سكت الفضة والذهب، عبرتها جاليات بلا حصر أو استقرت بها، إنجليز وإسبان وفرنسيون وبرتغاليون... القائد الإسلامي عقبة بن نافع دخلها بنفسه منتصرا، وقال قولته المشهورة تلك، وهو على صهوة جواده: (لو كان وراء هذا البحر.....).

في الاقتصاد لا زالت المدينة عجلتها دوارة إلى حد الآن، والإنتاج بألف خير، ولا زالت تروض الطين وتصنع التحف من الفخار.

مدينة صغيرة ذات موارد كبيرة، البحر والفلاحة والفوسفات والخزف، تقترض من عائداتها مدن كبرى، مثل كازابلانكا، وبدل أن تصعد بخطى ثابتة إلى الأعلى، ها هي تنزل إلى الأسفل.

من كان يتخيل أنه بعد ثلاثين أو أربعين سنة، سيدخل (الشكلي في العكلي)، وتتخذ المدينة ذلك الطابع الغريب، ببصمة واضحة من المهجانة وقلة الذوق، وتدن في البنية التحتية والفوقية، والإهمال..

- خذي، ها أربعون ريالاً، ثمن التذكرة وثمان (الزيارة)، ونصيبك من فطائر السفنج وبراد الشاي، الذي سنشره عند العودة بالسوق المجاور، سوق أحد حرارة.

ذلك هو المبلغ الذي جاءت الجارة ليلاً، وأقرضته للخالدة بالريال وأخيه، أيام كان للريال قيمة.

مدبرة و(اقتصادية) تلك المرأة، هذا ما تعترف به أم هاني، ومن مواردها القليلة التي تأتيها من البادية، تستطيع تسير أمورها باتزان، قمح، شعير، ذرة، عدس..... لكنها كانت تقول عنها إنها لن ترتقي بذوقها أبداً، ولن تتمدن، فقد كانت تتكلم بصوت عال، وتطلق ثأؤباً مديداً يشبه (نعواك) الكلاب، ولا تستطيع أن تتعل حذاء بالكعب العالي، اشترت واحداً وجربته، فكانت تسير به منحرفة مثل عرقشة (عقرب البحر)، كما أنها كانت تزغرد فرحة، حينما تذاغ أغاني الشيوخات في الراديو، وذلك ما كان يغيب الخالدة بالفعل، ويجعلها تراها مجرد (عروبية)، تقطعت بها أسباب الحياة.

لكن ما الذي يحصل للخالة، إذا كانت لديها هذه النظرة الثاقبة في الناس، وتصنف بعضهم في درجات أدنى، ومع ذلك تتصاحب معهم دون أية مشكلة؟..



عبر تعرجات شبه معبدة، قطعت الجارة والخالة مسافة عشرين كيلومترًا باتجاه بادية عبدة، حيث لا شيء سوى قرى صغيرة ومواشي تظهر ثم تختفي، وقوافل من حمير أو بغال، ذاهبة في طريقها باتجاه السوق، أو مسرعة نحو المدينة، وأشخاص عابرون وحيدون، يسرون مشيًا على الأقدام، أولئك من غير شك وجهتهم أقرب، وغالبًا ما تكون لقضاء بعض الأمور المستجدة، من تلك الحوانيت المغبرة.

راقبت الخالة كل ذلك وهي صامتة، كانت تتحاشى الكلام حتى لا يضحك عليها الناس، خافت أن يسمعونها تقول لجارتها بتلك الطريقة الطريفة عن الجمل زمل، أو عن المعزى معجى..

كانوا سيتندرون عليها هم أيضًا، وسيرونها مجرد مدنية حمقاء، لا تستطيع أن تفرق بين البقرة والثور، مثلما يرون أطفالها (سيعتقدون أن لها أطفالًا) مجرد مجانين، يركضون بشكل جماعي، في المدى القروي الشاسع خلف الدجاجات، ويكسرون البيض،

كما يحدث دومًا في تلك الزيارات الربيعية أو الصيفية، حيث يمكن أن

يهجم أهل المدن من الأقارب، في تلك العطل المزعجة..

في مكان ما على الطريق، سمعت الخالة صوت مباركة مدعورًا:

- قف بنا عند النخلة أيها الشيفور، أنت يا هذا، لا تبتعد بنا عافاك، نريد زيارة سيدي بوشتي، نحن وحدنا كما ترى، أنزلنا عند النخلة بالضبط، (وفكرت بسرعة في كذبة)، سيأتي أحد لانتظارنا بكارويلة!!..

كان ذلك شكلاً من أشكال تهور الجارة وتصرفاتها غير المحسوبة، فقد فاجأت الخالة بأن قامت من جنبها تصيح، ورفستها وهي تنحني بجسدها إلى الأمام متوجهة نحو السائق..

قالت الخالة لمباركة بصوت مكبوت، وهي تشدها من ثوبها لتجلس:

- لماذا تصرخين هكذا، وتصيحين مثل العروبية؟..

لا المكان ولا الزمان كانا يشجعان الخالة على قول ذلك.. ومع ذلك شتمتها: بدوية..

أعرف خالتي أم هاني جيداً، (المدينية الحزاقة) كما أسمتها جارة ذات يوم، في ذلك الحي البعيد، حين تعاملت معها بعجرفة، ونظرت إليها كما تنظر إلى شيء تافه وسخيف، فاضطرت المرأة إلى أن تواجهها، وتجعلها تلزم حدها...

الخالة أم هاني لا تستطيع إلا أن تنتمي إلى أصلها.. المورسكيون العنصريون،

أصحاب الثنائية السخيفة: مديني وعروبي (بدوي)، الصراع الخفي بين الأسر والعائلات، الرفض، الوافدون والأصليون، مما كلف أسفي ثمنًا باهظًا، ضريبة مضافة على حساب انسجامها وتطورها، وفوت عليها فرصًا لا تحصى، صفقات، مشاريع، استثمارات...!!

- ابن من أنت؟..

تسمعها كسؤال استهلاكي، رغم ما يبدو عليك من آثار الزمن والمكان، وأنت قضيت حياتك هناك، احتضنتك فيها الأزقة والدروب، تلعب وتدرس وتتربى وتحلم، وتحب وتخلص وتخون، ثم تكتشف في النهاية، أنك مجبر بأن تعطي معنى لـ(وجودك)، وسببًا صريحًا لـ(غزوك).

أضحكتني صباح أستاذة مادة الفلسفة، المشاغبة التي صرت صديقتها، كانت تغتاظ كثيرًا من ذلك، ثم سرعان ما كانت تدخل في المواجهة..

سألتها مرة، من باب الفضول، عجوز موريسكية كانت تجلس إلى جانبها في عرس تلميذة من تلميذاتها، وقد مدت يدها المعروقة، ومسدت على شعر صباح الناعم البالغ الطول، وقالت بصوت حاد كخناق الدجاج:

- بنت من أنت؟..

وقد أدركت الأستاذة أنها تقصد، إلى أي سلالة تنتمي من تلك السلالات التي عاشت قرونًا طويلة داخل الأسوار، لا يغادر أهلها المدينة إلا لمامًا، إلى بعض الأعراس أو المآتم، لكن سرعان ما كانوا يعودون متعجلين،

يتحرقون شوقاً إلى أزقتهم ويوتهم العتيقة وجلساتهم المغلقة.

هؤلاء يقولون عنهم الآخرون إنهم كالأسماك، لا تستطيع أن تحيا في اليابسة، وفي عائلتنا القديمة، هناك رجال ونساء لم يغادروا المدينة قط، ولم يركبوا في حياتهم السالفة أية وسيلة للنقل على الإطلاق، ماتوا ودفنوا ولم يستمتعوا سوى بركوب البغال.

انتهت الأستاذة صباح إلى أن العجوز كانت تعتني بنفسها مثل شابة، يباروكتها القصيرة، وبجانبها المزججين، وبالكحل في عينيها، وأحمر شفاهها، ثم لمحتها تثبت السماع التي كانت تتشبث بتلابيب أذنها من الخلف، فعمدت إلى خفض صوتها إلى حد الهمس:

- أنا؟.. بنت من؟.. بنت خلا عشك!!..

وضحكت مشرحة، كأنها حكّت لها نكتة، بينما المرأة لا تزال تعمل على تثبيت السماع في أذنها..

- ماذا قلت؟..

تكدرت صباح.. ماذا ستقول لها؟.. إنها برانية، ولا علاقة لها بالأسر التي تعرفها العجوز اسماً بعد آخر، وتحفظ جذورها وتواريجها، وزمنها الماضي والحاضر؟..

- لماذا تسألين يا حاجة؟.. تريدين أن تخطبيني لزوجك؟..
هاهاها..

أستاذتي (الكازوية)، القادمة من مدينة ليبرالية مفتوحة، كانت تكره تلك التفاصيل الشوفينية المملة، التعصب والعنجهية والازدراء، أو أية مشكلات مشابهة، ولم تفهم أبداً معنى الاستخدام الغريب لكلمة (براني) ..

كانت تقول لي، لم أر مدينة بهذا التعصب، ما هذا الهبل؟ .. نحن في كازا لا يخطر على بالنا أبداً أن نسأل أحداً مثل ذلك السؤال، ثم ما معنى (موالين البلاد)؟ .. حين يقول أحد عندنا ذلك، نجيبه ضاحكين: أصحاب البلاد هم الفئران!! ..

وكانت وهي معي، تضحك أيضاً وتتلاعب بحاجبيها وتردد بهمس متغنية، كلما رأت مسؤولاً فاسداً ماراً في الطريق:

- إخوتي الحرامية، إخوتي النشالين، يا أصحاب السوابق!! ..

أخبرتني أنها تحب كثيراً عزيز نيسين، كاتبها التركي المفضل، خصوصاً روايته (الطريق الوحيد)، ومنها حفظت تلك التعابير.

كنت أتبني بالكامل موقفها، وأكره مثلها تلك الأسئلة والشنائم، وأشعر بالخرج، كلما عن لأحد من أهلي أن يسأل إحدى صديقاتي الطالبات، أسئلة من ذلك النوع، أسئلة فيها من الاستفزاز أكثر مما فيها من الفضول، خاصة بنات الأحياء الشعبية، اللاتي جاء أهاليهم إلى المدينة في هجرات قروية، لأسباب مختلفة.

مرة قلت للخالدة، كفى أيتها الموريسكية، كفى عنجهية .. وكنت قد

غضبت منها لسبب أرعن يتعلق بأمر مشابه..

- مورييسكية؟..

كانت تسمع الكلمة لأول مرة، تسمع أحياناً من عائلتها أنهم من الأندلس، من ذلك البلد الذي يقع مقابل طنجة، على الضفة الأخرى من البحر، ويقولون لها إنه هو الذي يسمى الآن إسبانيا، وأنهم عندما رحلوا، حملوا معهم إرثهم في الطبخ والموسيقى والجمال، وعمرؤا هنا، كمسلمين فارين من النصارى، مطرودين شر طردة، وأن نصفهم أو أكثر مات غرقاً في البحر..

- ولماذا جئنا من هناك إلى أسفي؟..

سألتني مستغربة.

- يهملك الجواب؟.. تلك قصة طويلة.. جئتم بعد أن طردكم النصارى، جمعوكم في السفن وألقوا بكم في البحر، والظاهر أنكم بعد أن وصلتكم صرتم (تتفلعصون) وتتعاملون بكل ذلك التعالي، وتنظرون إلى الناس هنا على أنهم مجرد بدو.

ظلت تسأل:

- ولماذا طردونا؟..

- لماذا طردوكم؟.. هه، اسألي التاريخ، أتدرين كم سنة عشتم هناك

بالأندلس، ثمانمائة سنة تقريباً، أتدرين معنى ثمانمائة سنة يا خالة، أو على رأيك، (لا يحسب إلا المزلوط).

قلت لها أيضاً أنه كان في إمكانهم مثلاً ركوب سفن بايزيد، والذهاب إلى القسطنطينية، لكن ذلك كان متروكاً للصدف والفوضى، وأنه لو كان قد حصل، لكانت الآن متزوجة من رجل تركي يشبه الممثل مهند، وربما جعلوها في المسلسلات، مادامت بذلك الحسن والبهاء، جارية ينام معها السلطان..

ضحكت سعيدة:

- والله عندك حق، كنت سأعيش هناك في فرح وسرور، بعيداً عن صدام الرأس، وعن المسمومات والنمات.. لكن من هو بايزيد هذا؟..
- بايزيد؟.. سلطان تركي يا خالة..

اتخذ وجه أم هاني سيماً الانشراح، وأحبت أن تعرف من هو بايزيد، لكن في نفس الوقت، عادت لتقول لي، إنها لا تريد سوى أسفي، وأنها يستحيل أن تلقي بنفسها خارج دائرة تلك المدينة، وأنها لو أعطوها قصرًا في تركيا، وخيروها لما اختارت سواها..

كشرت قليلاً وقلت لها باستعلاء:

- حتى لو كان يمكن أن تتزوجي نجمًا مثل مهند... ذلك الأصفر الذي يعجبك؟..

- حتى لو كان...

أسمع نفسي أقول لها، دون رغبة فعلية في الكلام، لأن النعاس كان قد بدأ يداعبني:

- أعرف كم تعشقين هذه الحفرة، وأنت لا تستطيعين العيش خارجها، ولا يلذ لك أي شيء إلا بين أحضانها.. ألا تسمين أسفي حفرة؟..
وها هي تترك بيتها وتركب تلك الحافلة المدوخة، في مغامرة غير محسوبة.

كطفلة مرتبكة، تبعت الخالة الجارة المسرعة، أمسكتها من مؤخرة قبتها (غطاء الرأس) كأنها ستفلت منها، وخطت خلفها في الممر، متسللة بصعوبة بين الأجساد المتكدسة، فوق أرضية الحافلة المتربة.

كان القلق والتوتر قد صبغ وجهها بالحمرة، وزادها ملاحه.

بحلق الرجال في المراتين من أسفل في عدم فهم، في الجارة التي في المقدمة، السمراء والجذابة، ثم بعد ذلك في الخالة التي تشبث بقبتها، ولم يفهموا لماذا تسافران وحدهما..

أين ذهب الرجال؟.. ولماذا يتركون هذا الجمال عرضة للخطر؟..

عبرتهم الخالة واحداً بعد آخر في مشقة، كانوا يقر فصوص متلاصقين مثل غنم في زريبة، فاضطرت، وهي تذوب حرجاً، إلى قطع تلك الخطوات بوضع كفها على كتف هذا، أو على طاوية ذاك، دون إمكانية التأكد إن كانت تلك الطاقيات نظيفة، وخالية من القمل والبرغوث.

من جهتهم، تخابث أيضاً أولئك الماكرون المتكومون على الأرضية، فمد بعضهم يده الخشنة عنوة وزلقها على ساق الخالة، فأحس بما لم يحسس أبداً، كأنه وضع كفه على قالب من حلوى (جبان كل وبان)، أو قالب من الزبدة، وبعضهم حط كفه على جلبابها من الخلف، ومرره برفق عند المؤخرة..

كانت الخالة مأخوذة ومضطربة، تعيش الدور كفأرة داخل مصيدة، فلم تنتبه لأي شيء، لا إلى اللمس ولا الهمس ولا الضحكات... ومن يمكن أن ينتبه وهو في مثل تلك الورطة؟.. وحتى لو انتبهت، ماذا كان بوسعها أن تفعل؟..

تصنعت أخيراً أنها ترنحت، فضربت السائق عمداً ضربة موجعة على ظهره بحقيبة يدها..

فعلت ذلك من أجل أعصابها، ومن أجل أن ترد له الصاع صاعين، فقد بدا لها أنه يستحق ذلك.

كان سائقاً استعراضياً ومستهتراً، و(ممنوع الكلام مع السائق) المزركشة والموضوعة في إطار بارز، أعلى حافة الحافلة، لم تعن له شيئاً، تجاهلها ورمها

وراء ظهره، وصار يرغب مع الكريسون، ويضحك ويدخن، واتخذ افريز
النافذة مسنداً لذراعه المفتول، تاركاً كفه اليمنى وحدها ترتخي فوق عجلة
القيادة!!..

مقلب من مقابل الخالة، يحقق لها الراحة النفسية، حتى لو كان أحياناً
من دون سبب..

كانت وهي صغيرة تقرص النساء البدينات في الحمام، قرصات لاسعة
أو تعضهن، ثم تتوارى مختفية خلف الجدة، طالبة منها الحماية.

أدهشني أن تقول لي ذلك، أنا التي كنت أتصور أن أختي لمياء بتهورها،
هو أقصى ما يمكن أن يحصل في العائلة من (قباحة)..

سألت الخالة ضاحكة:

- ولماذا البدينات بالضبط؟..

ابتسمت وأمسكت يدي بيدها الدافئة الرقيقة:

- تصوري ماذا كان يقول لي عقلي؟.. أن أولئك (الضبات) لا يمكن
أن يشعرن بالألم، ولن يحسسن بقرصتي، ويا ما سببت لجذتي المسكينة من
حرج، لكن ماذا تقولين؟.. إنه الصغر وقلة العقل!!.. هاهاها..

وضحكت فبانت أسنانها المرتبة..

قلت لها:

من سمح لتلك الفتنة المطلة من خلف الجلباب والنقاب، أن تخرج إلى الناس، فيتفرج عليها العادي والبادي، في زمن لا يزال يعيش إرهابات الماضي؟.. زمن (الحجبة ولحكام)، والمرأة التي لها خرجتين، واحدة إلى بيت زوجها والثانية إلى المقبرة.

لم يستفك المساعد ويعود من غيبوبته، إلا بعد أن علا صوت المنبه المبحوح للحافلة مرتين، لم ينتبه إلى الأولى، لكن الثانية جعلته يقفز باتجاه الباب.

تصرف كمهووس جنسي.. ثمة تلك النظرة المليئة بالإثارة والشبق، والعينين الذئبيتين الغائمتين، والسرعة في الانتصاب... ركز على خبايا الخالة التي لا تخطئها العين، المسك والعنبر، وبدا كأنه على وشك أن يفعل أي شيء مجنون، من أجل أن يطرحها أرضاً ويركبها.

- رووول، سير على الله سيير.

قفز إلى الحافلة، فأحست الخالة بالارتياح، وهي تقف على أرض الله الحارة، بعد أن تركت فوق، تلك الوجوه بأفواهها العريضة، وثيابها المزرية..

ذهب السائق ومساعد الخنزير كما أسمته في سرها، وشعرت أنها في تمام الانسجام مع نفسها، بعد أن انتقمت منهما، ضاربة الأول بحقيبة يدها، وناهرة الثاني مثلما تنهر أي كلب.

طيلة العشرين كيلومترا تقريباً كلها، التي قطعتها الخالة من كدية سي حمزة إلى ذلك الخلاء، كان الخوف قد استبد بها.

كانت عيناها لا تكادان تفارقان الطريق، وقد شاهدت كيف أوشكت الحافلة أن تلامس شاحنة قادمة من الاتجاه المعاكس، ومرة كادت أن تصدم جحشاً..

وبضغطة بخفة على دواسة البنزين، كان السائق الذي ظل يرقب الخالة في المرأة قد رد لها هو الآخر الضربة، كان قد جعلها بجلبابها الكبردين ولثامها المطرز، تسبح في غيمة من الدخان الأسود الكريه.

فكرت الخالة أن جلبابها الحماشي الجديد، وحذاءها (دم الغزال)، الهديتين الغاليتين من أمي، لا يليقان بذلك الخلاء، فعبست حانقة. قالت في نفسها، ليتها لم تأت، وظلت هائئة في بيتها!!!..



الخالة المتعودة على الإسفلت، وعلى شوارع نظيفة مرصوفة، من المرسى إلى هرايات البيض، إلى البلاط، شوارع عبرتها من زمان، دون مشاكل ولا مطبات، ها هي الآن تتعثر في كل ما هو موجود أمامها في الخلاء، حجر، شوك، عظام حيوانات نافقة، فضلات كلاب...

اعترفت لنفسها بأنها جنت، جنت إلى درجة تركت فيه مصيرها لامرأة، لا هي أختها ولا هي بنت أختها ولا هي عمته ولا أي شيء. ما الذي جاء بي إلى هنا يا ربي؟.. ماذا تراني أفعل هنا مع هذه الحمقاء في هذا الخلاء؟..

وكم يطيب لأهل القرى أن يستهزئوا من أمثال الخالة، ممن لم تعفر أقدامهم الأتربة، ولم يسيروا حفاة فوق الشوك، ولا قطعوا مسافات طويلة في الليل على متن حمير، تحت النور الأبيض للقمر المضيء، منصتين بخشوع إلى الصمت، وإلى عواء الذئاب وضباح الثعالب البعيدة..

أكثر واحد سمعته يفعل ذلك، البستاني القادم من الضواحي، الذي يعتني بحدائقنا، كان يضحك ملء شذقيه حين يسمعنا نقول عن الناقة (جملة).. خالتي أم هاني على الخصوص، حين تريد أن تصف إحدى النساء الطويلات البدينات، كانت لا تتحرج من أن تقول عنها: مثلها مثل (الجملة)..

- (الجملة)؟.. هاهاها.. أي جهل هذا؟.. ما أحقكم أيها المدينيون!!!
يا لالة أم هاني، كنت أظن أنك (بعقلك زعمًا).. فإذا أنت هبيلة مثلهم..
(الجملة)؟..

ويظل يهز رأسه وهو يضحك مغتاظًا.

لم يخترع البستاني شيئاً من عنده، كان يسخر مما يسمع.. مخزناً ذلك، بانتظار أن يتندر به في القرية مع أهله، ويحكي لهم عن المدينيين الحمقى الذين يشذب لهم الشجر، ويسقي الزرع، ويعتني بالزهور..

كان يختم مقتنعاً أننا لن نتعلم:

- الحاصل... لمياء أيضاً تقول عن البقرة (ثورة)، أين كبرتم أنتم يا هؤلاء؟..

صوت الجارة القادم من الأمام جذلاً، قطع تساؤلات أم هاني من على بعد سبع خطوات تقريباً، بينما الخالة تمشي في مزيد من البطء، حتى تقيم الموقف..

كانت تراقب عن كثب ما الذي يمكن أن يأتيها من هذا الجانب أو من ذاك، كلب، عقرب، أفعى، حنش، ومستعدة لأن تصرخ طالبة النجدة بأعلى صوتهـا...

فجأة علا صوت مباركة من الأمام:

- أرأيت الخيرات يا لالة أم هاني؟..

كان اليوم ظهيرة أحد بدايات الصيف، المغطية قليلاً بالأتربة والسراب، وحيث كل شيء يبدو أصفر وخال من البناعة، مساحات عشبية شاحبة، وشجيرات مرصعة بالشوك. التفتت الخالة إلى اليمين وإلى اليسار، أين الخيرات التي تتحدث عنها هذه؟.. يا للسخافة!!..

ردت صائحة بصوت، بدا لها لأول مرة في حياتها قوياً وواضحاً في الصمت والصفاء:

- أتقصدين هذه الحصائد المليئة بالكرنينة وشوك الحمار؟..

نفث الجارة ذلك:

- لا، أنا أقصد الحنطة والشعير، هناك سترعى الأغنام والأبقار بعد الحصاد، ستعطي لحماً زكياً، ليس مثل تلك الحيوانات التي يقفلون عليها

في الظلام، ويعلفونها (كوانو)، أرأيت؟.. بمجرد ما توقدين النار، تصعد تلك الرائحة، كأنه مخلوط بالحوت، عند العودة نمر إلى السوق، ونشتري لحمًا طريًا، عندما تطبخينه ستتذكريني.

ثم دردشتا قليلًا، كصديقتين أليفتين، بخصوص نكهة اللحم الذي تشتريانه من جزار الدرب، المكنى بالجن، لأن كفه اليسرى كانت من غير أصبعين!!!..

والغريب أنهما كانتا تسمعان بعضهما البعض بشكل جيد، رغم المسافة المرححة التي كانت تفصلهما.

شاهدت الخالة من الخلف كيف وضعت الجارة كنفها أفقية فوق جبهتها البارزة مثل بطاطا، وحدقت غربًا في البعيد، ثم أشارت نحو أطياف متداخلة:

- انظري يا لالة أم هاني ها هي القبة هناك، لنمش بسرعة، الشمس ما أحلاها، إنها دواء، ولو تعرقنا سيكون ذلك أفضل، ستخرج السموم من الجسم، سنشفى من البرد والرطوبة وكثرة الظل.

وبدأت تترنم لنفسها بأغنية بدوية عتيقة، كلماتها تعود إلى أيام الحروب القبلية.. كان صوتها رخيماً بالفعل، وصالحًا للغناء..

أنصت الخالة إلى مباركة في إعجاب، كانت تخطو بخفة في الدرب الترابي المتعرج، الذي نحته الأقدام والحوافر، بينما الخالة في مشيتها المتمهلة، تشبه

مشية حمارة مضجرة، كما وصفتها الجارة.

- أما كان من الأفضل لو ركبنا كارويلة؟.. لم أكن أتصور أن الضريح سيكون بعيدًا بهذا الشكل يا لالة مباركة.

حاولت الخالة، وهي تنفض الغبار الأصهب عن حذائها الموكاسان، الذي اشترته والدتي من باطا، ألا تبدو مصدومة أو عصبية وهي تسألها. علقَت الجارة متهمكة:

- نركب كارويلة إلى هناك؟.. أيتها المدينة، تحركي، تعلّمي كيف (تضربينها كعابية)، سترين أقدام (العروبية) على حقيقتها بعد قليل، كبارًا وصغارًا، قوية مثل (الهند).. لا تنظري إلي مثل اليهودي في الملاح، (مع أنها كانت خلفها)، كنت تتوقعين ها الثقب ها النقب، أليس كذلك؟..

ولكي تفرج الخالة عن همها، استعادت في سرها نكتة تخص الألفة مع المسافات، البدوي عندما يشير إلى مكان بذقنه، تكون المسافة مسيرة نصف يوم سيرًا على الأقدام، وبذراعه، مسيرة يوم كامل، وبعكازه مسيرة ثلاثة أيام.. وضحكت في صمت.

هم يضحك وهم يبكي!!..

لكم تحب الخالة مثل تلك النكت التي تشفي غليلها..

في الأفق البعيد بيوت قليلة متفرقة وصبار وبقر، وثغاء، ونهيق حمير، وهناك

أناس في مستوى النظر، لكن لا توجد أعمدة للنور ولا للهاتف...
لما اقتربنا أكثر، لم يمنع قروي نفسه من الاندفاع نحوهما مهرولاً، بعد أن
ظل يرقبهما لفترة من باب الضريح، كان طويلاً ومفعماً بالقوة كحصان.
- أهلاً، أهلاً بكما، أهلاً، زيارة مباركة إن شاء الله، تأتون سالمين وتعودون
غانمين، بركة سيدي بوشتي معكم، زيارة مضمونة، مرحباً.

تساءلت الخالة بينها وبين نفسها:

- من هذا؟..

التفتت الجارة إلى الخالة التي كانت تمشي خلفها تعرج، وانتظرت إلى
أن صارت بمحاذاتها فلكرتها في خفة:

- أخرجني الزيارة (تقصّد الشمع وبعض النقود)، هذا هو الحفيض
(الحفيد)، سلميهما له وادخلي، سيعطيك حجاباً، خذيه بحرص وخبئيه
في ثيابك. تعالي، هنا رأس الولي الصالح، أزيحي الغطاء الأخضر، وقبلي
الخشب ثم اطلبي ما تشائين.

قالت الخالة في خشوع غريب، وكأنها تدرجت بسرعة في مراتب
عدة:

- يا قاضي حاجة يا سيدي بوشتي، شي لله يا الولي، جئتك زائرة فلا
تخيب رجائي!!..

ثم راحت الجارة، من غير تحفظ، تتحدث مع الرجل بنغمة مريحة وكأنهما صديقان، بينما هو واقف جنبها يختلس النظر إلى الخالة مبهوراً، عبر شرائط ضوء الشمس المتسللة من بعض الكوى في السقف، ورائحة الجاوي وحصالبان تلف المكان البارد، خاصة بعد أن أنزلت أم هاني نقاب المسلمين الأسود عن وجهها المتورد من الحرارة والمشى، فبدت فاتنة للغاية وجذابة، ومن غير حماية كافية.

قالت المرأة للحفيد:

- جارتى جاءت للزيارة، وتحب أن تعبر الفتحة.

قال وعيناه زائغتين كأنها هو مريض:

- مرحباً، ستعبرها إن شاء الله، وبركة سيدي بوشتى معها.. لما لا.. ستعبرها بإذن الله.

لكن اتضح للخالة فجأة، بعد أن خرجتا إلى العراء ولفتا نحو الصخرة، أنها خوافة، خوافة جداً ومتردة وشكاكة، وليس في وسعها خوض التجربة، خاصة بعد أن انحنت وأطلت برأسها على تلك الفتحة.

سألت الخالة الجارة بحذر، بينما هي في الواقع، كانت تود لو تستطيع أن تخبرها أنها راجعت حساباتها، فوجدت أن القول أسهل من الفعل:

- ألا ترين أن هذا الثقب ضيق للغاية يا لالة مباركة؟..

اعترفت لالة مباركة بطريقة عملية، وهي ترفع كتفها:

- إنه ضيق طبعًا، لكن انظري إلى تلك المرأة البدينة، هل أنت أسمن منها؟.. لقد عبرت بسهولة مثل الحنش، ألا ترين الناس كيف يربتون على ظهرها ويهنئونها؟..

- طيب، اعبري أنت قبلي، ودعيني أرى كيف ستفعلين.

ابتسمت الخالة في استعطاف وهي تنظر بالمرّة إلى صدر جارتها. كان لها ضرع بقرة، ثديان كبيران يتدليان على بطنها، من غير سوتيان، مما كان يسمح برؤية حلمتيها الغليظتين من خلال جلبابها الأخضر، ثوب (رببعة العدوية)، موضوعة الستينات.

من أجل أن تطمئنّها، قالت لها الجارة كاذبة:

- أنا؟.. هاي هايه، لقد مررت من هذا الثقب مرات عدة، تعالي جربي أنت، ما لك مترددة؟.. لم أكن أخمن أنك هكذا، كأنك ستعبرين الصراط المستقيم، إنها دخلت من هنا وخرجة من هناك، مثل (ريق الماء)، كم أنت موسوسة يا لالة أم هاني!!..

تسمرت الخالة المثيرة للتطلع حرنة، احمر وجهها وصار في لون العقيق، التفتت في عصبية في الاتجاهات حولها، هل كانت تفكر أن تهرب؟.. ربما.. لكن إلى أين؟..

صوت حمار انطلق ناهقاً من مكان قريب، أدخنة الكوشينات (المطابخ) تصل طازجة محملة برائحة الخبز والطواجن، دجاج بلدي ينكت الأرض، صبايا خجولات يطلن من خلف شقوق الأبواب ومن الطاقات، خيوط الشمس الصفراء الصيفية التي تمنح الصفاء الكامل... كل ذلك لم يشغل بال الخالة، ولا علا خوفها عليه.

ماذا تفعل لالة مباركة في مثل هذا الموقف، وقد لمحت في عيني أم هاني الزبرجديتين نظرة منذرة بالنكوص؟..

اقتربت منها ودفعتهما من ظهرها مستعجلة، حصل ذلك بشكل طائش، مما جعل أم هاني تترنح فوق الحصى:

- يالللله يا لالة أم هاني، تحركي، مالك مرتحية؟..

الخاله كان بإمكانها أن تتراجع، ولم يكن بمقدور أحد أن يجبرها بالقوة، على أن تمارس طقساً هي لا ترغب فيه، لكن المشاكل تبدأ عند الخالة من هنا.

الحيرة والتردد كانا يلجئانها عن اتخاذ القرار، قد لا يكون قراراً صائباً، لكنه يبقى خطوة إلى الأمام على كل حال..

ذلك هو الجانب المعقد في تركيبة الخالة، الرغبة والتردد، الامتناع والقبول، الإقدام والإحجام.... حين إلى التجربة المحرمة، من زمان، أيام كان كل شيء مجرد إملاءات وأوامر ومنوعات، ولا امرأة في محيطها كانت قادرة على أن تتجرأ وتقول (النم).

إحساس مزمن بالخوف والضيق والاختناق، أرغم جدتي لأمي ذات مساء أن تخلع بلغتها في السيارة، وتنزل لتركض حافية مثل طفلة، منتهزة الفرصة أنها وحدها مع ماما، هناك فوق، على أطراف البحر عند سيدي بوزيد.

رجتها ألا تخبر أحداً، وأن تتركها تحقق رغبتها الدفينة في الانطلاق والجري على أرض غير معبدة، بجلبابها وهي في تلك السن، عائدة بعد أمتار طويلة بخدر لذيد مع ضحكات سعيدة.

ركضت من عند القبة باتجاه الشمال، بخطوات حثيثة ألهمت خديها وقلبها، إلى حدود برج الناضور والإذاعة البحرية، ثم انكفأت عائدة نحو سيارة أُمي، وهي تنهج..

لا أحد يمكن أن يفعل ذلك، وأن يجري في تلك السن، إلا من ضاقت به الآفاق، وأورثه التسلط الاختناق وضج من الضجر، من عاش يقدم صكوك الغفران واحداً تلو الآخر، للأب والإخوة والزوج والأبناء والحماة والكنات و.....، وعانى من البخل في المشاعر والتقتير في البراح، فامتلكته الرغبة في التنفيس، بالعودة إلى الطفولة كحد أقصى في الانطلاق، واختراق الفواصل والسدود، دون خوف، دون مراوغة، دون تحف.

تحركت الخالة أخيراً ويدها باردتان، خطت إلى الأمام بأنفة وكبرياء، سائرة على مهل فوق الأتربة والحجارة، كأنها عز عليها أن تقطع كل هذه المسافة في الخلاء، ولا تعيش التجربة، رهان (السخط أو الرضى)، الكلمتان

المهيبتان في ثقافتنا الشعبية والعامة كذلك، وكيف يمكن لواحدة منهما أن تذلل والأخرى تعزز، وذلك مرهون بمدى الخضوع لهما أو الإخلال بهما، مهما كانت الشروط مجحفة.

لكن ما غفلت عنه الخالة، هو الحشد من الذكور ذوي الوجوه المشعرة، والشوارب الكثة، الذين أهملوا نساءهم البدويات المتلفعات بالفتوطات، وجاؤوا نحوها.

تحركوا بالتدريج ما أن لمحو تلك الطلة السارة، وذلك البياض الصافي، وتلك المشية.. نسخة من المدينيات اللائي يغني عنهن فويتح في المدياع:
يا البياض يا البياض ربي يهديك..

نسهر الليل والليالي نتسنى فيك...

فأدركوا كم أنهم محرومون للغاية، وأن الله ابتلاهم بمصيبات.

اقترب الرجال من فتحة الصخرة إلى أن تراصوا حولها، اقتربوا في الواقع من الخالة، ومن قممها ومنخفضاتها، وصاروا صفين مهتاجين، واحد على اليمين، والآخر على الشمال، ولولا أنها انهمكت في الاستلقاء والزحف، لكان حرياً بها أن تقوم لتركض، كان ذلك واضحاً للأعمى في الظلمة!!!

منذ أن رأوها ورأوا بروزاتها الفاتنة، وقفوا هناك وهم في حالات قصوى من الإثارة والاعتلام، فبالإضافة إلى البياض الناصع، والعينين الملونتين،

هنالك الثديين المخروطين في الحماله، العجيزة، الوركين، الفخذين، الساقين الملفوفتين..

ويعلم الله ماذا حصل لهم حين طأطأت رأسها وانبطحت مكرهة بجلبابها الجديد، مؤخرتها وحدها كانت كافية بصعقهم.

عندما تكون امرأة في نحس مع القدر، تحصل لها أشياء كثيرة مزعجة.. تورطها جارة، يراودها كريسون.... والخالة من ذلك النوع من النساء، كانت تتألف حولها المصائب بسهولة، وتشتد عليها الأزمات.

تمادى الرجال واقربوا من الخالة أكثر، بالمقدار الذي صارت تراءى لهم فيه مجرد دابة ركوب مدينية، فطيرة منبسطة من اللحم الأبيض الوردى، لحم باذخ لم يسبق لهم أن لمسوا مثله على أي من نسائهم الضامرات، مكتنز في الأماكن الصحيحة تماماً، في الخلف عند المؤخرة، وفي الأمام عند البطن والصدر والفخذين، مما يغري بالرغبة في البدء بالقرص والعض.

ولو أتيح للواحد منهم، لفعل مثلما قرأت ذات مرة على النت، أسوأ شيء يمكن لرجل أن يفعله لامرأة، تلك المداعبات الطائشة، فرك الحلمتين بقوة بين السبابة والإبهام، كمن يبحث عن محطة إذاعية بجهاز مذياع قديم، ثم القبض بقوة على الفرج بكامل اليد، وكأن الفرج حفنة من الدولارات!!..

غير أن الرياح تسير بما لا تشتهي السفن، إذ بمجرد ما زحفت أم هاني قليلاً على بطنها، بدت لها الفتحة مثل خرم الإبرة.

ذهبت الشجاعة وجاء الخوف، ويمكن للمرء ويا للأسف، أن يتصور كل المشاكل المضحكة التي يمكن أن تحصل في مثل تلك الورطة. كل شيء استعصى على الحالة، التقدم إلى الأمام، العودة إلى الخلف، التنفس.. علقت تمامًا كأنها أدخلت نفسها في شرنقة.

جربت أكثر من حركة، تلوت، استطالت... وعندما لم ينفع معها شيء من ذلك، شرعت تترجى سيدي بوشتي، مستحضرة في ذهنها تفاصيل وجه رجل يشع نورًا، بلحية بيضاء وعمامة شرقاوية وبعصا طويلة، ككل الشيوخ القدامى الذين رأتهم ذات يوم وهي صغيرة. قالت له مغممة:

- أنا تايبة لله يا سيدي بوشتي، أنا تايبة لله، أخرجني من هنا وسأكون (خديمتك) للأبد، سأأتي بكبش وأذبحه عند عتبك، لا تتركني هنا أرجوك.

بيد أنها تفاجأت به وهو ينظر نحوها بصرامة، كما لو أن الأمور بالنسبة له ضربًا من المسلمات..

إذًا أعرضت عنه، وصاحت على قدر ما تستطيع من الداخل:
- اعتقوني!! اعتقوني!!.. سأموت جيفة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن لا.....

وخبطت بقدميها تطلب النجدة، رفعتها وأنزلتها بكل طاقتها في الهواء، فتعري الساقان المرمران وغمرتها الحمرة تحت الشمس الحارقة، واهتزت المؤخرة بشقيها المكتنزين، فبان الصدع....

كل شيء بات محددًا في جسد الخالة، مما خلق الهرج والمرج بلا أي نوع من أنواع الاحترام.

إنها الحفلة التي لم يكن مخطط لها أبدًا، وانبعاث مفاجيء لحظ ابن كلب.

تواثب الحشد وتكدسوا فوقها وتعرقلوا في فوضى، ثم عادوا وانقسموا، كانت الخالة تسمع كيف كانوا يتندرون عليها:

- بسرعة، بسرعة، المسخوطة ستموت.. لقد (وحت) هناك..

وفي الأخير، وكامرأة منتهكة، تواجه السخونة وتعاني من الاختناق، كان لا مفر لها من أن تضربهم ببعض الركلات:

- اتركوني لعنة الله عليكم، يكفي، سأخرج بنفسي، أنتم لا تسحبونني، أنتم تفعلون شيئًا آخر بأصابعكم الغليظة، أيها الخراوات..

شرحت الجارة للخالة، أن الرجال أسرعوا وانحنوا كثيرًا من أجلها إلى الأسفل، وانهمكوا في جرها، وأنهم كانوا حائرين في الكيفية الملائمة التي سيسحبونها بها من الفتحة، لكنها لم تقل لها كم تضاحكوا، وأنهم تعمدوا أن يتباطؤوا، فاسحين لبعضهم البعض إمكانية الضغط وجس اللحم،

في النصف الأسفل المتاح من الجسد الأبيض البض، الساقين والفخذين،
والمؤخرة المذهلة.. لكن الخالدة كانت تدري، وكانت على يقين أن سيدي
بوشتي كان يدري أيضًا، وأنه هو من وفر لها الحماية ببركاته، ونجاها من
الاغتصاب!!..

قالت أم هاني وهي تنظر نحو الفراغ:

- كيفية سحبي؟.. وهل تلك طريقة لإخراج أحد عالق؟.. يواعدون ما
بين ساقيه؟.. أولاد الحرام كانوا سيقسموني إلى نصفين، لعنة الله عليهم،
أين هم؟.. (وكانوا لا زالوا متحلقين حولها)، لو رأيت واحدًا منهم،
لجعلته يدفع الثمن!!..

أكثر شيء أزعج الخالدة وأبكاهها، أنهم صاروا ينظرون إليها على أساس
أنها مسخوطة، متصورين أنها عملت مع والديها مصيبة: قالت لها أُمّ،
شتمتها، ضربتها، قللت حياءها عليهما، جاءتهما بـ (حرامي) في بطنها،
بينما هي في الواقع، كانت تود لو أفهمتهم، قبل أن تبتعد باتجاه الضريح،
أنها لم يسبق لها أن تعاملت معهما، وأنها ماتا وهي لا زالت بعد طفلة،
لذلك جاءت إلى سيدي بوشتي، وتمرغت بجلبائها الجديد في التراب،
لأن رهانها على (الرضى) كان مضمونًا بامتياز..

وبينما الجارة تعاني من عدم قدرتها حبس الضحك والدموع والشهقات،
دموع كثيرة من عينيها المائلتين، تنزلق على عظمتي وجنتيها لتصل إلى ذقنها،

كانت الخالة لا تزال مضغوطة من الحنق والرعب.

- يا إلهي، ما الذي جاء بي إلى هنا وأدخلني في هذا الثقب؟.. لماذا أخرج من حفرة وأقع في بئر؟.. لا بد أنني فقدت عقلي، لا أحد يفعل ذلك سوى المجانين.

ثم في أقل من ثانية، وضعت عينيها في عيني الزاهية التي كانت لا تزال تبكي من فرط الضحك، وقالت لها في صوت معدني قاطع:

- راضية؟.. أعجبك الحال؟.. تفرجت علي كما ينبغي؟.. الذنب ليس ذنبك، الذنب ذنبي أنا، من وضع رأسه في النخالة ينقبه الدجاج، لكن، رخيصة بتعليمه، يا الله، دعينا نغادر هذه القيهرة، وإذا تبعتك مرة أخرى إلى أي مكان، اقطعي لي رجلي!!..

غير أن الجارة اللئيمة كانت تعرف نقط ضعف الخالة، لذلك ملمت الموضوع بسرعة، وتنفست بعمق وعيناها ممتلئتان بالدمع، وقررت في نفسها أن تصالحها بأن تشتري لها من بقال الحي عند العودة سندويشا تحبه: علبة سمك سيلفيانا مع موناذا اورانجينا..

كان على عاتقي أداء ذلك الدور بصبر ومكابرة، الدفاع عن الخالة بشكل يليق بها، لم أترك مناسبة تمر دون أن أعترض، دون أن أخفي آثار العدوان بحساسية الكلمات المتقاة، وقفت حجرة عثرة لكل المدعين والمدعيات، تحدثت

عن الخالة بإعجاب، كأنني أتحدث عن نمط خرافي من النساء النادرات،
الأمازونيات أو عالمات الفلك، ممن وصلن إلى القطب الشمالي!!!..

فعلت ذلك نكاية في جزء كبير من وسطي العائلي، ممن هم ليسوا على
غراري، بل بالعكس، كان لهم رأي آخر مغاير في المرأة، على النقيض تمامًا
من رأيي.

يقولون عنها، مطلقين نيران ادعاءاتهم، أنها مسلسة، ومهبولة، ومفروحة،
حتى يشبطوا من معنوياتي، وأقتنع مثلهم أن تلك الملح والمستطفات والنوادر،
هبل حقيقي، وأن الخالة تفعل ذلك، لأنها ليست في كامل (عقلها)، وينطبق
عليها المثل القائل: (حتى زين ما خطاتو لولا)....

امرأة مشرفة على الثمانين من عمرها، ولا زالت تستجمع نفسها في
لحظة كآبة، وتنزوي لتتحب وتبعث على النكد..

لم يستوعب أحد فكرة أن الخالة امرأة هشة، وأن الحظ جافاها من زمان،
منذ أن مات الأب والأم، وحسن وعبد العاطي، أخواها الصغيران وهي
لا زالت بعد طفلة.

مات الأب سي المعطي أولاً، ثم ماتت الأم لالة زينوبة بعد ذلك، وتوفي
الولدان، وبقيت الخالة آخر العنقود وحيدة، وعندما تبكي الخالة يتمها
وتتحسر، حتى وهي في تلك السن، فليس لأحد الحق في أن يلومها على
ذلك، أو ينصب نفسه رقيباً عليها، مشاعر الفقد تظل توجع، ولم تستطع
الخالة أبداً أن تهزمها أو أن تنتصر عليها، حتى بعد هذا العمر.

كنت أدرك أن ذلك كلام فارغ، أن الخالة عندما تبكي، إنما تفعل ذلك لتبتز العواطف والجيوب، الخالة لم تكن أبدًا ضعيفة إلى ذلك الحد، ولا هي لئيمة، وعندما تشتهي شيئًا، ولا تكون لديها نقود، كانت تفسح الكلام للسانها كي يعبر، غير متخفية عن كبريائها، لأنها تعرف لمن تتقدم برغباتها، ومن هم الأشخاص الذين يستحقون، كأمثالي وأمثال أمي، وخالاتها وجدتيها في السابق.

لكن الاشتباه فيها ظل قائمًا، كواحدة لم تتردد أبدًا في أن تبدي أطوارا غريبة، ليس في البيوت فحسب، بل وحتى في الشارع، أطوار أخرجت فيها أقرباءها ومحبيها، وأوصلتهم إلى البوليس..

حين يكون مزاج الخالة سيئًا، من الأفضل ألا يقترب منها أحد، (المود) الذي تكون عليه، يجعلها تبدي طرائق مغيظة من أجل ألا تقتحم، وألا ينغص عليها أحد عزلتها، وعندما يصر الآخرون على العكس، كانت تتظاهر بأنها لا ترى ولا تسمع، ثم تهوّل بطريقة هزلية، إلى الجانب الآخر من الطريق، مدعية أنها ليست هي، برغم بريق الزبرجد في عينيها الساحرتين!!..

سألتها مرة ضاحكة:

- ألا توجد طرق أخرى أنسب لالتقاء اقترحام الناس؟.. ألا يكفي أن تعتذرين مثلاً؟.. أن تقولين إنك في حاجة إلى السير وحدك، والإنصات إلى خحك؟..

- أبداً، أخرج من بيتي لأتمشى قليلاً، فأجدهم في وجهي!!

كنت أدرك أن ثقافتنا الشعبية لا تعترف بذلك، ترى ذلك مجرد ادعاء وفذلكة، ونوع من (النفخة) و(الإحساس بالرأس) لا غير.

فما معنى أن أحضن وجعي وخيبياتي، ولا يتقاسم الآخرون معي شيئاً من ذلك الوجع؟.. يتقاسمونه بالطريقة التي تحلو لهم: بالتلصص، بالفضول...

- أنت اليوم لست أنت.. متغيرة تماماً، مالك؟.. افتحي قلبك، سرك في بئر، في الحفظ والصون..

ماذا سنفعل بالأسرار المخبأة في البئر؟.. وفي ماذا ستفيدنا؟..

مرة لمحت الخالة إحدى قريباتها بالصدفة أمام بقالة وكاك، عند نهاية شارع الرباط، فكانت فرحة وهي تسير نحوها وتوجه إليها التحية:

- كيف حالك يا لالة أم هاني؟.. من زمان لم نرك، أين أنت؟.. اشتقت إليك كثيراً.

غير أن الخالة لم تقبل أن تكلمها، كانت لحظتها تحمل في نفسها قدراً من القلق والتوتر، كأى امرأة مزاجية وحيدة، لها صفات الوحيدات، يتعاشن مع الآخر، لكنهن يدركن جيداً أنهن خلقن وحيدات وسيظلن كذلك، حتى وهن وسط الأقرباء والمعارف، مغمورات بالثرثرة والمرح.

قالت الخالة للقريبة:

- لا داعي لأن تصيحي في وجهي هكذا، من أنت، ومع من تتكلمين؟..
معي أنا؟.. أتعرفيني؟..

كان الرد الغريب قد جعل القريبة تشهق، وتضع سبابتها على خدها:
- أنا ابنة عمك زهيرة، هل أعمتك النظارة؟..

ردت الخالة مبحلة في وجه زهيرة البيضاء، الذي يحمل وحة بنفسجية
لا تخطئها العين:

- كلام فارغ، أنا لست أم هاني، لقد أخطأت.

ثم أزاحت النظارة المسحوبة عن عينيها، موضحة الستينات، لتؤكد
لقربيتها أنها مخطئة!!..

- أخطأت؟.. أخطأت في ماذا؟.. فيك؟..

وضحكت في مرح، معتقدة أن الخالة كانت تمازحها.

تركتها الخالة ومضت معرجة بعد خطوات على مقر حزب الاستقلال،
غير معنية بما ستقول عنها زهيرة، وماذا ستحكي للآخرين، ودلفت من
الباب الخشبي الكبير إلى الساحة الفسيحة، المغطاة بالكاياص، حيث كانت
تعزف فرقة موسيقية نحاسية ألحانا وطنية، وظلت هناك تتفرج واقفة، إلى
أن انزاحت الغمة من على قلبها.

كررت الخالة ذلك كثيرًا، وفي واحدة منها كانت قد ورطت خالها، الذي كان قريبًا إلى قلبها، وأخلص في دعمها..

حكى لوالدي الذي كان زبونًا عنده في البنك، أنه اقترب منها ليكلمها في الشارع، فهرعت نحو شرطي، ثم أشارت نحوه بسبابتها البضة قائلة في حدة:

- انظر إلى هذا الرجل يا سيدي، من الصبح وهو يتبعني، لا أعرف ماذا يريد مني، ما قلة الحياء هذه؟.. ألا يمكن لامرأة أن تسير وحدها في الشارع؟..

لحسن الحظ لم يكن صوت الخالة قويًا وقادرًا على جذب المارة، لكن من كان يستطيع لحظتها، أن يثبت لرجل الأمن الواقف في المنعطف، أن السيد أحمد الكهل، أستاذ الفرنسية في مدرسة الهداية الإسلامية، بالفعل خالها؟.. وأنها عمدت إلى ذلك، لأنها كانت في حالة مزاجية صعبة؟..

وبينما الخال يحاول أن يتفادى ورطته، كانت أم هاني قد غيرت وجهتها، فعوض الذهاب إلى راحة الريح، عادت فقصدت تراب الصيني.. دفعت بيديها في جيبي جلبابها، وكأن شيئًا لم يكن، تاركة إياه وراءها، وواصلت المسير منفردة عبر الأزقة الضيقة.

أمضيت سنوات طويلة على تلك الحال، ومستعدة أن أظل كذلك، أحمل فكرة أن أحمي الخالة، وأجعلها تقف فوق أرضية صلبة، وتحت سماء

أمنة، فالرباط الذي جمعني وإياها حبكته ماما بدقة، ولعب فيه حنان الخالة ورقتهما، وقطع الشيكولاطة بالبندق، وتلك الأوقات الجميلة، التي كنا نقضيها معاً، ونحن نسرح في المدينة كلها بكامل الراحة، من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ما أهلني إلى الاستعداد إلى القيام بانقلاب في القيم والمفاهيم.

لقد ظلت أردد في تصميم، ماها الخالة؟.. تحب الخير وتعشق (النشاط)، (النشاط يعني عند الخالة الرقص مع قرع الساجات)، تراه أفضل وسيلة لتجديد الطاقة، كما أنها تكره الكذب والنميمة والتفاخر وتمت الغدر، ولا تطيق النكد، ولم تتسبب في إيذاء أحد.

أليس ذلك دليلاً واضحاً على الطيبة والاستقامة، وحب الخير؟..

ولا ضير إن شبهتها ببعض العباقرة والعظماء، أليس أغلبهم غريبو الأطوار، ولهم تصرفات متفردة؟..

فولتير كان لا يكتب إلا بعد أن يضع أمامه اثني عشر قلم رصاص، وإذا انتهى من الكتابة، كسرها كلها ووضعها تحت مخدته، تشارلز ديكنز كان يرتب فراشه بيده، ويستخدم البوصلة، ليتأكد أن رأسه باتجاه الشمال، همنغواي كان يرفض تماماً أن يرتدي ملابس داخلية، ويرهبه استعمال التلفون، بينما نيوتن كان يتحدث مع نفسه كما تفعل الخالة.

غير أن المشكل ليس في غرابة أطوار الخالة، بل في مغامراتها الخطرة، ثم تبريراتها المضحكة، التي تفسر من خلالها لماذا خاضت تلك المغامرات.

كيف يعقل أن تخرج الخالة أثناء القيلولة، من فيلا قريبتها باليوسفية، حيث يشتغل زوجها مهندسًا في المكتب الشريف للفوسفات، تاركة الباب خلفها مفتوحًا، بدعوى أن خادمة قريبتها لا تنظف النعناع جيدًا، ولا تقطع، مثل الجارة مباركة، خبزها بالسكين؟..

ولا أدري أي شيطان أوحى إلى بنت عمته لالة طامو، أن تخلق منها قصة، وتقعن الخالة بالذهاب معها إلى الحمام..

كانت تود أن ترى إن كانت هناك رضوض أو كدمات، وقعتها على لحمها البض، أصابع ذلك السائق، بعد أن عراها عنوة مثلاً، ومارس معها الجنس، وهو يجوب بها طرقاً ترابية وعرة، في فيافي بلاد أحمر، بأضواء مظفأة وعجلات مهترئة.

عوض أن تركب الخالة القطار، تركت نفسها لسائق أجلف، متخففة من شعورها بالخوف، وصعدت ليوصلها إلى بيتها على ظهر شاحنة غنم، داخل كابينة سيئة التهوية، وفوق مقعد مقعر.

سألها وهو يطل عليها من فوق، من أعلى الشاحنة، مستغرباً كيف تخرج تلك المرأة البيضاء الجميلة وحدها لتلحق بقطار الخامسة، وسط تلك الأتربة والمباني الكئيبة:

- إلى أين أنت ذاهبة؟.. إلى أسفي؟.. تعالي أنا ذاهب إلى هناك، القطار سيتأخر كثيراً، أين تسكنين؟..

وذكر لها عددا من الأحياء التي يعرفها حتى يطمئن قلبها..

تلك المرأة التي أفعل من أجلها المستحيل، كان يمكن أن أكون بنتاً حقيقية لها أو حفيدة، واحدة منها، من لحمها الأبيض الصافي ودمها المختلط بالأنساب الكثيرة، أندلسية وآسفية، لكن المسكينة كانت عاقراً.

والوالدي الذي تنازل على مضض، وسمح لأمي أن تتركني لأؤنسها، وظل يكن للخالدة الضعيفة، حذرهما من الوقوع في الغلط:

- البنت تؤنس بنت خالتك أحياناً نعم، أنا أقدر وصية جدتك، لكن تناديا ماما يستحيل، بمجرد ما ستناديا بتلك الكلمة، لن تتبعها خطوة واحدة، تفاهمنا؟..

واكتفت أم هاني بسماحي كغيري أناديا خالتي، وكانت صاحبة أشهر عيين زبرجديتين وضاءتين ونادرتين كحجر كريم، في محيط آل خرينكو، عائلة أُمي وأُمها، جاءت بهما من هناك، من أصلها الموريسكي البعيد... عينان ملغزتان، تجمعان بين الأخضر المنقط بالبني، وأحياناً الأخضر والأزرق، أو التركوازي والرمادي، وقد نحصي في مفارقات مدهشة ألواناً غريبة أخرى مستجدة، لا يشبع أحد من النظر إليها، تتشكل بحسب زاوية الضوء ولمعانه، ككل العيون الزبرجدية، وصاحبة المزاج المعقد الصعب، الذي يستحيل أن تستدل عليه، ويا لها من سعادة كانت تدخلها على قلبي كلما أطلت عليّ وأنا بعد طفلة!!..

كان حضورها زاهياً ومتاحاً كنهار العيد.

تقطع كل يوم مسافات طويلة بالأوطوبيس، أو مشياً على الأقدام، وتأقي لتراني، وأحياناً تأخذني معها، وفي الغالب كان منزلها يبعد عن بيتنا مسافة خمسة أحياء أو ثلاثة أو أربعة، حسب المقادير التي طوحت بها عندما اضطرتها إلى تغيير السكن..

كانت رحالة بمعنى الكلمة، على الأقل على مدار أزيد من عشرين عاماً، التي كبرت فيها وصرت أفهم معنى الرحيل، أنا شيماء الثلاثينية، ابنة بنت خالتها لالة نعيمة، وصارت تأخذني معها في العطل رفقة قصص مصورة بالفرنسية، اشتراها لي أبي عندما كنت أخرج برفقتي، بعضها من مكتبة النسير (l'aiglon) بشارع مولاي يوسف، وبعضها الآخر من الصاكة الكبيرة، التي بالإضافة إلى التبغ، تباع الكتب والجرائد، تلك التي تقع بين استوديو البريسل للتصوير والتحميض، وبين البريسينغ في البلاطو، وكنت أتهجها بنفسي.

أتذكر أغلب البيوت التي سكنتها الخالة بيتاً بيتاً، عدا تلك التي تبدو بعيدة ومشوشة، ربما لأنني وقتها كنت في الخامسة أو أكثر بقليل، ومنحتها من وقتها الكثير، وأتذكر الفرشاة الفولاذية التي كانت تزيل بها الأتربة والصدأ، وأتذكر سطل الجير، وشتلات الحبق والغبناز ومسك الليل.

تلك ثوابت ارتبطت معها الخالة بوثاق من الصرامة والحب، كما لن

أنسى على الإطلاق، ذلك الإحساس الفريد الذي لم يتكرر في حياتي بعد، الامتداد اللامحدود للفضاء أمامي، الصمت، الأطراف النائية والآفاق الرحبة، الحقول والهضاب المعشبة، أطلال الحظائر، المطر الكثيف، قوس قزح، فزاعات الطيور العتيقة بأسماها البالية، الفراشات والسحالي، زقزقات القبرات فوق رأسي، القمر الكبير الذي يكون أحياناً ظاهراً، وأحياناً تغطيه الغيوم، باقات نوار الجمرة وبلعمان (شقائق النعمان) المقطوفين في ذراعي في الربيع، أصوات الأشخاص البعيدين الذين يتنادون، فتصّلني أسماؤهم واضحة وطريفة، ميليد، سحيمدات، عويسى... صديقاتي الفقيرات اللواتي صادقتهن هناك في الخفاء، ودخلت خلسة إلى بيوتهن الفقيرة، لحظات كانت كافية بأن تجعلني أرى كل شيء مثير للشفقة، ثم التقيت بعضهن في إعدادية الفهرية، وكن لا يستطعن الإفصاح أمام عموم التلميذات في الفصل، عن مهن آبائهن للأساتذة، زبال، حفار قبور، كراسي، بائع بيوش، مسلك مجاري، لأنهن كن يدركن أنهن لن يسلمن من التعليقات اللاذعة ومن العنف النفسي، إذ كان ذلك يشكل بالنسبة إليهن محنة.

لم أكن مقتلعة قسراً من بيتي ولا من وسطي الطبيعي، ذهبت إلى هناك بإرادة من أمي وبرغبتني، وإلا كنت سأحس بأنني تعيسة، وسط مثل ذلك الأثاث السخيف والراثثة الهشة، بين أواني من الميكا وأفرشة بالية، تتخللها رائحة البول النفّاذة، خبز أسمر وموائد فقيرة، مساكن تشابه، باستثناء بيت واحد مميز، بحي دوار الشمس، يقولون عنه في إعجاب وغيره، إنه

مجهز بالأشياء الغالية المسروقة، بيت اللص الأحول المكنى بالغول.

كم مرات أعلنت فيها الخالة بصوتها الفضي الذي يرن في مرج، أنها عقدت العزم وقررت أن ترحل، تاركة البيت الذي هي فيه، لأن (صداعه صار أكثر منه)، وكانت والدتي أول من تتلقى الخبر.

أذكر كيف وضعت كفها على فخذ ماما ذات مرة، وأخبرتها وهي مليئة بالعزم:

- ادعي معايا يا لالة نعيمة، لقد اهتديت أخيراً إلى بيت جديد أعجبني.

بيوت كثيرة قالت الخالة إنها أعجبتها، وتمسكت بها، لكنها سرعان ما غيرت رأيها.

منذ أن ملمت أغراضها وتركت دروب المدينة العتيقة وأزقتها الأليفة، بعد طلاقها الخامس، اتخذت الأمور منحى آخر، وبدل الطواف على بيوت العائلة، قررت الاستقلال..

سألته أمي بنبرة خالية من أي لوم، كما هي عاداتها، ولقناعتها ألا جدوى من ذلك:

- والذي أنت فيه، ماله يا لالة أم هاني؟..

- ليس فيه إلا المشاكل، كلب الجيران (يعوك) كالمسعود، كأنهم يجدون ما

يأكلونه حتى يربوا كلبًا.. لو ترين كيف هو!!.. أجرب ومليء بالبرغوث..
غدا سأنتقل إلى درب مولاي الحسن، كل شيء قريب مني هناك، المارشى
والفران والحمام و(المقاطعة)..

وكانتا تجلسان متجاورتين فوق لحاف الصوف الطويل، وأمامهما المائدة
المدورة العالية، تبرز أرجلها المنقوشة من تحت المفروش المطرز البيج، بألوانه
الزاهية، وردي وسماوي وقرمزي وكستنائي.

نظرت والدتي إلى بنت خالتها لالة أم هاني، التي يجمعها وإياها شبه
واضح في الملامح والبياض المثير، وعلقت بصوتها الخامل الذي يشبه
صوت نساء العائلة العريقات، لكن من غير شقبة أي حرف:

- وماذا ستفعلين في المقاطعة إن شاء الله يا لالة أم هاني؟.. لا أظن أنك
من أصحاب الخصومات والفتن!!..

أمي بذلت منذ زمن جهدًا خارقًا حتى تخلصت من ذلك الإرث، على
العكس من بابا، فقد ظل يناديني مكرها (سياء)، مثل الخالة، تقول والدتي
إن أستاذ البعثة المصرية، الذي درسها العربية في مدرسة النهضة، ساعدها
وعلمها ذلك بالتدريج..

ضحكت الخالة أم هاني متنبهة إلى ما قالت:

- هه.. والله صحيح، لماذا ذكرت المقاطعة؟.. أرايت؟.. أتكلم بدون عقل،
لكن يمكن مثلاً أن آخذ منها عقود الازدياد، أو أوقع الكونترادات.

أمي التي ايا ما كان يقال عن الخالة كانت تبقى جادة، تعمدت أن تحبس نفسها من الضحك، وواصلت التفكه بلطف مع بنت خالتها التي لا تزال أخاذة، رغم أنها بلغت تلك السن.

تلك السن!!.. ومن يظل شابا يا ترى؟..

ثمة فقط بعض التجاعيد الخفيفة حول فم الخالة وعينيها، وعنتها ترهل قليلاً، لكن هذا لا يشعر أحداً بأنها عجوز، ولم يصل الأمر بها بعد إلى أن تشبه الأوكارديون، بل تحسب على ذلك النوع الذي يبقى جميلاً وجذاباً في كل سن!!..

لوقت طويل ظل الكثيرون يتداولون حكاية سن الخالة، الثمانين تقريباً، وصمودها في وجه الزمن، بشرتها المقاومة، ملامحها التي لم تتدهور قياساً إلى سيدات في سنها، كما لو أنها تمتلك احتياطاً غنياً من الاستروجين والبروجسترون.

ولو كانت غير ما هي عليه، فنانة مثلاً أو دوقة أو ثرية، وليست سيدة معدمة، لإدعوا أنها تضع البوتوكس، وأن الحظ حالفها، فلم يتحول وجهها، كما يحصل عند البعض، إلى خليط من التوت مع الطماطم المهروسة.

قالت لها أمي هازئة:

- كونترادات ماذا يا لالة أم هاني؟.. الشركات والفابريكات؟..

تلقت أم هاني الغمز بصدر رحب وهي تضحك، كان من ماما، ولو

كان من أحد آخر لكان لها معه تصرف مختلف، (الشن الطن)، كانت ستواجهه في الحال.

ردت الخالة على أمي بنبرة مرحة، وكأنها صدقتها:

- من فمك لباب السما.. في حياتك يا لالة نعيمة، أعمل شركات ومعامل وأعيش كما يحلو لي!!.. هاهاها.. أنا أقصد كونترادت الكراء والماء والكهرباء، لا يوجد مالك يجب أن يكتري لأحد في هذه الايام، من دون أن يعمل معه عقد، لم تعد هناك ثقة بين الناس، كانت الكلمة هي الكونترادة زمان.. يا حسرة!!..

دودة الأسئلة كما تقول عنها أمي، والفضولية كما يقول عنها الباقون، خادمتنا عيدة السمراء، كانت قد جاءت تتمايل في كندورتها الواسعة ومريلتها البيضاء، ثم انحنى لتضع على المائدة، صينية الشاي الفضية ببرادها وأكوابها المزخرفة، إلى جنب صحنين أحدهما مليء بالفطائر والآخر مليء بالحلوى.

أنصت إلى الخالة وهي قادمة نحونا، وسمحت لنفسها بأن تسألها بلهجتها العبدية السريعة:

- أليس هناك سيطار يا لالة أم هاني في ذلك الحي؟..

كانت (مهذومة) الفم وبلا أسنان، ما عدا ناب واحد في الفك الأسفل.

تطلعت إليها أم هاني، وظلت كذلك إلى أن تقابلت نظراتها مع نظرات عيدة الحولاء، وسألتهامتهكممة وهي تهز رأسها:

- ألن تتخلصي بعد من عاداتك القبيحة هذه؟.. مال ك أنت ومالنا؟.. مال الذي حشرك وجعلك تنصتين علي؟.. تدخلين كرموستك في كل شيء.. لماذا لا تدخلين سوق رأسك؟.. ثم ماذا تريدين من المستشفى أيتها الضبة؟.. تركيبين فيه الفم إن شاء الله؟..

لم تنزعج عيدة من أم هاني التي كانت تعرفها من زمان، أيام جاءت لتشتغل في بيتنا وأنا بعد طفلة، بل ضحكت ضحكتها الودودة، وأجابتهام وهي تنظر إليها ببؤبؤيها المتباعدين:

- يا ليت!!.. أذهب معك إلى هناك، ويضعوا لي أسناناً جديدة.

كانت فرصة تسلت فيها الخالة، قالت لها وهي تنظر إليها مجدداً بعينيهام الزبرجديتين الخلابتين، بينما تدس بأصابعها خصلات من شعرها البني خلف أذنها:

- حتى تأكلين أكثر أيتها الملهوفة، أتحسين أنني ساهية عنك؟.. إن ما تأكلينه وحدك في المطبخ، يمكن أن يأكله كل من في الدار.. يا كرش الغول!!..

ردت عيدة على الخالة بظرف، وهي تمضي نحو المطبخ متجنبة أن تثير مزاجها، كانت على علم أن أم هاني حين تهيج، تظل متشبثة بذلك الهياج

إلى أبعد حد ممكن، دون أن يقدر أحد على ردها إلى هدوئها على امتداد النهار:

- الذي ليس عنده أسنان، ليس عنده شهية يا لالة أم هاني، اسأليني أنا!!!..

وأمسكت سرًا بصفيحتها المربعة، المعلقة داخل ثوبها، حيث توجد الآية 255 من سورة البقرة، التي تطرد العين.

تأملت الخالة عيدة من الخلف، كانت تتمايل بمشيتها المتكاسلة إلى اليمين ثم إلى الشمال، عند كل خطوة تخطوها، وتلفت إلى هذا الجدار وإلى ذاك، كأنها تسير على أنغام موسيقى (الآلة الأندلسية) البطيئة، التي لا يسمعها أحد سواها. يا نانا نانا، ثم صاحت خلفها:

- تودين أن تقولين لي إن تلك الترمة (المؤخرة)، وهذين الفخذين من الجوع!!!.. تكلمي أيتها الضبة، كم صرت ترزنين؟.. قطار؟.. (حاوولي) على الرخام وأنت تسيرين فوقه، ستدكيه دكا!!!.. هاهاها..

تفتقت ضحكة صغيرة من فم أمي، لكنها كانت على استحياء، وغادرت أم هاني بعد فترة لتغير سكنها وتبدأ حياتها من جديد، فبصرف النظر عن الأحوال الجوية، سواء كانت عاصفة أو ممطرة أو شديدة القیظ، فالخالة حين تقرر الرحيل، لا شيء كان يمنعها من تنفيذ ذلك..

تعودت الخالة بعد كل طلاق من طلاقاتها الخمسة، أن تمكث فترة العدة عند جدتها لأُمها، لكن بعد وفاتها وإصرار الكثيرين ضمناً على رفضها، وخصوصاً النساء، باعتبارها شابة وفاتنة أولاً، ثم باعتبارها مضنية، فصارت تسكن لوحدها في بيوت ذات إيجار زهيد.

قالت بمسرة بعد أن اكرتت أول بيت، بعد طلاقها الخامس، واختارت أن يكون بعيداً ومشمساً، وكأنها تملك ذلك المقدار من النقود في جيبتها: - بضع عشرات من الدراهم، من أرخص ما يمكن أن يكون، ومقدور على أدائه مادام بذلك السعر.. أليس ذلك أفضل لي؟.. إلى متى سأظل أعيش في بيوت الناس، وأضايقهم بأغراضي؟..

علقت خالتها لالة فاطمة، التي كانت تركض خلفها بالنصائح والتوجيهات:

- اللي عنده من ينوحه، كل يوم تخرج روحه!!..

وواصلت في ما يشبه الهمس:

- طبعاً، أنت لست خاسرة أي شيء، الحبة والبارود من دار القايد، هاها.. كان الله في عونى وعون العائلة.

ومثل دوامة ترابية، أو عفريته الغبار غير المؤذية، ظلت لالة فاطمة تلف وتدور حول الخالة.. لامتها وقالت لها أشياء كثيرة بخصوص يدها (المثقوبة)، ولو أنها أعطيت أكياساً من النقود ستبددها على عجل، ثم

اتهمتها بأنها (تفیهة) تجري وراء شهواتها، ولا شيء يملأ عينيها.

حكّت لها أيضًا عن إحساسها بها، وعن قهرها وهي تراها على تلك الحال، وكم كانت تحب أن تراها سعيدة ومستقرة في بيتها، وأن الله الذي يتمها عوضها بالجمال، لكنها لم تصنه، وستظل تشتهي رائحة رجل ولن تجدها، لأنها أهدرت كل الفرص بنفسها، وأن الحياة ستعطيها درسًا لن تنساه..

ولتغلق الموضوع إلى إشعار آخر، ختمت بالأسئلة:

- هل لي أن أسألك، لماذا بعت (دويرية) أبيك؟.. ألم أقل لك حافظي عليها؟.. خليها سكن يسترك أو انتفعي بثمن كرائها؟.. ها قد جاءك كلامي، وها أنت تطوفين على بيوت المكترين، ألا يقول المثل: قليل ومداوم، خير من كثير ومقطوع؟.. لكن ماذا نقول في البلية!!..

لم تعلق الخالة بشيء، تقبلت بصدر رحب كل ما أثارت لالة فاطمة دون أن تنطق بكلمة،

أحنت رأسها واكتفت بتأمل أظافر كفها، وتمرير إبهامها فوقها..

كانت تدرك أن العتاب قادم إليها من القلب، وحين ماتت لالة فاطمة فجأة في زحام الحج، أخبرني أم هاني أنها كانت قد تيتمت مرة أخرى، وأن ظهرها قد (تعرى) من جديد....

ورغم أن كل واحد من الأهل كان يدفع للمستأجر، وأحياناً تدفع الخالة أم هاني من إيرادها الخاص، مما تجمعها من زكاة أو عطايا أو هبات، فالكارثة أنها أحياناً كانت تغير السكن وتترك المقدم الذي دفعه الأهل، شهر، شهرين، ثلاثة، ثم ترحل.

كان ذلك يغيظهم ويجعلهم يقسمون ألا يدفعوا لها مرة أخرى.

البيوت التي سكنتها خالتي أم هاني كانت صغيرة وسفلية، ودائماً من غير رجل، وهذا ما كان يبرر وضعها لمجموعة من الأقفال، بالإضافة إلى الساقطة، واحد أصلي واثنين في ملكها، اشترتها من الدروغري الوحيد الموجود بالسوق الخانز، دروغري الأمان.

- لا تعطيني نوعاً مصنوعاً في كازا.

أخبرتني أنها قالت ذلك لصاحب المحل بطريقة مضحكة.

- اعطني المصنوع في فرنسا، سيجيء عندي ابني هذا المساء ليركبهما، ابني الذي يشتغل كاتباً في الكوميسارية!!..

واشترطت عليه وهي تناوله المبلغ، أن يكون ذلك مكتوباً عليهما حفراً، ولا بد أن الرجل كان سارحاً في بريق عينيها، أكثر مما هو معني بالاستماع إلى تخاريفها.

- حسناً، قال لها، بإمكان ابنك التأكد من ذلك، (ورفع القفل في راحة

كفه ليواجه به الخالة)، ها هي الكتابة، انظري made in France، محظوظ
ابنك أن له أمًا مثلك، يا ليتني كنت والده!!..

نظرت الخالة إلى البائع بحدة وأنبتة:

- أنت مريض في عقلك؟.. لا تحاول الاستظراف معي، ظننت أنك
رجلاً في غاية التهذيب، فإذا بك خراء!!..

تعودت أم هاني أن تصد كل متحرش بتلك الطريقة الصارمة، لا خيار
أمامها، وكم تشتهي أن تقبض على كل واحد وتأخذه إلى الكوميسارية،
لولا الخوف، فكرة الذهاب إلى المخفر كانت تصيبها بالهلع..

ليست الخالة وحدها من كانت تهاب تلك البنيات، كل الناس في ذلك
الزمن والذي تلاه، كانوا يغيرون خط سيرهم كلما اقتربوا منها، كانت
بالنسبة لهم أمكنة مرعبة، متخصصة في شيء واحد... التعذيب، وكل
من يدخلها لأي سبب كان، لابد أن يأخذ نصيبه من السب والضرب
والصعق بالكهرباء..

لماذا لم تعط الخالة لنفسها الحق في أن تلبي رغباتها، وتنام مع رجل
يعجبها؟.. هل كانت باردة جنسياً مثل بعض الشقراوات؟.. أم تجارها أن
الزوجية هي التي أوصلتها إلى البرود؟.. أو أن الخلل في هرموناتها؟..

بذل البائع المسكين جهداً لا يتلأع الشتيمة، بدت له الخالة مثل أولئك
الأطفال العسيري الإرضاء.

- لديك مشكلة؟..

قال لها متأزماً.

- أنت من لديك مشكلة، هات الحديدات وإلا أريتك شغللك، هاءات، وإلا لن أكمل هذه البيعة والشرية منك.
ونترت منه العلبة ثم انصرفت.

تركب الخالة المزلاجين ثم تزيلهما كلما رحلت، وكم كانت تتمنى لو أنها تستطيع أن تجعل للنوافذ إطارات من الصلب، وللأبواب سلاسل، وللسطح باب من حديد..

حس غامض مزمن من رجل أخرق سيتلاعب بالمزلاج الوحيد ويدخل، لا ليسرقها، بل لينكحها ثم يخنقها، أو ربما ليخنقها قبل أن ينكحها، لأنها بمجرد لمحه، ستملاً الدنيا بالصراخ: عو كعو ووك يا عباد الله، اعتقوا الروووح، لقد دخل شفار (سارق) إلى بيتي!!..

من أين جاءها ذلك الحس ولازمها وأقض مضجعها؟.. أينما ذهبت الخالة كانت تتعرض للمضايقات، تراكمات عبرت إليها من سنين طويلة، من النظرات المتفحصة والحملقة الفجة، من التربص والتحرش، وأنا عبد الزين وأخا تاه علياً... أنا عبد العينين اللي داروها بيا..

للجمال سطوة، هو بسمه الله وموسيقى صوته، كونه جذاباً وإغوائياً،

ومن لا يرضخ للجمال؟ .. غير أننا كثيراً ما ننسى (رسائل الأحزان) التي يسببها ذلك الجمال ..

مرة راحت الخالة تصرخ في وجه رجل محترم، كان يمشي خلفها:

- شفار، شفار!!..

صوتها الرقيق كان يشبه العويل.

- يا مدام، يا مدام!!..

ناداها المسكين وهو يعبر إلى الجهة الأخرى مهزولاً:

- لمستك؟ .. قربت منك؟ .. هديني من روعك، أنا سارق؟ .. أنت مجنونة؟ .. أنا ذاهب إلى بيتي.

نصحتها أمي، حين أسرت لها الخالة ذات مرة، بما يدور في رأسها من مخاوف:

- ما دمت تخافين بهذا الشكل يا لالة أم هاني، لماذا لا تسكنين في (المدينة) قرب أهلك ومعارفك؟ .. لقد طرأت تغييرات كثيرة هناك، فتحت قيساريات جديدة، واحتل (الفراشة) الساحات، وبإمكانك التجول كما تشائين وإلقاء نظرة على الناس وعلى المحلات، أو الجلوس على واحد من مقاعد الاسمنت قرب الكورنيش.

ابتسمت الخالة لو الدتي مستقبلة نصيحتها بالشكوى، ادعت أنها ملت

تلك الأزقة الضيقة، والبيوت العتيقة العفنة التي لا تدخلها الشمس، وتلك الوجوه التي تعرفها منذ قرن وزمارة، وتصبح وتمسي عليها كل يوم، في الأزقة والحوانيت والمقاهي الشعبية، وفي سوق الغزل ودرب النجارين والسويقة وسيدي بوالدهب وباب الشعبة ودرب بوجرتيلة ودرب الحبس..... وكل عالمها الذي عاشته هناك، والذين كانوا صغارًا وكبروا، والكبار الذين ما عادوا موجودين، وأن جزءا من حياتها قد رحل معهم..

قالت لها أمي إنها مدينتها وناسها، والحكاية لا بد أنها تتكرر في كل المدن، وفي كل القرى، الروتين والملل، ونحن لسنا في الدار البيضاء حتى نتيه في الزحام والغربة، ونمر ولا أحد يسلم علينا أو يسأل.. ثم الذكريات، ذلك الخيط الناظم، التي من خلاله تستطيع أن تطل على حياتها الماضية، وأن ترى كيف كانت تتخطى الساعات واللحظات والعقبات، وكم تهبها كل ذكرى من تلك الذكريات البعيدة طاقتها على الاستمرار..

وضعت الخالة يدها على خدها وقالت باستكانة:

- معك حق، ذلك ما يجعلني مشدودة إليها، وغير قادرة على تركها، وهل أنا أحبها من لا شيء؟..

لا يمكن للخالة أن تنسى أنها كانت مفتونة بهرج ومرج الخلاقي عند باب الشعبة، وهي صغيرة، وكيف كانت ترغب جدتها لأمرها على التوقف، حتى تشاهد من مسافة غير بعيدة، العيساوي الذي يلف حول رقبتة أفعى،

ويقترّب برأسها من الناس، بينما تنطلق من خلفه نغمات شجية، من مزمار قصبي كان يوقعها رجل أشيب، فيما زوجته بوجهها الأحمر، ترتدي كم جلباب وتترك الآخر تحت إبطها، وتنهمك في شرب الماء المغلي من أنبوب مقراج مربوط بمجمر، ثم تبخه في الاتجاهات من حولها..

وكيف كان يروقها أيضًا (حليمة الزاز)، الشخصية الشعبية المعروفة بأدوارها الكوميديّة، الكهل الطويل النحيف، الذي كان يرتدي أسماًلاً نسائية، ويضع شعرًا مستعارًا تقصف من الإهمال والقدم، رجل بارع في تقليد الأنثى، يمسك دمية ذكرًا يناغيه ويرضعه من صدره، ويكشف للناس عن مكان ذكوريته، فتعلو من حوله الضحكات..

واستحضرت وقفقتها وهي فاعرة الفم، أمام تلك الخدع الصغيرة للساحر المجاور، الذي كان يأمر إبريقا بسكب الماء، ثم يأمره بالتوقف، ثم يطلع الحمام من أحضان الصغار، والتمر من أنوفهم..

أيام منعشة يجب أن تذكرها، وتذكر معها أن وقوفها مع جدتها بعيداً، ليس لأنه كان يغلبها الخوف من الأفعى، وإنما لم تكن جدتها تمتلك الحق في أن تفعل ذلك، إذ لا امرأة في ذلك الزمن، كان في إمكانها أن تقف جنباً إلى جنب مع الرجال، في حلقة..

ثم تذكرت الأمان، والناس الذين كانوا يتركون أبوابهم الخارجية مفتوحة، والنساء اللاتي كن يضعن (وصلات) الخبز الخشبية، ويأخذها المارة إلى الفرن، ولا يسرقوها...

بدت كلمات أمي كأنها نقرت على وتر الخالدة الحساس، حتى أنها اعترفت لها بأنها في تلك الأحياء البعيدة، كثيرًا ما استيقظت من الكوابيس وهي غارقة في العرق، وأنه عندما يعم الصمت، كانت تشعر كم هي ضعيفة ووحيدة ومتخلى عنها، وأن الدنيا القاسية فرضت عليها أن تحيا تلك الحياة الخالية من الاستقرار، والمليئة بالفوضى، وأن ذلك الترحال ما هو إلا جزء من التغيير، لكن ما لم تقله الخالدة لأمي، ولم يطاوعها لسانها على النطق به، أنها في تلك الأحلام والكوابيس، كثيرًا ما كانت تشعر أن رجلاً بلحمه ودمه، قد دخل سريرها ونام معها بالفعل، وأنها كانت في حالة عارمة من النشوة والابتهاج!!!..

وراحت تحكي لي عن ذلك الكابوس وحدي، بعد أن كبرت وأنهيت دراستي، وبقيت لفترة بدون عمل، وصار في إمكاني زيارتها وقتل الشوق الذي كنت أراه في عينيها، بعد غيابي القاهر، وكنا نسهر ونلهو، وأقضي ليالي متتالية عندها..

ثم سألتني بعدها سؤالاً لم أفهمه:

- قولي لي يا شيماء، هل هناك فرق بين الحلم والحقيقة في النكاح؟..

من غير التفكير في فرويد وتحليلاته، سألتها أنا الأخرى:

- وأين كتابك المفضل تفسير الأحلام؟.. دعينا نرى ما الذي يقول في هذه الرؤيا..

قالت كأنها أفاقَت فجأة من شرودها:

- معك حق، لا أدري أين هو، ذكرتيني.. أظن استلفته مني زوجة عمك لالة نورا، ولم ترجعه لي بعد..

وددت أن أستخف بها قليلاً، أن أقول لها إن تلك الأحلام والكوابيس، ما هي إلا تعبير عن الحرمان.. وأنها كانت تمارس رغبتها تلك في النوم.. لكنني في قرارة نفسي كنت مأخوذة من الكابوس والسؤال، فعدلت عن ذلك.

ردت الخالة على أمي بأعذار واهية، مدافعة عن اختيارها السكن بعيداً في الهوامش، أعذار ومبررات لم ترها أمي مقنعة بما يكفي:

- أتظنين أنها مثل بيتك يا لالة نعيمة؟.. كل شيء أضمخه بالكافور وعطر الخزامى، الملابس والأغطية والأفرشة والفوطات، ومع ذلك لا شيء ينفع، إنها بيوت غاملة (عطنة) تستحق الهدم!!!

- الهدم؟..

تنهدت أمي من أعماق قلبها، لأنها اختبرت جيداً ذلك النوع من الضياع:

- تلك البيوت خير وبركة يا لالة أم هاني، بيوت الوالدين، ومن يفرط فيها أو يبيعها فهو أحمق.

لم تكن الخالدة تقصد بكلامها أن تنكأ جرح والدتي، أدركت فجأة أنها ذكرتني بحكاية بيت والدها الكبير، الواقع بين دربين متوازيين، باب أمامي في درب بين السور، وآخر خلفي في درب سيدي بوعزة، تشرق عليه الشمس من جهة، وتغرب عليه من الجهة الأخرى، ورثه عن جده الحاج عبد المالك الذي كان يتاجر في الأقمشة والأجواخ.

الحزن والحسرة كانا من نصيب أمي، عندما أصر الوارثة على بيع البيت، رغم أنه كان حافلاً بالتذكارات: ثريات، أسقف جبسية منقوشة، خشب مخرم، كتب، مرافع رشيقة، زجاج عراقي كالذي يوجد في الجوامع، باللونين الأخضر والأزرق... بالإضافة إلى تلك الحياة غير المرئية، التي عاشها جدها وأولادهم وزوجاتهم، والأحفاد الذين ولدوا في تلك الغرف وملاؤها بالصياح، واستمتعوا فيه بالأعياد والأفراح، وحزنوا في المآتم..

قالت أمي موضحة:

- ولماذا الهدم يا لالة أم هاني؟.. تلك البيوت لا تقدر بثمان، خصوصاً (الرياضات)، لقد اشتراها الأجانب الأغنياء بـ (تراب الفلوس)، وحولوها إلى فنادق ومطاعم من الطراز الرفيع، هنا في أسفي لم يحصل ذلك بعد، لكن في الصويرة ومراكش أغلب البيوت العتيقة بيعت، تصوري لو أن (رياض) بلهواري وقع تحت أيديهم، وهو في ذلك الموقع الجميل؟..

وراحت أمي تعدد لها أسماء رياضات أخرى لعائلات عريقة في درب

سيدي بوعزة ودرب البحر.. الصالات الواسعة والأسقف العالية والثريات
الأثرية والأبواب المزخرفة، والساعات الجدارية..

ردت الخالة لا مبالية:

- فلوس اللبن يأخذهم زعطوط!!.. أولئك لا يعرفون ماذا يفعلون
بأمواهم، فيبذرونها هنا وهناك.

غير أن أمي حاولت أن تفهمها أن تلك تجارة، واستثمار يدر الربح.

- تصوري كم رياض امتلكه الأجانب، وخرج أصحابه ليشتروا شققاً
في عمارات يا لالة أم هاني، شقق من البريك في الأحياء الصناعية...

تراجعت الخالة كعادتها عن موقفها خطوات إلى الخلف:

- كحل الله سعدهم، ولماذا يفعلون ذلك؟.. صحيح، (بني وعلي،
وسير وخلي)، الكبار يخزنون الأموال والصغار يبذرونها، لو أنا منهم،
كنت سأعيش حياتي كما ينبغي، أستمتع وأكل وأشرب وألبس وأسافر،
(ابرع) نفسي، ولا أترك (لأبو وارث ما يورث)!!..

استغرق كلامهما وقتاً، هناك تفاصيل تروى مع كل فكرة، حاملة ألواناً
من الشوق والإيماء والتنبؤات، وأخرى تمر وتمضي، دون أن تثير أي رغبة
في التعليق.

انشغلت أمي عن الخالة قصداً، مديرة ظهرها لها، كانت تعرف أنها

تفكر في أمر، والخالة تفكر في أمر آخر، فلم تعارضها ولم تضيف إلى كلامها شيئاً، إنها تعي جيداً أن ذلك خيار الخالة في الحياة، لذلك أي إضافة أو رد فعل، سيظل بلا جدوى.

جزء من ذاكرتي الحافلة بالفوضى والشغب تشكلت هناك، رفقة الخالة، في تلك الأحياء الهامشية البعيدة، التي كانت الخالة لا تجد فيها ما يكفي من كلمات وأساليب، لخلق تواصل حقيقي مع الناس، ولا للإجابة عن أسئلتهم الفضولية، ولم تستطع أن تتأقلم معهم، فما يدهشها لا يدهشهم، وما يثيرها يضحكهم..

هذا بالموازاة طبعاً مع ما عشته في حيننا الخالي من الحركة، في تلك الفيلات بالبلاتو خلف البلدية، التي تحفها حدائق كبيرة وشوارع واسعة، ولا يسمع فيها سوى نباح الكلاب، وصفير الرياح بين الأشجار.

صمت وعزلة وسكون، مما يسبب الضيق، بينما أحياء الخالة تعج بالتسلية، وبإمكان المرء أن يسمع أصواتاً كثيرة تحت السماء المنفرجة.

الموسيقى حاضرة على الدوام، وهي مؤلفة في الغالب من كمنجة وبندير، يسميها والدي المتهكم (بوظ طاز) أحياناً، وأحياناً يسميها (ميزان الكلب)، وأغاني سخيفة، تختلط مع أصوات الباعة والضحكات وصراخ الصبية والشجار والعويل، تنطلق كلها في نفس الوقت، لتعطي الانطباع بأنه عالم

حيوي من الطراز الرفيع، عالم فوضى بامتياز!!..

كل الأمور كانت غير متكاملة، في كل حي سكنته الخالة من تلك الأحياء الهامشية البعيدة، بيوته المهملة غير المتراسة تشبه العلب والصناديق المزرية، بعضها ترك كما شيد ولم يطل بأي طلاء، وظلت أرضيته من تراب، أما النوافذ الضيقة التي صممت للتهوية، فهي بلا طائل، ولا تكفي لطرد روائح اللفت والكرمب، والبول المخمر في أفرشة الأطفال، الذي له رائحة الحلبة.

أحياء تنقصها المرافق الضرورية، وتعج بالفوضى، وتستوطن الصراصير والفئران بلاعاتها المرعبة، خصوصاً عندما يطفو على سطحها خليط من القذارة والبراز.

المشهد نفسه يتكرر، والتفاصيل الشديدة الشبه ببعضها يمكن مشاهدتها هنا وهناك، بما في ذلك عربات الكارو التي يأتي الأطفال صائحين نحوها، الأطفال الذين لا يزالون يرضعون رضاعة طبيعية، أصحاب الثلاث سنوات أو الأربع، يتركون أثداء أمهاتهم، ويهرعون ليتسلقوها بأقدامهم الخافية وسيقانهم المقوسة، ثم، هيبه هيبه.. يقفزون زاعقين كأنهم صعدوا إلى القمر.

ورغم صغر سنهم تعلموا ألا يرتكبوا الحماقات، لا أحد يقترب من البغال التي يمرح حولها بوجعران (ذباب الخيل)، يعرفون من وصايا

الأمهات أنها تركل، ويمكن بحافر أن تحطم لهم وجوههم، وتكسر لهم أسنانهم الأمامية:

- أنت يا ذاك القرد، يا ذاك العفريت، (تدرك الأم أنها فعلاً أنجبت عفريتاً!!)، ابتعد عن البغل، سيرفس أمك لو اقتربت منه، سيهرس لك وجهك، ها أنا أقولها لك، دبر راسك، لا تأت إلي باكيا وكلك دماء، سأسلحك لأنك لا تنصت!!..

من قال إن الهدوء يريح الأعصاب، و(الموسيقى الصامتة) تقضي على التوتر؟.. وأن السمفونيات التي يعشقها أبي، بالإضافة إلى (موسيقى الآلة) الأندلسية، وينصت إليها ساهما بوجهه الجاد وابتسامته المتجهمة، في غرفته المليئة بالدخان، أحد أسباب الراحة؟..

تشجعت مرات كثيرة وابتعدت مقدار مسافة آمنة عن أنظار الخالة، تركتها خلفي وركضت لأتفرج على شعالة (بابا عيشور) في كومة من الحطب وإطارات السيارات، البنات يقرعن التعارج الرنانة ويغنين: عيشوري عيشوري دليت عليك شعوري، بينما الأولاد يقفزون مجتازين ألسنة اللهب، دون أن يحصل لهم شيء.

راقبت (الهدية) فوق الكارو في مواكب الأعراس، وعليها بالإضافة إلى السكر والزيت، أشياء مضحكة، فحم، خضر، وتصادف في عيد المولد أن رأيت الأطفال العائدين بهم بجلاليبهم وطرايشهم الخضراء من الخيرات،

بعد أن ختنوهم بغتة، وعلى أيديهم وأرجلهم الحناء، فصاروا في حالة قصوى من الصدمة والصمت.

وفي بعض الليالي صحت مذعورة على خطب مجنون لدفوف كثيرة.. نساء يغادرن العرس بحماس كبير، ويخرجن إلى الأزقة (ليلعن بالسروال)!!..!!

- هكذا تكون بنات الرجال المحضية (المحروسة)!!.. ها هو أحمر.....

كانت خالتي أم هاني تغمغم وهي تحاول أن تهدئي:

- أرايت قلة الحياء يا ابنتي؟.. هل هناك في الدنيا من يفعل هذا، يفصح العروس في الشارع؟.. نامي، نامي لعنة الله عليهم في هذا الليل!!..!!

لم تحضر الخالة أيما عرس من تلك الأعراس الشعبية، ولم تلب أيما دعوة، كنت أتمنى أن تأخذني من يدي ونذهب إلى هناك، لكنها كانت تسخر قائلة:

- أحضر عرسًا من أعراس هؤلاء؟.. هل جنت؟.. إنها فوضى، ترى كيف سأعود بثيابي؟.. يقولون إن الصغار يملأون العرس، ويجلسون حول الموائد قبل الكبار، يستحيل، لا تقلقي، ستأتي قريبًا دعوة من العائلة، لا بد أن يتزوج أحد ما قريبًا، وسترين كيف يكون (النظام)...

هه.. النظام؟.. كيف تتناسى الخالة الفرجة، وتنظر إلى هذه التفاصيل

التافهة؟.. كيف تتجاهل الصخب والزغاريد والرقص فوق (القعدة)، وتفكر في ثوبها؟.. أراهن أنها لا تملك شيئاً من روح المرح، وإنما هي تدعي ذلك.

كاوكي، جنان كولون، دوار الشمس، إجنان.... كل قوى الجذب موجودة في تلك الأحياء الهامشية، الحركة والصخب، المصارعة الحرة، الصياح، حلقات لعب الكارتة، أنشطة لا تخطر على بال أحد من أهلي، ممن يلعبون الرامي في برود تام، يشبه برودة حساء الحريرة البائت.

بعض الرجال يأتون إلى الساحات المتربة، ليمارسوا (العباز) بشياهم الكاملة، مصارعة من نوع خاص، تؤدى من غير مهارات عالية، ولا يمكن أن تكون ممتعة إلا إذا صاحبها الصياح، غير أنها ليست لها علاقة بأية مصارعة أقيمت ذات يوم في جميع مناطق (هياس)، مما يمجّد القوة والصحة والجمال، أو تلك التي مارسها أصحاب الأجساد من (اتكا)، ممن كانوا يحصلون على جوائز (الرجولة الباهرة) في أثينا، (العباز) شيء آخر، عراك عفوي خالص، يبدأ هزلاً ثم ينتهي بكسر الوجه..

كل مساء يأتون تباعاً، فرادى أو مثنى أو ثلاث، يمر كل واحد على بيته من أجل أن يأكل أي شيء، خردولة أو عدس أو كابايلا أو هرينكا، وقد تهيء له زوجته التي لم تجد شيئاً تعدّه للغذاء، حبة طماطم بالبصل تغمرها بزيت لوسرا، ولا بد من أن يشرب الشاي ويغتسل من الصنبور لينتفش جسده، ثم يرتدي ملابسه التي تآكلت من حافاتها، وظهرت عليها آثار

القدم، عندها يغادر غرفته الضيقة إلى أرض الله الواسعة.

لا أحد يلوذ بالصمت أثناء الأكل، الثروة ونقل الأخبار وتبادل الشتائم، جزء لا يتجزأ من تلك الجلسة، وحول تلك الموائد، كنت أسمع تعليقات مضحكة عن النسوة اللاتي أعددنهن للرجال، تذمر مستمر، كلهم ينتقدون أكل الزوجات، ولا أحد يتقن فن المجاملة أو يرغب فيها:

- كم هو حار هذا الأكل!!.. أكثر من الإبرار أيها المسخوطة.

وكثيراً ما كنت أسمع أنه مالح ومحروق، أو (باسل) مثل الويل، ومن المستبعد أن يتفوه زوج بكلمات لطيفة للزوجة المتعبة.

عمي سعيد، الجار المحاذي بيته لبيت الخالة في حي دوار الشمس، الذي يعمل حارساً ليلياً لمدخل فيلا من الفيلات، الواقعة في شارع مولاي يوسف، بين ملعب الكرة وثكنة القائد الحريزي للدرك، كان واحداً من هؤلاء.

كان لا يتوانى عن الصياح في كل مرة، أمراً باستياء زوجته محجوبة، التي كانت الخالة تشبه حواجبها بحواجب الكلب:

- لم تطبخي في حياتك شيئاً يحمر الوجه، يدك مثل الويل، أين كبرت أنت؟.. اطبخي شيئاً للعشاء آكله قبل أن أذهب إلى الخدمة، هذا ليس بأكل (ربما كانت طبخة الرفيسة العمياء)، هذا أكل دجاج، اعملي لنا حريرة تسخن عظامنا، أو انصبي طجين!!..

غير أن الجارة كانت قوية لا تخشى عمي سعيد، لذلك كانت ترد على تعليقه وهي مرتاحة، ليس لأنها أطول منه بكثير، ويبدو قربها كقرم من الأقزام السبعة، بل لأن لها عضلات مفتولة كالكرداس:

- كل أو انهض، ولا تكثر من الفهامة والكلام الخاوي، ماذا عندك؟..
هل تظن نفسك في الريستورا؟..

وكان عمي سعيد (يجمع النوضة)، ويقوم ليتدبر أمره بنفسه، نازعاً من دماغه فكرة أنها ستراجع وتطبخ له ما يريد.

منذ الصغر لم أكن أحب الوحدة والصمت، لم أكن أشبه واحدة من بنات عائلتي الميالات إلى الانزواء في غرف مغلقة، لا يردن الخروج منها إلا للأكل، معتمدات في إنجاز ما يخصهن على الخادومات، وأحياناً على عساكر الآباء الضباط، حتى في لم كيلواتهن المرمية، وتنظيفها أحياناً مما يلتصق بها من قرف، أما أنا فنادرًا ما اعتزلت، أو أغلقت علي الباب بالمفتاح.

الهرج والمرج من الأشياء المحببة إلى قلبي، مثل المدن الكبيرة، والساحات الضاحجة بالحركة والناس، مثل ليالي الصيف الحافلة التي لا يجب أحد خلالها أن ينام، مرة بسبب الحر، ومرات كثيرة من الأصوات العالية، ولا أحد لديه مكيفات..

لا أعيش التناقض التي توجد عليه الخالة أم هاني، تحب (جامع الفنا) لكنها تكره الجلبة، تحب (البحيرة) ودرب غلف في كازا، غير أنها لا تطيق الزحام!!..

ربما لذلك، وأنا طفلة، كنت لا أستشيرها في أمر تحركي وأنا في بيتها، بمجرد ما كانت تشغل في المطبخ، كنت أتسلل لأفتح الباب وأطل من الشق، وشيئاً فشيئاً صرت أجلس على العتبة، أو أدعي أنني أريد الذهاب إلى دكان (الدوبل طيط) لأشتري الفنيد، الشاب القصير ذو الرأس المزدوج، الذي كان ينظر إليّ نظرات غريبة وهو يناولني الحلوى يدًا بيد، ويلاعبنى ويضغط على أصابعي واحدًا تلو الآخر، وكنت أرى كيف هما ترتعشان، يداه الباردتان، مع أن الطقس كان حارًا، وكيف كان يشد على كفي أحيانًا، ويفتحها، ويبقيها إلى حد ما مفتوحة في كفه، بينما أنا منشغلة بقراءة ما كتب أمامه على كرتونة، (ممنوع الطلق)، وكنت لا أفهم أن ذلك يعني عدم أخذ البضاعة بدون دفع، وتسجيل ذلك في الكارني..

غير أن نبرة الخالة المنبهة كانت تصلني باستمرار:

- هل فتحت الباب يا سيماء (شيء)؟ .. احذري يا ابنتي، لا تقتربي من هؤلاء العفاريت، لا تفوتي العتبة!!..

تعالمني الخالة على أساس أنني أغامر بحياتي، مع أن تلك الإطلالات كانت تمنحني إحساسًا جميلاً بالحياة.



كل شيء رأيته في تلك الأحياء البعيدة كان جديدًا بالنسبة إليّ، حركة الدروب والأزقة، المارة والباعة، النساء المتجولات بالصنادل والمنامات،

ولم تكن هناك شوارع بالمعنى العادي للشارع، بل كانت هنالك دروب وفضاءات متربة تشبه الساحات، تسميها الخالَة (التيرا).

تفاصيل تلك التيرا حفظتها عن ظهر قلب، كانت كأنها وضعت أساساً ليرتادها الكبار، أما الصغار الأشرار، أصحاب الألقاب المضحكة: تبّج، الوشاش، هريويلا، جعاطة.... فيفضلون اللعب في الهوامش.

كنت أسمي الروث الذي يشعلون فيه النار، خراء، أتذكر كيف صححت لي الخالَة ذات مرة، عندما أو مأت لها نحو لطخة أفرزتها على الطريق بقرة. قالت لي ضاحكة:

- اغلّقي فمك، إنه روث وليس كاكّا، الناس تسمع، سيضحكون عليك..

لا يذهب الصغار الأشرار وحيدين أبداً، دائماً في رفقتهم قطط صغيرة أو زواحف أو جراء،

يسرقونها من أبواب البيوت، أو يأخذونها من المزابل.. قالت لي الخالَة إنهم يلعبون بها هناك لعباً شنيعاً، إلى أن يملوا منها، ثم يلقون بها في النار..

أنظر إليهم الآن في خيالي، فأرى كم هم قساة القلوب، مثل الشخصيات المافياوية من آل كابوني، متجمعين في بنية تنظيمية واحدة، ولهم نفس القواعد السلوكية المشتركة، الإمعان في التعذيب، دون أن يدرون، لا هم ولا أهلهم، أنهم بذلك يعززون السادية في دواخلهم، وأنهم بحسب الدراسات النفسية:

ممارسة العنف ضد الحيوان، يؤدي إلى ممارسته ضد البشر.

أما إخوتهم المراهقون المختلطون بأصدقاء السوء فكان لهم منحى آخر...
جموحهم ورغباتهم لا أحد يناقشهم فيها، لا مجال لتلبية الحاجات ولا مجال
للإنصات، إذا لا مجال للمحاسبة ولا جدوى من التقويم.

فما العمل؟..

يغطسونهم أيضًا في الأحراش، ويهارسون تلك الأفعال التي لا يجزؤ
الصغار على عملها مثلهم، كل واحد حسب سخونة رأسه: خمرة، حشيش،
سرقة، تحرش، شجار، اغتصاب.. لا يطات ذلك العاملات العابرات فقط،
بل يمكن أن يطات أي معزى أو دجاجة أو أتان..

لم تكن تلك الأحياء الشعبية التي سكنتها الخالدة تشبه الأحياء المتدهورة
بالمرة، ولم تأخذ منعطفًا خطيرًا كما هو الحال في بعض الهوامش، الجانب
الأسوأ فيها، آليات التصميم والبناء، والبنية التحتية والخدمات.

تلك التيرا مثلاً، كان يمكن أن تكون ساحة عمومية جميلة، تزينها
كراسي ونباتات وزهور، ويجلس حولها الصغار والكبار، كما هو الحال في
كل البلدان التي تحترم نفسها، وتدبر أمورها تدبيرًا أخضر، عوض تلك
التدابير السوداء عندنا.

الذين يأتون إليها، كلهم من الكبار، يرافقهم المسنون الذين أبيض
شعرهم، وتورمت أقدامهم، وانحنت ظهورهم، وغالبًا ما يكونون حاملين

بين أيديهم أحجارًا أو كراتين، يجلسون فوقها لساعات طويلة.

أذكر كيف سلم الرجال على بعضهم البعض بالأيدي في حي إجنان، وقبلوا سباباتهم في ذلك الصباح، وجلسوا في الجهة المقابلة لي كأنهم على تيراس، وخلفهم حائط أجرب كتب عليه بالفحم، بحروف معوجة (ممنوع البول).. عمال متعبون، بناءون وجيارون وباعة جوالين وكناسو أرصفة وصباغون..

رحت أقلب النظر بينهم واحدًا تلو الآخر، تطلعت إلى وجوههم التي لفحتها الشمس، وإلى ملابسهم البالية قطعة قطعة، القمصان والسرراويل والأحذية المتأكلة والصنادل، أقدامهم المشققة وأسنانهم المنخورة وحلاقة رؤوسهم العتيقة.. عكس أولادهم الصعاليك، الذين لم يتركوا تسريحة جديدة إلا جربوها، بما في ذلك تسريحات العرف والغرة، مثبتين إياها برش كوكاكولا.

مظهرهم بدالي مختلفًا تمامًا عما عرفت من أفراد عائلتي، ولا يمكن وضعهم جميعًا في سلة واحدة، الفرق شاسع جدًّا، ويمكن أن أتجرأ وأقول إنه مظهر غير لائق، وبحسب ما أدركت بعد أن كبرت، كانوا فعلاً يمثلون شكل طبقة البروليتاريا الرثة!!..

قبل الشروع في لعب الكارثة، تقدم أمامي عرض يتفجر بالحيوية والفوضى، الضحك والتنكيك والسعال والبصاق، ثم نشرة أخبار السوء كما تقول

الخالة، لكن الكوميديا كانت تتفوق دومًا على التراجيδια.

لم يترك الرجال موضوعًا إلا ونبشوا فيه، أحداث وقعت لهم أو لسواهم في غاية الشقاء، من زلت قدمه فسقط من الطابق الرابع، بينما هو منهمك في البناء.. الذي انهار عليه سقف فـ (انجغ).. المعاون الذي دهسه من الخلف سائق الشاحنة المحملة بالرمل عن غير قصد، فشقه إلى نصفين... المرضى، المجرمون وأصحاب السوابق، من أخذ المؤبد فاستأنف، وسيخرج ويعمل مثلها، الطيبون الذين يموتون والأشرار الذين يعيشون، أخبار الغرائب....

خالتي أم التي وصلها الهرج أولاً بأول من الباب الموارب، كانت حريصة على أن تقول لي معلقة:

- أكره شيء عندي هي هذه الأخبار، كل واحد منهم مثل البغلة (الملاطية)، لا أعرف كيف يتمكنون من جمع هذه الأنباء السيئة، ليتهم يتكلمون بهدوء.

ثم ختمت بنبرة استعطاف:

- اقفلي الباب يا سيماء (شيماء) وادخلي لتقري قصة من قصصك، فلو واطبت على سماع هؤلاء فإنهم (سيجمنونك)!!..

لم أفهم ماذا يعني أن (يجمنوني)، ثم وسط ذلك الجو الاحتفالي، ماذا تساوي قصة (أليس في بلاد العجائب)!!..

تحاشيت كلام الخالة وأدرت لها ظهري، بينما الرجال يصخبون ويشعلون السجائر واحدة تلو الأخرى، سجائر بدون أعقاب.

من حسن الحظ أن الخالة لم تحكم أبدًا قبضتها علي، لا هي ولا ماما، بأي دافع كان، لا حبًا في التملك ولا رغبة في السيطرة، ولا بسبب درجة قلقها العالية عليّ، ومخاوفها من أبي، فلم أشعر أبدًا أن محبتها فيها دمار لي ولرغباتي، ولا هي تشبه في شيء أولئك الأمهات المتسلطات، اللاتي يفعلن المستحيل كي يراقبن بناتهن، ويضربنهن ويحجزنهن إذا اقتضى الحال، ثم إن الفرجة متاحة، فلماذا أحرّم نفسي منها؟..

لم أسمع أحدًا يفتح صدره بذلك الشكل، ويطلع همومه وكوارثه أمام الملاء، كل النساء في عائلتي والرجال سريون إلى أقصى حد، ومتكتمون، وكانوا كلما ودوا أن يتحدثوا في أمر، كانوا ينزوون بعيدًا، متقاربين برؤوسهم الكبيرة، وهامسين لبعضهم البعض، بحيث لا يمكن أن نسمع منهم نائمة..

اشتكى العمال من الصحة ومن الأولاد، ومن صعوبات الحياة، ولا أحد عناه أن يخفض صوته أو يفكر في الخصوصية، الخصوصية بالنسبة لهم للذين في كرشهم عجينة!!..

الرجل المكنى بـ (الفلعوص)، والد الطفلة الجميلة التي أحبها، ولطالما طلبت من الخالة ونحن نسير أن تتركني أقبلها، وأعطيتها بعض الحلوى، اعترف أمام الكل:

- انتهيت يا عباد الله، أكياس الاسمنت والكياص أرهقت ظهري، أنام مثل القتيل، وعندما أصبحو أجدني (مدبوراً) مثل حمار ومليئاً بالكدمات، ومفاصلي توجعني كأن بقرا بات يمشي فوقي، وها أنا لا زلت غارقاً في الكريدي..

تطلعت إليه من باب الفضول، كان (مهلوگًا) ومستنفذا بالفعل، هيئته ووجهه وشعره وحذاؤه، وكل ما فيه، مثل الجدار الأجرب خلفه، خصوصاً بتلك الجاكطة الصهباء، من النوع الذي يباع في سوق الاثنين، وقد زررها في إحكام حول صدره.

خسارة أن الخالة لا تأتي لتطل من شق الباب، فلورأت (الخصيم) الجالس إلى يمين (الفلعوص)، لضحكت كثيرًا من وجهه المحتقن وأوداجه المنتفخة، ومن جلبابه الأبيض المبقع بحبر أزرق.

غير أنها للأسف كانت ستعود إلى غرفتها مغطاة، أعرفها، كانت ستتقزز من رؤيته يحفر أنفه بسبابته حفراً عميقاً ومتواصلاً، وستصوغ أكثر التعابير إضحاكاً:

- يجمع، تفوووو، يعطيه الويل المعفون، يحفر بأصبعه في ثقب أنفه كأنه سيخرج العسل!!..

قال الخصيم عن ابنه الكبير إنه مصدوم فيه، كان يريد عوئاً وسنداً له على الزمن، فإذا به عالية عليه، لا قراية ولا يجزنون، الأولاد في سنه

يروحون هنا وهناك، ويجرون وراء رزقهم، وهو ينام إلى أن يحمض بوله، وعندما يصبحو يبرزط أمه.

- تصوروا.. يريدوا أن تعطيه نقودًا كل يوم، ليشترى (الدخان) ويذهب إلى المقهى، يقول لها صارخًا: لماذا ولدتني فقيرًا؟.. هاهاها، ابن الكلب!!.. أتمنى لو يمسكه أحد ويقربه مني، أقسم بالله سأجعل ظهره ألين من بطنه، أو أضربه عند جدارة الأذن وأرسله إلى (الروضة) ديريك، وأهني أمه منه.

ثم حكى عن إخوته الذين لم يكبروا بعد، وها هو في ذلك العمر لا زال يكنس الشوارع بدراهم من (التعاون الوطني)!!.. فماذا يفعل بكيس من الدقيق مع لترات من الزيت؟..

لم يعلق أحد ولا ألقوا باللوم على الولد الضال، ظلوا ينصتون صامتين، جزء منهم يدخن، والبعض الآخر ينكت الأرض بعود، أو يحفر في أنفه، كانوا كأنها C'est du déjà vu، سبق وتفرجوا على ذلك (الفيلم)، مثلما يقول المثل!!.. وتلك مجرد رغبة في تكرار الشكوى ليس أكثر..

الأسمر المتطوع الذي تعاطف مع الخصيم، وقام يشده من يده، كانت عليه سياء الظرف، وكان كم جاكته البنية ممزقا من الخلف، وتبدو بطاتته صفراء من الداخل، لكنه تصرف ناسيا أن الخصيم أعرج، ويستحيل أن يتخذ خطوة وينهض، دون أن يتوكأ على الأرض بكلتا يديه، وأن ملابسه صارت ملتوية وفي حال من الفوضى..

كان يود ألا يتماذى الرجل في التذمر، وألا يضغط على نفسه أكثر:

- يا سيدي خليها على الله، أولاد عبد الواحد كلهم واحد، هات يدك وقم، يللله، اجمع رأسك، هذه هي الدنيا، شي عطاتو وشي زواتو، ونحن في ما يبدو ليس من نصيينا سوى تمارة، نحن وجوه العذاب!!.. هاهاها.

أعجبنتني لحظتها وجوه العذاب تلك، وخليها على الله، وليس من نصيينا سوى العذاب.. قبل أن أكبر وأفهم معنى العجز، وكل التعابير المستسلمة التي تقال بكل بساطة، عندما يعجز أولئك عن كسر الدائرة الجهنمية للخروج من الفقر..

بسرعة انخرط الرجال في الضحك والاستهزاء من بعضهم البعض، تلك السخرية المرة دون احترام المشاعر، المضحك المبكي في المزيج المتدني من النكت القبيحة، والألقاب الجارحة، مما يخلق التوازن لديهم، يتناولون فيه كل شيء: لون البشرة والعيوب والعاهات... الأعور، الأقرع، الأعرج، لقلش، بيوض (بالنسبة للأسود)...

تلك النعوت تظل تبعث على القهقهة، حتى لو تنازوا بها مئات المرات، بالإضافة إلى تلك الأشياء الأخرى التي لم تتغير ولو لمرة واحدة في حياتهم، لتعطيهم الأمل، بالعكس، لم تحدث المفاجأة ولم يتحسن الوضع، وكان ذلك كافياً لتظل أرواحهم المتعبة مرحة، ثم يشرعون في (النشاط)..

فلسفة هؤلاء في الحياة أنهم موجودون فحسب، عائشون، ولا يهمهم إن

كان هناك آخرون ينعمون بالفاهية والرغد، فيما هم يتقبلون في مصائرهم
التعيسة.

- ما دايماً إلا وجه الله، ماذا سيأخذ الإنسان من هذه الدنيا؟ .. لا
شيء، لا نقود ولا عمارات ولا بواخر، زيرو، كل شيء سيبقى هنا، ماذا
أخذ الشقوري والحاج عبيد؟ .. ماذا أخذ الحمري؟ .. ما أسعدك يا فاعل
الخير!!!

هكذا ختم أحدهم، وكان أبيض اللحية وشعر الرأس، وانغمسوا في
لعب الورق.



منذ أسبوع وأنا أفكر كيف أفاتح خالتي أم هاني في الموضوع، كيف
أطرح عليها فكرة التحقيق الصحفي الذي خطر ببالي.

طلبت مني الجريدة التي أرسلها بإلحاح، ألا أقتصر في مراسلاتي على
التغطيات، كتبوا لي: ينصح بتجاوز ذلك والاهتمام بالتحقيق، نحتاج إلى
مقالات تحليلية جريئة، أشياء تخص المرأة في المغرب مثلاً.

لكن ترى هل اعتبرني الخالة كبرت بما يكفي كي أحاورها، وأسألها
أسئلة حميمة، بعد أن اشتغلت ذلك الشغل الذي لا تعرف له رأساً من
رجلين؟ .. شغل لا أخرج فيه من البيت ولا أذهب إلى مكتب أو وزارة،
ولا أذكر بعضاً من مدخولي؟ .. صحفية فري لانس، في جريدة عربية
الالكترونية!!!

من حقها أن تستغرب، ماذا يعني صحيفة فري لانس؟ .. أين التعيين والأوراق والترسيم والإدارة والمكتب، وكل ما يخطر في بال الخالة من تفاصيل لها علاقة بالتوظيف؟ ..

حصلت على الماستر في التاريخ المعاصر، وحظيت بتنويه من أساتذتي، لكن كل ذلك تبخر أمام الشوماج، ولفترة طويلة عانيت من العطالة القاسية، فجوة سببت لي قلقاً في حياتي العملية، وفراعاً كبيراً وحرَجاً مع إخوتي، خصوصاً مراد، كان لا يفوت الفرصة في إثارة أعصابي.

كان يقول لي مازحاً:

- ما زلت هنا يا صاحبة الماستر؟ .. تعالي اشتغلي معنا، سنعطيك أضعاف ما ستأخذينه كمعلمة في دوار مجهول..

هؤلاء هم العمليون، إخوتي الثلاثة فريد وسعد ومراد، بعد الليسانس فتحوا مشاريع، واتجهوا نحو العقار، شراء الأراضي وتشيد العمارات وإقامة المقاهي، لكن المشكل في آخر العنقود، أختي شياء، التي صارت تعلق تأخرها في الدراسة على مشجب عطالتي:

- ولماذا أعذب نفسي؟ .. ماذا فعلت شمياء بدبلومها؟ ..

وها هي الخالة أمامي بالمناسبة، تثير زوبعة من الأسئلة والتعليقات المضحكة، مستغرقة في أكل ما تبقى من قطع الحلوى، التي جلبتها معها أمس في علبة، بينما يعبث صوتها بأفكاري فيشوشني.

قالت لي جادة:

- أنت مجنونة؟.. تحتفلين بعيد ميلادك وتفضحين نفسك، لو أنا منك لن أكررها مرة أخرى، لا أقول للناس إنني بلغت الواحدة والثلاثين، لا يمكن، ما هذا العقل يا شيء؟..

تأملتها ضاحكة وأنا ممنونة لصديقاتي المجنونات اللاتي أهدينني دمي ساحرة، وشوكو لاطة، ودبة بحجم الكف.

كنت على يقين أن أي تبرير سأقدمه للخالة لن يقنعها، كانت من ضمن أولئك اللواتي يتمردن على الزمن بالكتمان، ثم يمضين معلنين عن أرقام ظريفة بخصوص أعمارهن، كأن الزمن سيتواطأ معهن ويغض الطرف هو الآخر، مزورًا تلك الحقيقة مثلهن..

زوجة خالي لالة فوزية ظلت متشبثة بالثلاثين حتى بعد أن بلغت الخمسين، وعمتي سعاد كانت تعطي لنفسها عمرًا أصغر من أعمار أولادها..

قلت للخالة صاغرة وأنا أود أن أتجنب الجدل:

- لكنك أمس كنت فرحة وتضعين (النجوم) في شعرك، ورقصت وغنيت وعملت الفوضى..

الرقص!!!..

ما أن تسمع الخالة الموسيقى حتى تنهض، (الجرة) أو (الركادة) أو

(الهيئة)، كل الأنواع الموسيقية كانت تشحنها وتمنحها الطاقة على الانطلاق.. فتتغير كلها، لونها ونظرتها ومزاجها..

بعض النساء كن لا يرقصن فحسب، بل يفتحن منافذ على أرواحهن المحبوسة وعلى العذابات، كن يجررن أجسادهن ويتركنها تفعل ما تشاء، في واحدة من أكثر الانطلاقات الممكنة، خاصة لو كان ذلك على أصوات (الحضارات)، تلك الفرق النسائية التي لا تغني إلا القصائد الدينية والأمداح، فكل امرأة منهن كانت تخفي في صدرها قصة..

شاهدت في أكثر من مناسبة، بعض النساء يغمى عليهن عند الرقص، بعد أن (يجذب) طويلاً على وقع الدفوف والصاجات، وكنت أرى كيف كن ينتفضن بذلك الشكل الغريب، برؤوسهن وأطرافهن في عنف، إلى أن يسقطن على السجاد مغسولات بالعرق..

كل مرة (تجذب) فيها امرأة، كانت أصوات (الحضارات) ترتفع عالياً أكثر فأكثر، مصحوبات بالزغاريد و(التتقال)، وبالمهثئات..

عند الخالة لم يصل الأمر أبداً إلى حدود الجذبة وفقدان الوعي، وحملها إلى السرير، وتهنتها وشد شعرها الأشعث بمنديل، المشكل أن رقصها كان يتم بطريقة مضحكة..

يقال إن الرقص علاج للاضطرابات النفسية والانفعالية، وهو كأداء، تحسين وتناسق في الحركة والإيقاع، يؤدي بالفرد إلى الشعور بالثقة والاطمئنان،

إنه تعبير مباشر عن النفس عن طريق الجسد... ألم يكن الفلامنكو متنفساً عن القمع؟..

لكن المشكل أن رقص أم هاني أعسر، ويفتقد إلى التناغم والانسجام، مما جعل الآخرين يقولون: أم هاني في بلد، والموسيقى في بلد آخر!!..

لا يمكن رؤية الخالة ترقص دون أن يجتاحك الضحك، ضحك هستيري، كنت أرى الدموع منهمرة من أعين قريباتي، وهن يتابعنها، كانت على رأي خالتها لالة فاطمة، مجرد (مرودة) تجلب لنفسها السخرية، لكنها لم تتدخل وتطلب منها ألا ترقص، أو تعطيتها بعض النصائح، كان تدرك أن ذلك شيئاً لا قدرة لها على التحكم فيه..

قالت الخالة بخصوص (النجوم) التي في شعرها، أو تلك الذرات الدقيقة من الورق المذهب:

- إنها الجنية شيما، جاءت ورشتني بها، ثم يا ابتتي أنا لا أمزح، أقول هذا من أجلك، أنت لم تتزوجي بعد، ولا زلت (مادة يديك للحناء)، فلماذا تفضحين نفسك؟.. أنا في سنك، كنت قد تزوجت وطلقت أربع مرات.

لم أقل للخالة إن ساعة الزواج لم تكن بعد، وأنني مررت ببعض العلاقات الجدية، أثناء الجامعة وفي الحياة، لكن كل شيء كان يتغير فجأة، فقد أطلت الخلافات برأسها على عجل، الشكوك، المصالح، العقد...

متطلباتي أن أرتبط بشخص لا يخذلني، شخص يشبهني إلى حد ما،
أنتقاسم وإياه الحلو والمر، نحكي ونسهر ونسافر ونضحك ملء قلوبنا، ونزور
ونتراور، ونقرأ الروايات والشعر والقصص، وننجب، ولا نتعارك...

قلت لأجعل الخالة ترتبك، بعد حكاية السن تلك:

- إذا أنا الآن في نظرك لست سوى مجرد عانس يا خالة؟.. أليس
كذلك؟..

ضحكت في سري، حين سارعت الخالة إلى إغراقي بسيل من الاعتذارات
والمجاملات:

- بسم الله عليك، ولماذا تكونين عانسًا إن شاء الله، أنت تؤشرين
بأصبعك، وكل شباب العائلة تحت قدميك، أنسيت من أنت، وكيف هو
جمالك؟.. اقبلي فقط، أنت من يرفض الارتباط بعريس من العائلة، وأنا
لا أفهم لماذا؟..

- حسنا..

قلتها مستغنية عن شرح سلبيات زواج الأقارب ومخاطره الطبية، الجينات
الغالبة والأخرى المتنحية، التشوّهات الخلقية، لأن بالي مشغول.. كل تركيزي
في تلك اللحظة كان في اتجاه آخر.. كيف أمسك بخيط البدء، كيف أشغل
عقلي قبل أن أشغل مسجلتي..

ترى ماذا ينبغي ذلك الرأس يا أم هاني؟..

خمس زواجات وخمس طلاقات، حصلت في ذلك الزمن الغابر، أكثر من ستين سنة تفصلنا عن أول تجربة، حاولت فيها أم هاني يائسة أن تتحول من طفلة إلى ربة بيت، دون أن يفكر أحد من أهلها في العواقب.

كنت متحمسة لإجراء الحوار بأي ثمن، بأسئلة مفصلة وبالتدقيق الممل، ليس من أجل الجريدة وحدها، بل إرضاء لفضولي أيضاً، فكم تمنيت أن أعرف أشياء كثيرة عن تلك الحياة، عندما كانت أم هاني لا تزال طفلة، لكنها كانت زوجة مضطرة إلى أن تنام في حضن زوج، الله وحده كان يعلم كيف كانت تمر تلك الليالي، وما الذي كان يحصل فيها..

فكرت في الحرج، وفي خجلي من أم هاني، لكن سرعان ما تذكرت أنني صحفية، فقررت أن أستعين بقاموس البذاءات الذي شرح عشرات العلاقات الجنسية، التي تعهر فيها البطل كما شاء، في رواية (نساء) لشارلز بوكوفسكي، التي أنهيت قراءتها منذ أسبوع.

قلت في نفسي، سأسألها كبداية سهلة عن تلك المقبلات، وكل ما يفتح الشهية للجنس، الملامسة والقبل والعناق، تلك المقدمات المثيرة، مع أن طفلة مثلها، لا أتصور أن لها علاقة بذلك، ولا أظن أنها كان في إمكانها أن تعانق رجلاً من أجل النوم..

ثم أستعد نفسيًا وأخوض في ما هو أجراً، إن كانت قد أحبت أن تمارس ذلك في العلن، محدة في زوجها، وهل كانت تجد الأمر لذيذاً عندما كان يعتليها؟.. ثم الوضع أثناء المضاجعة، تفهمين يعني يا خالة.. أمام، خلف، جنب؟..

لم تكن تلك أسئلة لتطرح في تحقيق، أعرف، موضوع الزواج والطلاق لا يتطلب الحديث في التفاصيل الايروتيكية، تلك أسئلة صبيانية لا تلقىها سوى واحدة جاهلة، لا تفهم شيئاً في الجنس، ولا خبرة لها في الصحافة، وتتنهزها فرصة لتفهم وتتعلم، مثلما تنلمسها كصحفية مبتدئة، لا تعرف الألف من عصا الطبال.

الخالة امرأة تنتمي في (الفراش) إلى جيل الخمسينات، جيل الحياء والخفر، وأنا أبني أسئلتي على ما هو متاح اليوم، مما يمكن شاهدته في قنوات الجنس والبورنو.

لكن كيف يمكن أن أعرف إن كانت الخالة امرأة شبة أم العكس؟.. وهل كانت تستسلم لغرائزها؟.. ومتى كانت تطلق العنان لصرخاتها، وتكون في ذروة العطاء؟.. وفي ما إذا كانت قد أدركت النشوة، أم استحال عليها ذلك؟..

وستكون هناك استفسارات أخرى بالتأكيد، وأسئلة أصوغها من تجارب أولئك الذين يملكون الحق في أن يكتبوا بتلك اللغات غير لغتهم، كتابات

مشوقة عن مثليتهم وعن عشاقهم، عن أمراض مجتمعتهم الأصلي، وعن
الحمايات والكبت وزنا المحارم، دون أن يوبخهم أحد، أو يمسك لهم
عصا الرقابة.

أتصور أن الخالة لن تخذلني، فهي من الأشخاص القليلين المفضلين،
الذين كنت أهوى الإنصات إليهم من غير كلل ولا ملل، مثل جدي لأبي
الحاج عمر، وخالي مصطفى، والعمة لالة مليكة.

نساء ورجال حكاؤون بامتياز، يتقنون فن السرد، كأنها هي مجسدة
أمامهم تلك الوقائع، قصص وحكايا وملح ونوادر ممتعة، تتوالى الواحدة
بعد الأخرى، في إيقاع لا ينضب.. وكنت من النوع الذي الذي يجب أن
ينصت بشغف وإمعان..

وبقدر ما أنا مصابة بنسيان الوجوه والأسماء، وأنسى أين وضعت
أشياء، جالبة لنفسى المتاعب، كانت ذاكرة الخالة مدعاة للإعجاب، كانت
ولا تزال صافية كالبلور، خاصة في ذلك الجزء المتعلق بالتفاصيل الصغيرة
والحيثيات.

كل شيء ترويه الخالة يتم بدقة، التواريخ والايام والساعات والحجرات
التي كانت تقعد فيها، والألبسة والألوان والوجبات...

كأن ما حدث، حدث منذ لحظة، وليس منذ تلك السنين البعيدة التي
لا تتيه فيها التفاصيل فقط، بل تتوارى خلفها الاحداث الكبيرة نفسها.

قلت لأستدرج الخالة، بعد أن فكرت قليلاً في تلك الأسئلة والاستفسارات:

- دعك مني ومن سني يا خالة، حتى لو صرت عانساً، ليس هناك مشكل، لن أتعقد، ركزي معي في الآتي، لدي مشروع، أنا وأنت سنعمل شيئاً مشتركاً يتعلق بزواجك وطلاقك، وسأكتب ذلك في الجورنال.
- في الجورنال؟..

نظرت الخالة نحوي متوجسة.

لو كانت معي نسخة ورقية من الجريدة لأريتها لها، لكن لا ينفع أبداً أن أفتح حاسوبي، وأقول للخالة نعم، هنا سننشر التحقيق، وهنا يوجد مقر عملي!!..

الراجع أن أفسر لها بأن الجريدة التي أكتب فيها تشبه (العلم)، ذلك النموذج الحي من الصحف الذي تعرفه الخالة من زمان، أيام كان جل أفراد العائلة ينتسبون إلى حزب الاستقلال، ويهربون تلك الجريدة تحت ثيابهم في الأزمات، لكن تلك ليست ورقية، وإنما توجد على الانترنت.
- جورنال على الانترنت يا خالة.

لم تستوعبت الخالة الأمر، كل ما تعرفه عن الإنترنت أن البنات صرن يتزوجن بتلك الوسيلة، وأنهن غامرن وسافرن مع الأزواج إلى البعيد، إلى قطر وأمريكا وألمانيا والإمارات والسعودية وليبيا، والسودان..... والله

يعلم ماذا يفعلن هناك، وماذا يفعل بهن أيضًا..

على مدار سنين عديدة، تجمع لدي من المعطيات والنوادر والبيتيزات، ما يكفي عن الأسباب التي أدت إلى طلاق الخالدة، لكنني لم أجد في أي واحدة منها ما يقنع.

تزوجت أم هاني من داخل الأسوار العتيقة، رجالا مدينيين مثلها، من تلك الأسر العريقة التي لا زالت تحمل أسماء أنسابها كما هي أصلاً، أو محرفة قليلاً، لكنها ليست غنية بالضرورة، باستثناء زوجها الأول المنتسب إلى عائلة بحرية، لا زالت إلى الآن تمتلك عدداً وافراً من المراكب والفلوكات، أما الباقون فنجار وخضار وبائع حبوب بالرحبة، ويقال بسوق الغزل.

أحتاج فقط إلى معرفة الأسماء، ومعرفة الأعمار، ومن الذي شتمها أو ضربها، ومن الذي صانها وعفا عنها، ومع من أينعت براعم الحب في قلبها، فأشرقت عيناها الساحرتين بالفرح، ومن تغلبت عليه ومن تغلب عليها، ومن تعرى لها وتعرت له، ومن أسعدته على الأقل إلى حين، لكنه لم يسعدها، رغم جمالها وفتنتها وبهائها، في تلك الرحلة الطويلة من (تزوج طلق)، وما صاحب ذلك من تجارب..

وضعت في تصوري أن أم هاني ستكون صريحة معي في ذلك المساء من نهاية الأسبوع، وقابلة بأن تسمعني ردوداً مفصلة عن أسئلتي الوقحة، ولن

أعدم السبل إلى جر لسانها، ومعرفة التفاصيل التي أريدها عن الموضوع إياه، الذي أجملته في ما بعد في فكرة أخرى: (علاقة الطلاق بالأورجازم) ..

التي تملك القدرة على جعلني أصعق من شتائمها البذيئة، حين تستفزها الأخريات ويوقدن سعير غضبها، لا يمكن أن يجرها كلام عن النوم مع رجل، أو يعيقها الحياء عن الحديث عن اللذة.

لفظة الأورجازم لست مضطرة أن أقولها لها، ستضحكها كثيراً، ولا أدري إن كانت حظيت بها أصلاً في تلك المنطقة الحساسة، ذات الثمانية آلاف نهاية عصبية، البظر، ذروة الإحساس الذي لم أعرف إليه أنا نفسي سبيلاً، ولو ببروفة قصيرة واحدة مع رجل.

سأبذل ما في وسعي على أن أتجاسر وأسألها بصيغ مختلفة، إن كانت عبرت تلك اللحظة، ووصلت إلى ذلك الإحساس الحميمي الذي لا يتأتى للكثيرات بسهولة، تلك النشوة الطاغية، التي لا تعدلها أية نشوة، المرحلة الفاصلة بين الوجود والعدم. الجنون الأخير.

ليست أم هاني المرأة الوحيدة التي تزوجت ذلك العدد من الرجال، ولن تكون الأخيرة، فهي لم تكسر القاعدة، كثيرات كن عرضة لأن يفعلن ذلك تحت ظروف قاهرة، وأخريات كن يغيرن الأزواج مثلما يغيرن أحذيتهم وفساتينهن، وفق ما تمليه إغراءات تلك الشخصيات، وبما تمتلك من جاه ونفوذ، كما يحصل مع بعض الفنانات.

لكن السؤال الأساسي: لماذا لم تستمر واحدة من تلك الزيجات الخمسة، ولماذا لم تمنح أم هاني الاستقرار؟..

الخالة لها مبرراتها، ولو أنهم جميعاً يعزون أسباب طلاقها إليها وحدها، وأنا لست معنية سوى بإثارة جانب واحد في الموضوع: علاقة الطلاق بالأورجازم، أما التعدد فلا يعني، بل أرحب بالقدر الذي أسعف الخالة، وجعل عانساً من العائلة تقول لها ذات مرة، سعدائك... أي ما أسعدك يعني!!! ويا ليتك أقرضتني واحدا..

ثم لا أدري إن كان قد طرح أحد فكرة الاستمتاع من بين أسباب الطلاق، أم اكتفى بالقول إن مزاجها الصعب هو السبب، مع أنهم يدركون أن الجنس هو الأساس، وإلا لماذا يتزوج الناس؟..

عمتي لالة سعاد قالت مكرهة لزوجها العنين:

- تبّاً لك، أنا لم أتزوجك من أجل الأكل، الأكل في بيت أبي والخير وفير، أريد رجلاً وأولاداً، أريد.....

وصمتت، لكنها حزمت حقائبها وغادرته من غير إذن، وحكت لقرباتها كيف كانت تقضي ليالي كحلة زحلة، مسهدة في الفراش، تريد حباً، تريد (ذلك الشيء)، يدّاً رجولية تشدها نحوه، لتصعد بها إلى الأعالي، لتخلق منها امرأة جذيرة بالحياة، لا مجرد جسد مهمل ملقى فوق سرير.. لكن هيهات.

لم يعتبر أحد أن ما قامت به سعاد حماقة وقلة أصل، تعاطف معها الكل، حتى الرجال من العائلة، الذين كان يهمهم كثيرًا أن يحافظوا على المظاهر، صمتوا مطرقين.. اعتبروا أن ذلك خسارة.

كل المصائب لها حلول، إلا تلك، ماذا يمكن أن نفعل، عندما يتلاشى ضجيج الحياة من الجسد؟..

قالوا مسرين لبعضهم البعض:

- لا حياء في الدين، البنت عندها حق، من يقبل على نفسه بذلك؟..
الله لا يسلط على أحد تلك المصيبة.. ماذا يتبقى للمرأة إذا ضاع منه نفسه،
آية مباهج يمكن أن تعوضه عنه؟.. لا شيء.. الله يستر..

خلاصة كتب نوال السعداوي التي أهدتني إياها أستاذة مادة الفلسفة
الآنسة سلوى، تقول إن التوافق بين الزوجين يجب أن يحصل في السرير،
والتلميذات اللواتي استقطبتهن الأستاذة، صرن يتناقشن ويقلن إن الرجل
بأنانيته سبب الفشل العلاقة، وأن الرجال لا يزالون يضطهدون النساء
بكل الوسائل، وأنه، ولو أننا في القرن الواحد والعشرين، لم تحصل تلك
المساواة الصعبة بعد، ولن تحصل إلا بالمزيد من النضال.

إنهن يستشهدن بقول كينيث ووكر، بأن جهل الرجل بجسد المرأة
وبرغباتها، والوظائف الفسيولوجية للجنس، يعني الجهل بما هو أخطر
وأهم، الفهم الإنساني للمرأة كإنسان مثله تمامًا..

غير أنني كنت أجد صعوبة في جعل أزواج الخالة البسطاء، جديرين بتنظيف كينيث، الأميون جميعاً، والذي بالكاد يفك الحرف، أولئك الذين تعلموا منذ الصغر كيف يكونون ذكوراً، وأن النساء بالنسبة لهم لسنا سوى ضلع أعوج، لا يستقيم إلا بالعصا.

استبعدتهم أيضاً من قول نشته (إن الطاقة الجنسية تمتد بطبيعتها إلى أعلى قمة في نفس الإنسان وروحه وكيانه، والرجال ناقصي ملكات في الخيال والإبداع، لذلك لا يفهمون النساء في الفراش، وبذلك حرموهن من تلبية طاقاتهن واحتياجاتهن في الجنس).

هراء.. كيف يمكن أن يسري ذلك الكلام على أي من أزواج الخالة؟.. البحري والبقال و..... من يمكن أن يفكر في تلك المخلوقات الهشة ويعيرها انتباهاً؟.. أن يأخذ مسألة احتياجاتهن بجدية، خاصة إذا كانت جنسية؟..

كل الرجال يرون النساء ضروريات لبناء البيوت واستمرار الحياة، ذلك أمر لا نقاش فيه، من سيطبخ ويكنس ويحلي وينجب ويربي، ومن ستنقلب على ظهرها في الليل، جاهزة لتلبية رغبة الزوج وإمتاعه، حتى لو كانت جسداً هامداً أضناه التعب؟..

الرجل رجل، والأنثى أنثى!!..

والدي الذي لا أحد يشكك في ثقافته الغربية، ولا في انحيازاه إلى شعار

فرنسا الخالد: حرية، عدل، مساواة، كان لا يجد غضاضة في أن يقول لأمي، حين يكون مقدماً على اتخاذ قرار حاسم يخص حياتها:

- شاوور المرأة ولا تعمل برأيها!!..

ثم ينظر إليها شامتاً وهو يضحك، غير عابئ بلباقته التي كان يضرب بها عرض الحائط، والرجل الجتلمن، صاحب la galanterie، والذي تعود أن يخاطب الأخريات بـ les femmes d' abort، وسواها من أنواع البروتوكول..

الخالة حكّت لي على مراحل أموراً كثيرة مزعجة، حدثت لها خلال تلك الزيجات، مثل تلك التي حذرتني منها بنت خالتي هدى، وطلبت مني أن أعيش حياتي، وأن أترك فكرة الزواج جانبا، لأنها لن تضيف لي شيئاً، سوى أنها ستدمرني، وتجعل حياتي مليئة بالشقاء..

كانت الخالة تستعيد بكامل الصفاء والضحك تفاصيل من ذلك الماضي، حياتها التي كانت بلا طعم مع رجال لم تختارهم، وإنما جاؤوا إليها عرضاً، مثلما تأتي الأمراض والنكبات، وما زاد الوضع سوءاً أنها لم تنجب، فلو أنها أنجبت لكانت قد غيرت حياتها جذرياً، واضطرت إلى أن تتنازل كثيراً، وتتناسى حساسيتها المفرطة، وتنشغل بالأولاد، ترعاهم وتطبخ لهم الأكلات التي تعجبهم، وتحممهم وتفسح لهم مواضعهم للنوم، وتحبهم كما لم تحب أحداً في الدنيا كلها، متحملة في صمت كل المتاعب..

حكيت لي كبداية، أنها لم تأخذ من الزواج غير المشاكل، وأن كل الأزواج ساموها ألواناً شتى من الاضطهاد، و(تكرفصوا) عليها بما يكفي، كل بطريقته، رغم أنها كانت مجرد طفلة، ولم تستثن منهم سوى زوجها الأول، الذي كان وديعاً وحنوناً، لولا أمه الشمطاء، وما كان يثير استغرابها، أن بعض الرجال من العائلة، عندما كنت تأتي شاكية، كانوا يقفون في صف الزوج.

قالت لها جدتها إنهم (يطفئون الغضب)، ولو عبسوا وغلضوا جباههم، سيثور الزوج، الرجال ليسوا مثلنا، إنهم عقلاء، يعطون لأنفسهم الفرصة لإعادة بناء ما تهدم، ولو تدخلنا نحن النساء (لأشعلناها)، نحن هكذا، كثيرات الكلام بدون لزوم...!!

ولاحت في الأفق إمكانية الاستمرار والبوح واسترجاع الذكريات، والحديث عن التجربة، لولا أن الخالة اقترحت أن نقوم إلى المطبخ لنأتي بالعشاء.

كان الوقت قد تأخر، فكبتت انفعالاتي، وتركت ذهني وحده يجري حساباته بطريقته الهادئة..



ما الذي يمكن أن يمرض الخالة على الكلام والرد عن الأسئلة؟..
ما الذي سيجعلني بعد يومين كاملين من التربص، السبت والأحد،

قادرة على فك عقدة لسانها، والاعتماد عليها كواحدة سأنجز معها في
جلستين أو ثلاث، جل ما سأكتبه للجريدة؟..

أين حصافتي وحكمتي؟.. أين حضوري؟..

قلت للخالة متصنعة التذمر:

- لو سمحت، لقد تأخرنا كثيرًا يا خالة، لماذا تلعبين بي الكرة؟.. كل
يوم آتيك، فتدخلين لي شعبان في رمضان، لا بد أن تنتهي من بوظ طاز
هذا، اليوم قبل الغد..

تطلعت الخالة إليّ بتلك النظرة المفعمة بالرجاء، وقد أحست بمدى
جديتي، وأني لا أمزح، وشدنتني عيناها قليلًا، مثلما يحصل كلما نظرت
في عينيها مباشرة، وإلى ذلك السحر القابع فيها:

- أتدرين أنني لا أفهم لماذا تسألين مثل هذه الأسئلة؟..

انطلقت مواجهة إياها:

- أخبرتك أن هذا تحقيق، شغل للجورنال يا خالة، شغل آخذ عنه
نقودًا، ألا يكفي ذلك؟..

كان على الخالة أن ترضيني، ذلك شيء مفروغ منه، خاصة وهي تنظر
شزرًا إلى كومة الأوراق التي لم أسود فيها شيئًا، وإلى المسجلة الصغيرة
ماركة سامسونغ، التي وضعتها أمامي فوق المائدة القصيرة المدورة، في
غرفة الجلوس والأكل والمسامرة.

أعرفها جيداً خالتي أم هاني، ستقول في نفسها رغم كل الحقن الذي هي فيه: طوال حياتي كانت شيماء إلى جانبي، بمزاج رائق، ابنة مثالية من الطراز الرفيع، تشعر بي جيداً، وتعرف كيف تجس نبضي، وتفهمني كما لم يفهمني أحد قط في هذه الحياة، وتقف حجر عثرة لكل من يحاول أن يمس شعرة في رأسي، فلماذا لا أكون أنا أيضاً إلى جانبها؟..

يوم السبت لم يكن كافياً لتحريك الحوار، ولا يوم الأحد، ويوم الاثنين ظلت الخالة تتخبط في الردود.

بعد أن استأذنت، وأنا أشد الرحال نحو بيت الخالة، قالت لي ماما لازمته القديمة:

- أنا لا أفهم لماذا تسكن بنت خالتي وحدها، ولماذا تختار هذه العزلة، لو فاجأها الموت وهي هناك، لن تجد من يقطر لها نقطة ماء في حلقتها.

كنت أقوم بتفقد أشياءي في حقيبة يدي، المسجلة والأقلام والأوراق، وهاتفني المحمول، بينما الوالدة تواصل مواها المعتاد:

- دائماً أغراضها وأوانيها فوق كروسة، لماذا تفعل ذلك بنفسها؟.. من يكره الصحبة والوناسة؟.. حتى القليل الذي ورثته ضيعته، كثيرة التبذير في (السقاطة)، ومصرة ألا تأكل إلا كل ما هو بلدي، الزبد البلدي، والدجاج البلدي... هل يعقل هذا؟..

كان لزاماً أن أقول أي شيء، في مقابل ما تقوله والدتي، قبل أن أتحرك ذاهبة في اتجاه البوابة:

- أنت تمزحين يا ماما، الخالة تسكن مع أحد؟.. كيف؟.. إذا أنت لا تعرفينها، ثم بيني وبينك، سكنها لو حداها فيه راحة لها وللآخرين، أما رحيلها فأنت تعرفين، دائماً لديها أسبابها التي تقض مضجعها..

كنت أغضب أُمي حين أقول لها ذلك، فكانت ترد متبرمة:

- أسبابها، أسبابها... إلى متى؟.. إلى أن تصير طاعنة في السن؟.. كل الأحياء القرية والبعيدة اكرتت فيها بيتاً أو بيتين، ولم يبق أمامها سوى القرى... سبت جزولة أو ثلاثاء بوكدره، وأظن أن ذلك هو ما سيناسبها..

كأن الخالة لم تكن طاعنة في السن بعد، بما يكفي!!..

كل مرة تتحجج الخالة بشيء، بالروائح الخانقة القادمة إليها من معامل تكرير الفوسفات، أو من مزبلة المدينة الواقعة في الجنوب، أو بالأطفال الحفاة الذين يدقون باب بيتها ثم يجرون ضاحكين، وكثيراً ما كان الرحيل يتم عقب عرس امتد حتى الفجر، بصدى أبواقه التي تحمل الغناء والضجيج، مع صياح المحرومين من الفرجة والأكل، المضطرين إلى الاختفاء في العتمة، ورجم خيمة العرس بالقناني...

تقدمت في وثبة خفيفة حاملة حقيبة يدي ومفاتيحي:

- أنسيت؟.. آخر مرة ادعت أنها تعرضت إلى (الرجم)، أعرف أنها تمتلك استعداداً عفويًا لتصديق أي شيء، لكن من يمكن أن يصدق حكاية العفاريت تلك؟..

التمتع في ذهني ذلك المشهد، تصورت أن الخالة استفرت جارة من الجارات، وتصرفت معها بغير رسة، ناظرة إليها بطرف عينها، تلك النظرة التي لا يجيدها أحد سواها، وعيرتها لسبب من الأسباب، أو شتمت أولادها وتأففت منهم ومن شكلهم، فاستخدمت المرأة معها أسلوبها الخاص..

انتظرت أن يحين الليل لترببها بطريقتها انتحارية، ففتحت نحوها من السطح، هي وأولادها في مجموعة مؤلفة من السخط والشقاوة، خطأ من الحجارة..

قبل أسبوع قالت لي أم هاني على التلفون:

- لا تذهبي إلى بيتي القديم، أنا الآن أسكن بالقرب منكم، أنا في حي بياضة، زنقة الرحمة رقم 188، اطلعي من أمام جنان الفسيان، وبعد العقبة دوري على اليمين، ستجدين عند رأس الدرب خياطاً وحلاقاً، اسألي الخياط، لقد كان يبحلق في هذا الصباح مثل نمس، قولي له الساكنة الجديدة وسيعرف، أنا متأكدة من ذلك، ولو تعذر عليك ذلك، اتصلي بي، سألبس جلبابي وأخرج إليك..

لا أعرف لماذا لا تتخذ البلدية من تل بياضة مشهداً مبهجاً، بقليل من الخضرة والبياض؟.. لو أنها عمدت إلى فرض طلاء البيوت بالأبيض، والنوافذ بالأزرق، لصارت قطعة من مدن تلك الدول المتوسطة التي تجلب السياح: اليونان، قبرص، كريت...

تل مبهج يترأى من زوايا عدة، من فوق عند بيرو عرب، حيث يبدو
المنظر أفضل، عند تلك الزاوية القريبة من بيتنا، حيث كنت أحب أن أقطعها
مشياً، سالكة المنحدر المغمور بالظلال، وبطبقات صفراء من الأوراق الميتة
لأشجار الأكالبتوس العالية.

على يميني جنان الفسيان وملعب التنس العتيق، وعلى يساري السور
الحجري العتيق لباب الشعبة، وتحت مقبرة سيدي منصور.

من الزاوية السفلية لباب الشعبة، بقوسيه الحجريين، ومن مشارف
المرسى، حيث أفران الخزف الطينية، الشبيهة بالأكوخ الإفريقية التي
يتصاعد منها الدخان، يمكن رؤية الهضبة كذلك.

حين وصلت إلى بيتها في ذلك اليوم، انتهت إلى أنه لم يكن هناك جرس،
كانت هناك ساقطة مصنوعة من النحاس على شكل كف مقلوبة إلى الأسفل،
معلقة من الزمن الماضي، طرقتها بطريقة مرحة، طاق، طاق، طاق.
ما أن رأيتني أم هاني أمامها، حتى تداعت كعادتها مستسلمة لمشاعرها
الغامرة بالحب والبهجة، وقالت لي مغردة:

- جئت يا (عمارة الدار).. هذا نهار كبير!!!..

كانت تقصد أنني أملأ الخواء في حياتها، وغمرتني بذراعيها البضين.
دائماً تفوح منها كل الروائح التي أحبها، الورد والخزامى وزهر الليمون،
وكريم نيفيا الذي لا غنى لها عنه.

لا أعرف كيف كان يمكن للخالة أن تواجه الحياة من دوني ومن غير والدتي، وأن تتقدم فيها يوماً بعد آخر، بتلك الخطوات المرتبكة التي صاحبته من زمان، من أيام اليتيم إلى الزواج وإلى الطلاق، سلسلة من الاحداث والوقائع والاختيارات، لا دخل لها فيها، حصلت هكذا فجأة، لتقلب مصيرها رأساً على عقب، وتجعلها في كل مرة تنطلق من الصفر، عائدة من حيث أتت، في رحلة العمر المكوكية، دون أن تستطيع التخلص من الخسارات والتعليقات والسخرية..

ولولم تكن تمتلك ذلك المزاج الخاص، وتلك المقدرة على التجاوز واللامبالاة أحياناً، لما استطاعت أن تتدبر أمرها، وأن تأخذني معها، قاطعة برفقتها جزءاً من تلك الرحلة، التي لونها حضوري بالبهجة، في وسط لا يرحم.

غرفتان ومطبخ وباحة صغيرة مربعة ومرحاض ودوش، هذا هو كل البيت الذي سكنته الخالة في حي بياضة، بيت عتيق أرضي لا مجال للركض فيه، ورغم ذلك ستصنع منه الخالة تحفة، ستبيض باحته وستملؤها بأصص الزرع ونباتات الظل، وباللواية التي ستسلق الجدار زاهية من غير زهور، إلى أن تستيقظ ذات يوم، فتتركها مهملة بعد أن يعن لها أن تخرج ولا تعود.

كانت رائحة العود تملأ المدخل، عود القماري الثمين الذي تعشقه أم هاني، وكانت ماما تزودها به بين الحين والحين، وحين كان ينفذ، كانت أحياناً تذهب إلى ضريح الشيخ أبي محمد صالح، لتجلس بعد العصر على

حصيرة من حصائره، مستنشقة ما أمكن من عبقه الذي كان يملأ القبة.
حملقت في الخالة قليلاً وفي بيتها الذي لم آلفه بعد، وقلت لها مازحة:
- جئت يا خالة، مبروك الدار، أتمنى أن يكون هذا آخر رحيل، يكفيك
طوافاً، دعينا نشرب شيئاً لنحلي الجلسة.

خلف السياج الشائك لعيني أم هاني الزبرجديتين، لمحت شيئاً من
الغضب كأنني عيرتها، بينما كنت في الواقع قد قلت ذلك من قلبي، راجية
ألا يتكرر رحيلها أبداً، وأن ترحم الخالة نفسها، وترحم ذلك الأثاث
المسكين، الذي كلما رتبته، عادت ولمته، وحطته على ظهر كارويلا.

جربت أن أتساءل ذلك المساء بطريقتي الخاصة، وكنت أعرف أن
ذلك من الأساليب التي كانت تحفز الخالة على الكلام، وتجعلها تسارع
إلى تصحيح الخطأ:

- قلت لي يا خالة، إن زوجك الأول كان يسمى سي عباس، أليس
كذلك؟..

قالت رأساً، وهي لا تزال مأخوذة من تعليقي، ومن رغبتني الصداقة
في أن أراها مستقرة في بيت ما:

- عباس زوجي الثالث، لا تدوخيني يا سيما، ركجي (ركزي) معي قليلاً.

تعودت سماع تلك الكلمات المنطوقة بطريقة مضحكة، اقلب وشقلب، ومع ذلك كررت:

- يا خالتي، ما هكذا نطق هذه الكلمات، صدقيني، إنك تبهدلينها.. ضحكت هي الأخرى وقالت:

- لقد فات الأوان، لن تأخذي مني لا حقاً ولا باطلاً، الذي زرعه الله نبت، هكذا تعودنا من زمان.

أمامي على المائدة صحن صغير، به حبات من غريبة الكوك وماصابان، وكعك أسفي المنقوش بالسكين، مددت يدي وأخذت كعكة، أحب كثيراً طعم الفانيلا والينسون.

كانت الأسئلة قابضة بداخلي منتظرة الفرصة للانطلاق:

- وماذا عن زواجك في الثالثة عشرة تقريباً، أو أكثر بقليل، أكاد لا أصدق.. هل يعقل ذلك يا خالة؟.. هل تزوجت فعلاً في تلك السن؟..

- هه.. ولماذا لا يعقل؟.. في تلك السن كنت قد صرت ربة بيت، امرأة يعتمد عليها في كل شيء.. كلنا كنا نتزوج طفلات، والتي تصل إلى العشرين (يهزها الماء)، تكون قد عنست و(فاتها الكلام).

لم تكن العنوسة تعني لي شيئاً بعد، ولا شغلت بالي ولو للحظة واحدة على الإطلاق، لكن يكفي أن الخالة أثارها بذلك الشكل، حتى أستغل الموقف لصالحها:

- تعنس في العشرين؟.. لماذا إن شاء الله؟.. ما هذا المرض؟..

رفعت أم هاني حاجبا وأنزلت الثاني، ثم حدقت في قائلة:

- وماذا كنت تظنين؟.. تبقى الواحدة بدون زواج إلى أن تضفر الشيب؟..

أخذت رشفة من كأس، وحدقت فيها أنا الأخرى ثم أجبتها مستاءة:

- مثلي أنا مثلاً؟..

- أووووه أووووه.. لا لا لا... أبداً، أرجوك.

رددت الخالة ذلك واضعة كفها على فمها، وقد ارتبكت بطريقة مضحكة.

ثم في نوع من المواساة، عجلت قائلة:

- هذا أحسن لك يا ابنتي، لا تغضبي، لا أحد يعرف أين يوجد الخير، أنا كنت مجبرة على الزواج في تلك السن، أما أنت، ما الذي سيجبرك على ذلك؟.. ثم إنك تشتغلين ما شاء الله صحافية في الجورنال، وتتقاضين أجرًا، فمن مثلك؟..

الأسئلة التي كنت قد أجمعتها في فكرة، وطرحتها على الخالة يوم السبت،
أحدثت لديها موجة من الضحك، وانطباعاً أرعن عني.

نظرت نحوي ثم قالت:

- بعد أن بلغت هذا العمر أحدثك عن أزواجي، وعن ماذا؟.. عن
النوم معهم في الفراش؟.. لعلك تمزحين، ثم ما هذا الجورنال الذي يكتب
هذا المسخ؟..

كنت مرتبكة لحظتها، فملت نحوها وقبلتها على خدها كإجراء مشجع،
ثم قلت:

- أنت تعرفين أنه لا حياء في الدين يا خالة، واسألني والدي..

ضحكت أم هاني متهكمة:

- أبوك؟.. سلطان الطلبة؟.. ذلك ما كان ينقصنا، أنت تعرفين، هو لا
علاقة له بالدين، يدخن ويسكر ولا يصلي، أستغفر الله، ماذا أقول؟.. هل
أنا جنت؟.. في الحقيقة هو يصوم ويزكي ويحب الخير، ربنا يهديه..

مجرد ذكر اسم أبي كان يجعل الخالة تنفعل، فكانت تنعته بنعوت كثيرة:
سلطان الطلبة، الشانت، المفر عن..

وكانت بالمناسبة، تراه شخصاً أنانياً مغرمًا بذاته، يجلس لوحده
لساعات خالي البال، لا يفعل شيئاً سوى أن يشرب ويدخن ويستمتع

إلى الموسيقى، تاركاً أمي تعاني من المشاكل، الأولاد والشغالة والولائم والتباريك والتعازي... حتى أنه كان لا يرد عليها أحياناً، مما كان يجعل الخالة لا ترى في ذلك رجولة..

مرة سألت أمي غاضبة:

- ماله هذا الشانت؟.. لماذا ينخلك يا لالة نعيمة ولا يرد عليك؟.. أما كان أجدر به أن يساعدك قليلاً بعد العودة من البنك؟..

فسألها والدتي هي الأخرى بهدوئها المعتاد ورصانتها:

- يساعدني في ماذا يا لالة أم هاني؟..

- على الأقل يتتبعه إلى الأولاد، يسكتهم، يسألهم عن دروسهم وواجباتهم؟.. يشغلهم قليلاً عنك؟..

واصلت أمي من غير تردد:

- إنه يعود من البنك متعباً، العمل في البنك يوجع الرأس يا لالة أم هاني..

احتجت أم هاني:

- وأنت ألا توجعك كل هذه التهمة؟.. ألا تتعبين يعني؟.. لو أنا منك لكنت تركت له البيت، وذهبت إلى بيت أهلي.

ضحكت ماما من قولها:

- تفعلينها وتفعلين أكثر، طبعاً، من زمان... لا تهتمي يا لالة لأم هاني، أنا (فران وقادر على حومة)... ابتعدي أنت عن ساحته، ولا تستفزيه بأي كلام، حتى لا يستفذك.. أعرفكما.. أنتما مثل القط والفأر.

لكن أبي من غير أن تستفزه الخالة أو تلتفت نحوه، كان يأتي ليسلم عليها، ماداً لها يداً مرتحية، ثم يسألها بصوت عال، بينما ابتسامته الماكرة ترفرف على شفتيه:

- كيف حالك يا لالة أم هاني؟.. بخير؟..

كانت الخالة ترتبك ويحمر خداهما، ثم تنتابها الرغبة في أن تتحداه، أن تسأله لماذا يسلم عليها بتلك الطريقة الباردة، وما الذي يجبره على فعل ذلك، إذا لم يكن يرغب في السلام عليها أصلاً أو الترحيب بها، وما معنى تلك النبذة التي تبدو ميالة إلى السخرية؟.. لكن مجرد التفكير في ذلك، كان يربكها ويجعلها واجمة.

مرة أشارت إلي ملوحة بكفها كي أقرب، ثم سألتني وهي في منتهى الغضب:

- لماذا يرفع أبوك صوته عالياً وهو ويكلمني؟.. أظنني طرشاء مثل أمه؟..

غربت شمس ما بعد العصر، وحل المغرب، فمدت الخالة يدها وضغطت على مفتاح النور، كان فوقها مباشرة ثم نبست بطريقتها العتيقة:

- مساك.

قلت لها:

- هذه الليلة سننجز كل شيء، وننتهي من وجع الرأس هذا، أعيريني القليل من التركيز، وسيكون كل شيء على ما يرام، لا تقفي كثيرًا عند الأسئلة، هي هكذا، تحتاج إلى شيء من الصراحة والبوح.

ثم انتبعت إلى أنني أهملت ذلك الشق المتعب في الموضوع، والدتي التي كان يمكن أن تعمل ضجة.

قلت لأنبه الخالة، على نحو يوحى بالحرص:

- على فكرة، أمني لن يعجبها شغلي معك، إذا ما سمعت بذلك ستغضب، سترى أنها أشياء غير لائقة تحصل بيننا، وأنني واحدة متهورة تسعى إلى أن تفضحك، مع أن ذلك ليس فيه فضيحة ولا أي شيء، سنخفي الأمر عنها إذا، أليس ذلك أفضل؟..

حصلت على موافقة الخالة في التو، كانت قد استكانت، وأخذت تهز رأسها في يأس وتصميم مرات عديدة.

كي أدفع الخالة إلى أن تحتاز الحديث عن طقوس العرس، لزمني الكثير من الوقت، وجهداً مضاعفاً إلى العودة في اتجاه الأسئلة.

كنت كأنها أطلب منها المستحيل، اكتشفت أن الزواج لم يكن بالنسبة لها سوى تلك الفرحة، فرحة الطقوس بتفاصيلها الرتيبة، الاستعدادات التي تتطلب أشهراً كثيرة، الخياطة والتطريز والتبييض وتلميع أواني الفضة والنحاس: الشمعدانات والطاسات، ثم إنزال الشبايك وتنظيفها وإعادةها إلى مفصلاتها، وتنظيف الأبواب.... كل شيء ينظف ويلمع ويحلى بانتظار العرس.

لم تكن الخالة ممة في حكيها، إطلاقاً، وإلا ما كنت سأمنحها تلك المساحة من الصمت، وأنصت إليها بتعبيرات وجهي المريحة، بينما تنزلق من خلفها صور القتل والحروب في التلفزيون.

أجبرتني الخالة على أن أنصت إليها بشغف، كنت مصممة على ألا أجاريها في حكيها، وألا أبدي أي فضول بشأن معرفة تلك الطقوس، لكن تلك التفاصيل كانت مثيرة بما يكفي، وجديدة علي، وها أنذا أتصور عرسها، وأرى الشموع والمصابيح التي تعلق السور، وأشم روائح الورد وماء الزهر، وأنصت إلى الأهازيج والأسرار..

عيسى ابن الرئيس سي الطيبي، هو زوجي الأول، كان يقطن خلفنا في درب النجارين، بينما نسكن نحن في درب الصمعة (الصومعة)، شاب

هاديء ووسيم، وذو بينية قوية، له شعر كثيف ممشط إلى الخلف، كان يسمى الفريزي، يشتغل مع والده في البحر، وله أقارب مثل النمل، وعندما جاؤوا إلى العرس، ملئوا البيت رجالاً ونساء وعجزة وأطفالاً.

عائلة والده من البحارة الذين يملكون مراكب تصطاد السمك على مدار العام، وأمه لا تقل وجاهة، فهي لالة عبوش ابنة الحاج عبد الرحمن، تاجر المون بالجملة، والوحيد المرخص له باستيراد السكر والشاي.

حين جاءت أم عيسى ومن معها للخطوبة، كنت طفلة يتيمة مدللة، فقدت والديها وأخويها في جائحات مختلفة، وبالكاد أصل إلى الثالثة عشرة أو أكثر بقليل، وكانت جدتي لأمي قد احتفلت بصيامي (البلوغ) بطريقتها التقليدية.

بمجرد ما أريتها سروي في ذلك الصباح، وكنت مفزوعة ومضطربة، ابتسمت وضممتني إليها بشدة، ثم تغنت بكلمات مرحة عن الابنة التي كبرت، والعrsan الذين سيقفون منتظرين خلف الباب.

منحتني جدتي بتلك الكلمات إحساساً دافئاً بالأمان، راح الفزع وحلت محله تلك الكلمات الرقيقة المطمئنة، ثم قامت وأكملت شغلها بوضع قدمي في المهراز الخشبي، حتى يصير بضين، كما جعلتني أنظر طويلاً في المرأة لكي يصقل وجهي..

تلك طقوس لم أكن أعرف عنها شيئاً، وها هي الخالة تضعني في الصورة،

فأكتشف كم هي عملية وجافة، تلك الطريقة الحديثة التي صارت الأمهات ينبنهن بها البنات إلى مجيء دم الحيض، ويدفعنهن إلى شراء ويلز الزرقاء أو الخضراء احتياطاً، قبل بلوغهن بكثير، ووضعها في الخزائن، كأن ذلك هو ما سيخفف عنهن ارتباكهن وصدمتهن الأولى، بعد حلول ذلك الانتقال المزعج.

لم يسبق لي أن رأيت عيسى ولا رآني، بالنسبة له لم تكن مشكلة، المناسبات كانت كافية بنقل الأخبار عن البنات وعن جماهن، وفيما إذا كن مخطوبات أم لازلن على باب الله، أما بالنسبة لي ولغيري من العرائس، فكنا نتقصى في خجل بعض التفاصيل القليلة عن العريس، من الخالات والعمات والجارات، طوله، عرضه، بشرته، شعره.... وكانت العيوب الخلقية شغلنا الشاغل، كنا نخاف أن يكون أعرج أو أعور أو أقرع، أو تتمام (متلعم)...

عند تلك النقطة بالذات انفعلت وتوترت أعصابي، إلى درجة اضطرت فيها إلى أن أقاطع أم هاني بسرعة وعصبية، وأجعلها تتفاجأ:

- اعذريني يا خالدة، هل أنتن عبادات؟.. ما هذا؟..

سألتهن غاضبة، وكأنها هي من وضعت الأساس لذلك واختارته عن قصد: كيف يمكن لامرأة تحترم نفسها أن تنام مع رجل كيفما كان، أعور أو أعرج أو أقرع، أو كامل الأوصاف لا تعرفه؟.. ثم من أين يمكن لها أن تستمد العزم والقوة على تقبل ذلك، واعتباره عادياً، وأن تحافظ على هدوئها وأدبها، ثم تترك لتتلف وحيدة في فراش غريب؟..

لم تجبني الخالة بشيء، كانت كأنها قد أزمعت تجاهلي، حتى تهدأ أعصابي...

بعثنا (العراضة) لالة حليلة في كل الاتجاهات، كانت ترفع الحمل الثقيل عن كاهل العائلة، حينها لم تكن هناك دعوات من ورق، ولا الكثير من التلفونات.

لم تترك المرأة بيتاً من بيوت الجيران والأقارب إلا طرقت، أسبوع أو أكثر وهي تلف على البيوت، حاملة قصبة في رأسها ربطة حبك ومناديل زاهية، باب باريس، منديل الرأس الكبير ذي الأهداب الحريريّة، موضوعة ذلك الزمن، قبل أن يدخل النايلون الرخيص السوق، ويقف جنباً إلى جنب مع أثواب الحرير والمليفة الثمينة.

مع وصولها كانت تطلق الزغاريد أينما حلت، ثم تجلس لتحسني الشاي وتتناول الحلوى.

- الحاجة لالة هشومة تدعوكم إلى عرس حفيدتها، مرحبا بكم وألف مرحباً، والعقبى لعندكم وعند بناتكم.

لأول مرة أسمع أن هناك امرأة كانت مهمتها أن تقوم بذلك الدور، (عراضة) تذهب إلى البيوت لتستدعي الناس.

استعدت في ذهني نماذج من الدعوات الأنيقة المذهبة، التي كانت تتوصل بها أمي، وكنت آخذها لأزين بها غرفتي، كانت كأنها تتحدى بعضها البعض

في الجاذبية والأناقة، والرسومات والشرائط..

لكن هل يمكن أن تكون تلك الدعوات، في دفء وطراوة كلمات لالة حليلة وجلهها المباشرة؟.. وتلك الأسئلة التي ستوجه إليها في تلك البيوت، كواحدة مطلعة وقريبة من تلك التفاصيل، مما يخص أهل العريس أو أهل العروس، ومن سيحيي الحفلة، الحضارات أو الشيوخ البوعنانية، المرأة المغنية الشعبية الوحيدة في أسفي، التي كانت تتقن العزف على الكمان، ولا تشتغل أبداً أمام الرجال، تأتي بفرقتها لتقيم الحفل للنساء، ولا رجل رآها إلا بعد الاستقلال، حيث صارت تعتلي عن طواعية منصات عيد العرش، وتعزف وتغني العيطة، فيجن السكارى ويرقصون فاتحين قمصانهم، وزجاجات الخمر في أيديهم، وبعضهم يهتف نشوان: يحيا التخلف!!..

إنه الزمن الكفيل بكل شيء، الزمن الذي أخذنا من العراضة والبرّاح، الرجل الذي كان يلف الأزقة والدروب، راجلاً أو على دراجة هوائية، من حي إلى آخر، رافعاً صوته كلما حل طاريء... ضياع طفل، انتخابات، مشاهدة أفلام توعوية تحارب الدبان، تعرضها البلدية في المساء على جدار، وأوصلنا إلى ما نحن فيه من وسائل التواصل المذهلة، الايميل والواتساب والاستغرام.....

ظللت أنصت وأنتظر، إيا ما كان السبب، حتى يمكن أن أنعطف بالخالة وأعود بها من حيث انطلقنا، مع أن رغبتني كانت قوية في متابعة ما تحكي.

انتهزت الفرصة في اللحظة التي أخذت تسخر فيها من الأعراس التي نقيمها حالياً، ونعنتها بالمسوخة... مجرد سبت وأحد، نكثري فيه قاعة مختلطة مخصصة للأفراح، فسألتها مقاطعة:

- ألن نتعشى بعد؟..

رفعت أم هاني شعرها الأملس إلى الأعلى، ثم تناولت ورقتين من علبة كلينيكس، وشرعت تمسح قفاها بكفها اليمنى:

- السمك على وشك أن يجهز، أنت تعرفين الطجين، شيء من الصبر.

ثم عادت وتركت خصلاتها البنية الناعمة تنسدل حول وجهها.
من أين سآتي بالصبر، ومساء آخر تتوارى ثوانيه ودقائقه واحدة تلو الأخرى، كنبضات قلب في صدر ضجر؟..

لم أستغرب لماذا لم أطرح أسئلتى، وأنهى تلك الدردشة، لماذا لم أتشبث برغبتى في الإنهاء السريع للتحقيق، لابد أن ثمة ما يدعو إلى الاستسلام، إغراء السبعة أيام كاملة، من الخميس إلى الأربعاء، وما تنطوي عليه من طقوس للاحتفال بعروس..

لو كنت ضجرة لأسكتها على الفور، لكن الحديث عن الحناء ومناديل

الحرير والعبروق والعمارية والماشطة والصفائر و(النفقة)، والأطباق المليئة بالتمر والجوز واللوز، وأحزمة الصقلي الحر من فاس، ومرشات ماء الزهر، والبسطيلة والمحنشة والمشوي والدجاج، كل ذلك ما كان من الممكن أن أطبق أذني دونه.

أخيراً أركبوا أم هاني على ظهر بغلة، ووضعوا طفلاً خلفها، وساروا باتجاه بيت العريس، بغلة؟.. يا للمفاجأة!!..

في المدن الكبرى، بإمكان العابر اليوم، أن يرى في الشارع سيارة ليموزين بيضاء مزينة بالشرائط والورود، وجاهزة لحمل أي عروس، ليلية الواحدة تكتري بمئات الدراهم، كنوع من الوجاهة الزائفة والمباهاة.

قلت للخالة التي تخاف من ظلها:

- يا إلهي!!.. أمر صعب أن تركب عروس بغلة، هل ركبتها فعلاً؟..

ضحكت وقالت مستغربة:

- يبدو أنهم أركبوني على ظهرها.. لا أذكر التفاصيل، لكنني ركبتها، في تلك اللحظة كان يمكن أن يحصل كل شيء..

في تلك الأرزقة الضيقة، التي لم تكن أبداً مليئة بالزبالة، كما هو الحال عليه اليوم، صرت أتصور الخالة ليلة (الرواح)، وهي على ظهر تلك الدابة بكامل زينتها، شاحبة للغاية ووقورة، ومتوجسة من أن تنزلق وتصاب بعاهة مستديمة.

لن أحتاج إلى الميثولوجيا لتفسير ذلك الطقس الذي يشبه اللعب الجماعي، (تقشار الحوت)، الأمر واضح، يوم الثلاثاء يجلس العروسان متقابلين في صحن البيت، وبينهما سمكة، إجراء رمزي يتم بقصبيات صغيرة، رأس السمكة تحت قدم العروس اليمنى، ثم بعدها يبدأ سباق التقشير!!..

هل هناك دلال أكثر من ذلك؟..

أسفي مدينة بحرية، كانت ولا تزال تستقي مواردها من الأطلسي، وفي زمن غير بعيد، كان أغلب سكانها من البحارة، يأكلون من البحر والبحر يأكل منهم، وما أكثر ما غرقت مراكب وسفن برجالها، وطواهم اليم إلى الأبد.

في الايام الطويلة المنهكة، كان أهل الغريق يتطلعون إلى البحر بوجوههم الكالحة التي لوحتها الشمس، أملين في ضراعة، أن يقذف إليهم الموج بأثر من آثاره، قميص، قلنسوة، فردة حذاء... هنالك حيث يتنفس، في تلك الضفاف المتسعة، ولا يوجد بالمدينة حي ليس به غرقى.

حنامينه، كان أروع من صور ذلك الصراع الأبدي بين البحر والإنسان، المرفأ البعيد، الياطر، الشراع والعاصفة، الدقل، حكاية بحار، وبالمناسبة، تلك كانت من حسنات أستاذة مادة الفلسفة التي لا أنساها، كانت هي من أمدتني بتلك الروايات، حين أحبت أن أشارك وإياها نفس المتعة، وأحب الأدب، مثلما أحبته هي أيضًا، رغم أنها تخصصت في الفلسفة..

اعتقدت أنني ربما سأتمكن من معاللة الأمور بنجاح، فانطلقت أسأل الخالدة عن مهرها، وكان في ظني أن ذلك كل ما تبقى من التفاصيل، قبل الوصول إلى السرير.

سألتها كم كان مهرها، وكم دفع فيها كل عريس بعملة ذلك الزمن؟.. مثلما يدفع جزار وهو يشتري نعجة بيضاء، ألف ريال يا خالدة؟.. ألفين؟.. هاهاها..

ذكرها سؤالي بما تسمع عن الملايين، التي تقام بها مراسيم بعض الأعراس في العائلة، والمهور المبالغ فيها، والكلفة والإسراف، وقالت إن الأعراس صارت مناسبة للتفاخر ليس إلا، واستعراض العضلات، وأنهم كانوا زمان يهتمون بالفرح، أكثر مما هم ينعنون بالماديات... ورغم ذلك قالت متباهية وهي ترد عن سؤالي:

- مهري؟.. كان أغلى ما يمكن أن يدفع لعروس، أنا لا أتباهى، كثيرات يحاولن أن يتبجحن اليوم، لكن ليس علي، إذا كان تفاح من يدي فاح، وإذا كان حبق من يدي سبق!!..

- في كل زواجائك؟..

ترددت قليلاً:

- في الحقيقة لا، كان ذلك في المرة الأولى، عندما كنت لا أزال عزباء..

- وبعد؟..

- هاهاها، لا شيء، الحلال فقط..

تابعت الخالة وهي تنأى بالكلام، عائدة إلى ذلك الماضي، مصورة كيف كانت تروح وتحجيء لذائذ الطعام في صحن الطاووس الصينية الصنع، وكيف كان الرجال يجلسون في غرف، والنساء في غرف أخرى، وكل تعزف له موسيقاه، فيغنون ويرقصون مع فرق (الشيخات) أو مع (الحضارات)...

قلت مغيرة اتجاه الحديث، وقد عن لي أن أشغل بال الخالة قليلاً، وأثبت لها أن القيم أحياناً مجرد تحاريف:

- أتدري أن المرأة في الهندي التي تدفع المهر للرجل؟.. تدفعه أحياناً مبالغ مالية، وأحياناً على شكل هدايا؟..

التفتت نحوي متهمكة:

- المرأة تدفع المهر للرجل؟.. ولماذا إن شاء الله؟.. ما ملة هؤلاء؟..

قلت:

- مسلمون يا خالة.

رفعت حاجبا وأنزلت الآخر:

- هه.. مسلمون؟.. وهل المسلمون لا يعرفون الشرع؟..

- يعرفونه، لكن العادات عندهم أقوى منه، (انه إثم اجتماعي وليس إثماً دينياً)، هكذا يقول أحد أئمتهم، اسمعي، العنوسة بالنسبة لهم تكون في أوساط الذكور، الكثيرون لا يجدون العروس القادرة على دفع ما تطلبه أمهاتهم، كمهر لهم فيبيرون.

صدقيني الخالة، كانت مقتنعة بأنني على معرفة واسعة واطلاع كبير، خريجة جامعة وصحفية، يحق لها أن تتباهى بها.. ابنتي شياء مثقفة وواعية، تقو لها هناك، في تلك الأحياء الشعبية لبعض الجارات القليلات التي تفتح قلبها لمن، حين أغيب عنها طويلاً، في رحلة سفر، فتشتاق إلي وإلى طلتي..

كنت بالنسبة لها واحدة ما شاء الله، بمقدورها النفاذ إلى المستغلق من القضايا والمشاكل، وحلها بسهولة، دونما حاجة إلى رجل..

في ذلك، هي لا تقل مباهاة عن عمتي لالة هبة، سوى أن هذه الأخيرة مباهاتها مضحكة، فعندما خطب ابنتها مارية أستاذ في الثانوي، ادعت أنه مهندس، مهندس في ماذا؟.. سألوها.. تلعثت وأجابت دون تفكير: في الفلسفة!!!..

ختمت الخالة وهي تستند على جنبها، وقد استرخت وأخذت في التثاؤب بلطف، واضعة كفها قرب وجهها، محترسة من أن يتبول الشيطان في فمها:

- أعرف أنك لا تمزحين، لكن عقلي لا يقبل مثل هذا الكلام، وبصراحة،

لو أنا منهم، كنت تركت بوزبال، ولا أسأل عن أحد على الإطلاق، لا أعرف لماذا تبحث النساء عن (خلا عشنهن)، ويركضن وراء المشاكل؟..

ليلة الرواح أدخلوني أنا و(الوزيرة) إلى غرفة النوم، ثم جاءت جدتي، وتركونا وحدنا بانتظار العريس.

رأيت السرير الذي كنت سأنام عليه لأول مرة، لمحته شزرًا وأنا أحني رأسي، ثم شاهدت خزانة الملابس والأغطية البيضاء المطرزة بالفاسي، والمخدات المختلفة الأحجام، إنه جزء من (شواري) الذي جهزته لي جدتي لالة هشومة، لكنه بدا غريبًا عني في تلك الغرفة المغلقة.

كنت في كامل زيتتي وأناقتي، بأحمر الشفاه الذي يبقى عالقًا على مدار الأربع والعشرين ساعة كاملة، وبكحلي البلدي، وبعطري الريف دور الذي يملأ خياشيمي، وبالسرتلة (الأساور السبعة) والسلسلة الطويلة والدبلون على صدري، والقرطان المتدليان إلى أسفل رقبتني.

قضيت أسبوعًا يكشطونني من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى، بالورد والحناء والعكر الفاسي والخزامى، ومضطرة إلى أن أنام كل ليلة بتلك الأعشاب على جسدي.

أنا بيضاء كما ترين، وعندما كنت أوشك أن أختنق، كانوا يقولون لي، اصبري، أنت عروس، وهذا من أجل أن تبيض بشرتك!!..

هرج الموكب المصاحب للعريس اختلط بهرج النساء بالداخل، قبل أن تقوم جدتي وتنحني نحوي، واضعة كفيها الدافئتين على كتفي، وتقول لي هامة:

- كوني عروسا عاقلة يا ابنتي ولا تخافي، هذا ما كنت أبتغيه لك، وها قد تحقق حلمي.

الوزيرة هي الأخرى هرعت راكضة خلف جدتي، ما أن أطل عيسى برأسه الملفوف في قب جلبابه الأبيض، وخطا خطوة إلى الداخل.

غصصت بالدمع، وتوقف شيء ما مثل العقدة في حلقي حين انحنى عيسى نحوي وشدني من كتفي.. لم تكن يداه دافئتين كيدي جدتي، بل أحسستهما صلبتين وباردتين، وترتعثان، بينما أنفاسه المتسارعة كانت ساخنة، كما لو أنه جاء قاطعاً تلك المسافة ما بين بيتهم إلى بيتنا، جرياً..

حاول أن يرفع وجهي ليراني، أدخل يده تحت ذقني من غير أن يكلمني ولا يناجيني، ولم يبد اهتماماً خاصاً بي، ولا قال لي تلك كلمات الحب التي أسمعها في التلفزيون.

كان متعجلاً لإنهاء تفاصيل الدخلة، غير عابئ بي، وربما كان مضغوطاً مثلي ومرتبكاً، لكن رغم كل شيء، كان لديه ما يكفي من الشجاعة والقوة كي ينجز تلك المهمة.

بمجرد ما لمسني عيسى جفلت وانطويت على نفسي، وانزلت على

السريـر، وغرست جسدي بقوة في الأرض فوق السجادة...

تشبث بقائمة الناموسية بكلتا يدي، بينما هو يتهادى في رفعي، كنت بضـة، وقد شلني الخوف وجعلني ثقيلة، فصرنا مثل اثنين يتصارعان، ولا واحد منهما بقادر على أن يتغلب على الثاني.

ظل عيسى يحاول أن يرفعني دون جدوى، وقد أحمر وجهه وزاد إيقاع تنفسه، لكن كان كأنها يهز ضلفة نافذة كبيرة، أو مصراع باب من حديد!!..

كنت أجهل الصورة الغامضة للنوم مع رجل، لا فيديوهات ولا أفلام ممسوخة مما تشاهدون اليوم، ولا قنوات تبث (ذلك الشيء)، أكثر ما شاهدناه ويدعو إلى الخجل، الأحضان وقبلات الممثلين في الأفلام المصرية.

عمتك لالة سعاد كانت قد شاهدت (أبي فوق الشجرة) عشر مرات في سينما الأطلس، دخلته مع بعض نساء العائلة، مرتديات الجلابة والنقاب، حتى لا يتعرف عليهن أحد، خاصة بعد أن شاع أن عبد الحليم ونادية لطفي ضربا رقماً قياسياً في التقبيل، وأن القاعة كانت تنقلب إلى مسرح للعد، ووالله، زووج، ثلاثة.. قبل كانت تتم مباشرة فما لفم، أما أنا فقد كنت قد شاهدته معها خمس مرات، وكانت هي من أخذتني برفقتها، ووجدت أن ذلك كان شيئاً مربكاً للغاية، و(يحشم ببلد)..

صرت أسمع طرقات مسعورة على الباب، بعد أن دخل عيسى مباشرة

وأقفل خلفه الباب، خليط من الأكف والقبضات كانت تنزل مثل مطارق على رأسي المحني، كأننا هم يريدون اقتحام الغرفة عنوة، في اللحظة التي كان عيسى قد تمكن فيها من رفعي عن الأرض، وألقاني على ظهري فوق الناموسية، وبحركة سريعة نزع سروالي، وقفز فوقني وأخذ يمارس عمله!!..

كنت أسمع في الفسحة الصغيرة أمام الغرفة، أكثر من صوت وأكثر من قبضة، أصوات نسوية بالطبع، لا يوجد بينها رجال، كن جادات حتى وهن يهزلن بالصراخ الحماسي المفتعل:

- اعطنا ديانا، باش نمشيو في حالنا.

- غريبة.. لماذا كانت النسوة يطرقن الباب؟.. وماذا كن يردن منكما في ذلك الليل؟..

تظاهرت بأنني لا أعرف أن الناس لا زالوا متشبثين إلى اليوم بتلك بالبكرة، ولا زالت العذرية مربوطة بالشرف، خاصة في الأحياء الشعبية والبوادي، وأن حكاية (الدم) تلك، لا زالت تقطع الرقاب من أجلها وتزهق الأرواح، وأنني أقرأ في الصحف والانترنت أخبارًا عن الثار، وقضايا في المحاكم، مما يجعل العروس تصطلي بنار الرهبة، حتى قبل أن ترفع الكلفة بينها وبين العريس.

كانت الخالة تحكي وهي تفتق خيوط تريكو قديم، رمادي اللون، كانت قد نسجته زمان، وقالت إنها ستبخر صوفه الممتاز في الكسكاس، وستعيد

نسخه على الموضة بسنارتيها، وأنها ستصنع منها تحفة جديدة على يديها البارعتين، كاب تضعه على كتفيها، لتدفع به عظامها في ليالي البرد القارسة، حين تجلس وحيدة تنفرج على مسلسلاتها المكسيكية والتركية المفضلة.. أنت أو لا أحد، أعد لي قبلاقي، صرخة حجر، حريم السلطان....

حررت يديها من كل ذلك، وشرعت توضح أنهم كانوا يستحثون عيسى بأن يرمي لهم (السروال).. بقعة الدم تلك، أنت تعرفين، ويا ويل التي تكون قد فرطت فيها، و(فرشت) أهلها تلك الليلة، ثم أخبرني أن بناتاً من جيلها تورطن وفقدن بكارتهن، رغم كل الحراسة والأبواب المقفلة بالمفاتيح.

كن يجدن الفرصة السانحة، كمتهورات، بأكثر من طريقة، هنالك ذكور مستعدون لتلبية الالتهاج وإطفاء الرغبات، قد يكون واحداً من الأقارب، أو شاباً من السطوح، ولأنهن لسن على دراية بشيء، فكثيراً ما كان أولئك الأوغاد بعد أن يعرفوا أنهم حبلوهن، يلوذون بالفرار، أو يتنكروا لهن غير راغبين في حل المصيبة، فالبنت المستهترّة، لا يمكن أن تصلح زوجة أمينة، ولا ربة بيت مخلصّة، ومن يستطيع أن يثق في امرأة لم تحرص على شرفها، وتخلت عن عذريتها بسهولة؟..

كانت العروس التي من غير بكارّة تطرد شر طردة، بالطريقة التي تحلو لأهل العريس، شتائم وإهانات وضرب إذا اقتضى الحال، أمام الكل، وهي لا زلت بزيتتها، الآباء والإخوة والأخوات والأصهار، والجارات وأمّهات

الصديقات، مهما علا شأنهم وموقعهم في المجتمع، يتلقون الإهانات، بل وينظر إليهم بأنهم أسرة مستهترة، لم تكن حريصة على تربية ابنتها، ولم تعلمها الأخلاق.

لم يشهد أحد طرد عريس بالمناسبة، حتى لو كان عنيانا، فقد كان يجد من يقف إلى جانبه، مقدماً له كافة التبريرات التي تغطي على عجزه، خجل، ارتباك، ثقاف، سحر أسود... وتأتي أمه لتدخله تحت ثوبها وتخرجه من ياقتها، كإجراء خرافي لتبطل له ذلك السحر، بينما يعتمد هو بكل وقاحة إلى جرح أصبع العروس، مزركشاً بدمها بياض السروال، في عرض خائب.

أما العروس (الهجالة) فتعود لتعيش راحة تحت الأقدام، متوارية في خلفيات البيوت المعتمة، حزينة ويائسة، هذا إذا لم يثار أحد من العائلة لشرفه، الأب أو أحد الإخوة، ويذبحها بسكين العيد الكبير.

قبل يومين من عرسي فحصنتي القابلة، افترعتني لتطمئن على بكارتي، كنت أكره تلك المرأة وأكره وجهها وضحكتها وتجاعيدها، وقد حصل بيني وبينها تاريخ من المعارك والحروب، ظللت أعيش تفاصيلها لسنوات طويلة، على شكل كوايس مزعجة.

أكثر من ندبة في ظاهر كفيها كانت بأظفري، لا تستغربي يا شيماء، تلك المجنونة كانت تجدد لذة غامرة في جذبي نحوها وإزالة كيلوتي، ولا أدري لحد الآن كيف كانت تفعل ذلك، وكيف تتعرف على وجود البكارة من

عدمها، وكيف كانت تنظر إلى ذلك الثقب وتتأكد من سلامته، وأنه لا يزال في الحفظ والصون، بعينها العمشاوين، اللتين لا تريا أبعد من أنفها..

كنت عاصية وعنيدة، ولذلك كانت تؤدبني بطريقتها الخاصة، ومرة صرخت في وجهها، بعد أن انتهت مني:

- لماذا تفحصيني أنا وتتركين هذا (البز قول)؟..

وأشرت إلى سعيد ابن خالتي لالة فاطمة، الطفل الذي كان يتفرج، لكنه خجل ووضع أصبعه في فمه، ووقف حائرًا ينظر نحو الأرض..

التفتت القابلة نحو جدي لأبي، وشرعت تعيد ربط طرفي منديلها فوق رأسها، وكانت بعض القطع النقدية معقودة بالطرف الأيسر:

- انظري إلى الجنية ماذا تقول يا لالة خدوج.. تريدني أن أفحص ابن خالته، أنت أيتها الحمقاء ألا تعرفيه أنه ولد؟..

جدي وضعت كمها على فمها وأخذت تضحك، ولم أفهم لماذا كانت تتآمر مع تلك المرأة الحمقاء، وتسمح لها بأن تعبث بي.

قلت لها بصوت مقهور:

- أنت لست جدي، ولم أعد أحبك..

فحظيت منها بضمة معتبرة، وقبلات حانية، وتريبتات رقيقة امتدت من رأسي إلى كتفي وأطرافي.

- لا عليك، اصبري قليلاً، كل البنات تفعل معهن ذلك..

تلك الكف هي ما كان يعيد إلي توازني وهدوئي، رغم أنني كنت ساعتها لا أفهم ما هو السر الذي كان يجعل جدتي تقبل أن تحصل لي تلك البهدلة، قبل أن أصير داخل اللعبة، وأسمح للقبلة بمنتهى الحرج والتسبيل، أن تفحصني كل بضعة أشهر، حتى تؤكد لي ولجدتي أن لا خوف علي ولا هم يحزنون، وأن بكارتي لا تزال سالمة، وأن على العريس أن يأتي وهو مطمئن..

صغار كثيرون في مثل عنت الخالة، كانوا يتلقون الصفعات في مثل تلك المواقف، عوض شرح الفروق الجسدية بين الولد والبنت.

تجنب الحديث عن الجنس شكل دائماً حاجزاً أمام الفهم، خاصة ونحن نجيب الأطفال تلك الإجابات المبهمة، ونقدم لهم معلومات مضللة عن أسئلتهم العفوية، من أين جاؤوا وكيف ولدوا مثلاً..

روسو قال: نحن نولد مرتين، الأولى من أجل النوع، والثانية من أجل الجنس..

لكن موضوع الثقافة الجنسية ليس سهلاً، خاصة أن البعض يراه ترفاً، والبعض الآخر يراه دعوة سافلة إلى تطارح الهوى.

هنالك، حيث يفترض أن تحدث مثل تلك الأمور، ويكتسب الأطفال معلومات سليمة حول الجنس، وألا يشعر الآباء بالحرج إلا بالمقدار الذي

يجعلهم يفكرون في الإجابات المقنعة، مستغلين ما أمكن هامش الضرورة والمنطق وألا حياء في العلم، نستطيع أن نشاهد تحفًا جنسية، أو تماثيل للأعضاء في الشارع، بل وصل الأمر إلى أن وضع واق ذكري، بطول سبعة وستين مترًا في ساحة عمومية كما في الأرجنتين، كجزء من التوعية في اليوم العالمي للإيدز!!..

كنت أعرف أن الخالة كانت في اتجاه أن تحدثني عن فض البكارة.. لكن تلك الطفلة التي كانتها، هل يمكن أن تكون قد عرفت معنى اللذة، بعد أن دخل عليها الغرفة عريس لا تعرفه، وحملها إلى السرير ورمها وقفز فوقها؟..

كنت مسرورة بوقاحتها حين قالت لي:

- لقد هتكني عيسى بالمعقول، وتسبب لي في نزيف، لم يبرأ منه جرحي حتى بعد أن طلقني، وصرت في عصمة أزواج آخرين، دائمًا ظل هناك دم بعد النوم.

وماذا بعد؟.. ما الذي لا زال يستحق أن يثير الفضول والأسئلة بعد الهتك؟.. الهمس واللمس والعناق والقبلات؟.. ما يمكن أن يحفز هرمون الأوكسيتوسين المسؤول عن الحب والشعور باللذة؟.. أعتقد أنني لم أعد بحاجة إلى الاستفسار عن ذلك.

رأيت كيف أحمر وجه الخالة وصار في لون الياقوت، حمرة لا علاقة

لها بالخجل، حمرة الغضب، عندما تستعاد صور مؤلمة من الماضي، حيث لا شيء يمكن أن يغير من حقيقة أنها حصلت بالفعل، ولا زالت آثارها سارية المفعول.

وصفت الخالة بحركات يديها وكتفيها، كيف كانت تشعر بالنفور من عيسى، وكيف كانت تتملص منه، وأنها لم تكن مهياة لتذوق طعم تلك القبلات، بل كانت تنقرز منه، وتمسح آثار شفثيه بكمها.

طفلة لم يكن من السهل عليها أن يعريها رجل، ويعبث بها، حتى لو أعجبته وأحبها، وتاه في تفاصيل فتنتها وعينيها الساحرتين.

- لم يكن لدى عيسى من شغل سواي، ما أن يعود من البحر ويأكل ويغتسل، حتى يغلق باب الغرفة علينا ويعتليني، صرت أترقب الليل بكره أو أدعي المرض عندما يأتي المساء، كان أقصى أمنيائي أن أعود إلى بيت جدتي لالة هشومة، وأنام في فراشي بمفردي، وألا يبقى لعيسى من أثر في حياتي..

أحبطني ما حكته الخالة، وجعلني أجري المقارنة... لا بد أننا ننعم بالحرية، نحن هذا الجيل، إذا ما قارنا أنفسنا بأمثال أم هاني، والجيل الذي قبلها، حين كانت الواحدة لا تستطيع أن تنطق باسم زوجها، وتفضل أن تدعوه (هو)، في حياء وخفر.

دقت الساعة في الجدار معلنة التقاء العقرين على سطح مينائها الأبيض

العتيق، كنا قد بلغنا منتصف الليل، وبدأ الصمت يعم الدرب، ولا زالت الأوراق البيضاء مفرودة والمسجلة فارغة، ولا أدري أي هبل منعني من التسجيل، كأن التسجيل مرهون بالأسئلة، ولا يحق لأي حديث أن يدخلها مادام ليس له علاقة بالأجوبة.

أضحكني شروود الخالة الذي أعقب تلك الدقات، فجأة أخذت تحك باطن كفها اليمنى بتمهل، وهي تحدد نحو الباب، فعلت ذلك هنيهات، ثم قبلت أناملها التي حكّت بها كفها، وقالت بصوتها المتعب وكأنها حسمت الموضوع:

- أحد ما سيعطيني نقوداً!!..

قالت ذلك جادة.. ففي المعتقد الشعبي، من يحك باطن كفها اليمنى سيأخذ نقوداً..

ضحكت:

- حسناً.. ممكن، لكن على الأقل لست أنا، شوفي غيري، نحن في السادس والعشرين من الشهر، فهمت؟.. الزلطة كما تقولين والكلب أعرج، هاهاها..

هناك فجوة بين الخالة وبين الأورجازم، الأورجازم لا يتحقق لطفلة في الثالثة عشرة من عمرها، لا تستطيع أن تفرق بين البضر والمهبل، ولا بين الثلث الخارجي وg spot، حتى لو توفرت الإثارة الجسدية والمداعبات،

هذا ما يقوله ميشيل بوزون ويقر به، من الصعب الوصول إلى الأورجازم، في السنة الأولى من الزواج، وهذا سبب كاف للطلاق.

طلقت الخالة أم هاني عملياً بسبب لالة زهرة، حماها الجنية التي كانت تندس لها في الزوايا والأركان، متخذة مظهر الترقب.

كانت على يقين بأن عروس ابنها ستفعل شيئاً أرعن ذات يوم، وتورطهم في مصيبة، أدركت ذلك منذ زمن، منذ أن بدأت تحصل بينهما فصول من المشادات والتلاسن، الحماة تحاول أن تمارس سلطتها داخل محيط الخالة، والخالة ترفض، مع أن ذلك وارد، وكل الكنات يعرفن مقدار حضور الحموات وسلطتهن وتحكمهن، ويقبلن بذلك ولو على مضض ويتكيفن معه، بل يعتبرنه جزءاً من رد الاعتبار لعائلتها ولزوجها، على أساس أنها كنة بنت الناس، بارة، وذات تربية حسنة، لكن الخالة كانت لا ترفض ذلك من باب الاستقلالية، بل كانت تسعى إلى أن تحصن ذاتها بجنوح المراهقة المتقدمة، ضد ما تعتبره حسداً وغيره، وأن أخلاقها هي ما كان يمنعها من أن تقول لعيسى مغتاظة:

- ابعد عني هذه القرودة أمك، إنها تقف لي بالمرصاد في الشاذة والفاذة، وتضايقني وتكتم على نفسي، وأنا حرة، ولا أحب أن يستعبدني أحد، ولا أن يراقبني..

وكذلك كان.

قالت الحماة لابنها ذات مساء بصوت آمر، حين كان قد عاد متعباً من البحر، وليس في ذهنه غير الخالة:

- طلق هذه الحمقاء يا ولدي، طلقها، لقد كانت ستبعث بنا اليوم إلى الحبس.

خلال سنين طويلة لم يتوقف الاستخفاف ولم يتوقف الهزل، عد الكل تلك الحركة الأكثر خبلاً وخطورة في انفلاتات أم هاني المزمنة، خاصة بعد أن علموا أنها كحلت عينها، وصبغت شفيتها، وارتدت أحلى تكشيطة في خزانها المرتبة، ثم انسلت ذاهبة إلى السطح لتتحرر!!..

رضخ عيسى لأمه، حين أوضحت له كيف لحقت بأم هاني، وأمسكتها من قدمها وهي تعتلي السور، وكادت أن تلقي بنفسها إلى الدرب ليتفرج عليها العادي والبادي، لولا لطف الله:

- ماذا كان الناس سيقولون عنا يا ولدي؟.. أننا جو عناها وعذبناها؟.. أنها كانت لا تأكل ولا تشرب ولا تلبس أحسن لباس؟.. وتصحو عند الفجر لتعمل مثل ما تعمل للياتها؟.. فأنت تعرف، أتركها تنام كما يحلو لها، وأنا التي أشتغل خدامة عندها..

لكن السؤال الذي حير عيسى وأمه، لماذا تزينت الخالة إذا كانت تود أن تتحرر؟..

صدقت الذين روجوا لذلك، وقالوا إنها بررت لجدها، أنها فعلت ذلك لأنها كانت لا تريد أن يضحك عليها البانية (رجال المطافيء)، وأنها قالت لها بكل بساطة وهي ترفع كتفيها:

- ولماذا لا أترين؟.. ماذا كانوا سيقولون عني حين يأتون لحملتي؟.. هذه امرأة مهملة لا تستحق المعاشرة، وتستاهل ما حصل لها؟..

حتى وهي ميتة، كانت الخالة تخاف ألا يفهمها أحد، وأن يظلموها، وأن يقولوا عنها ما ليس فيها، لذلك كانت حريصة على أن تجتذب تعليقات الإطراء، كواحدة ظلت لا تسمع شيئاً سواها..

أما المثل المغرض: (حتى زين ما خطأتو لولا)، الذي يعني النقصان وعدم الكمال، فكانوا يقولونه عنها في غيابها..

أنهت حكاية السطح زواج عيسى من الخالة أم هاني، غير أنها لم تنه أبداً عطف حماها سي الطيبي، وسؤاله الدائم عنها..

في المصاهرة، غالباً ما تكون مواقف الرجال تجاه العروس أكثر مرونة أو على الحياد، أو مجرد متفرجين أحياناً، هذا إذا لم يكونوا فاعلين إيجابيين بحق.

الأكثر سطوة وتحكماً وسخافة هم النساء، كأنهن ينتقمن من بعضهن البعض بطريقة غبية، الانتقادات وإثارة الأعصاب والبغضاء والغيرة والمقالب....

صدق من قال: النساء أكثر قسوة على بعضهن البعض.

سي الطيبي، الذي حافظ على العشرة إكرامًا لأهل أم هاني، كان من قادة نقابة البحارة في أسفي، وأنه كما كان يحكي جدي لأبي الحاج سلام، تزعم إضرابات ناجحة في بداية الخمسينات، وجعل ما يقارب مائة وخمسين سفينة لا تخرج إلى الصيد، وأضرب حوالي ألف من الصيادين، والآلاف من عمال التصبير، وأنه تعرض على يد المستعمر إلى التنكيل.

فور أن سمعتني الخالة أحكي تلك التفاصيل، ونحن نتحلق حول طجين سمك (بوشوك) اللذيذ، تعجبت:

- الرئيس الطيبي تعرفينه؟ .. من أين؟ .. أظن أنه مات حتى قبل أن يولد أخوك البكر فريد..

قلت لها موضحة:

- الرئيس شخصية مرموقة، وكما تعرفين، كان صديقًا لجدي الحاج سلام، وقد أراني مرة بعض الصور، ونسخًا من الجرائد التي كتبوا فيها أخبارًا مفصلة عن أنشطته ونضاله، قبل أن يجمعها ويعيدها إلى أرشيفه.

ورحت أستعرض عضلاتي أمام الخالة لأعجبها أكثر، قلت لها إن الفرنسيين نكلوا به، لأنهم كانوا يستغلون ثرواتنا البحرية، وهو ومن معه، كانوا قد وقفوا في وجههم، وقاوموهم، وأن أسفي في الخمسينات والستينات، كانت أول ميناء لصيد السردين في العالم، أو الذهب المقشر!

or ecaillé، كما كان يسميه المستعمر .

وكتحية من الخالة إلى ذكرى حماها الطيبة، ردت بشكل مهذب تأكيداً على أقوالي:

- الله يرحمها روح، كان مختلفاً عن حماتي التي كانت تتلصص عليّ، وتسترق السمع مثل سحت الليل (الخفاش).

ثم استعادت أبياتاً من تلك الأناشيد التي كان يحفظهم إياها، كدليل على المحبة والتقدير، والنظر إلى سي الطيبي كواحد لا علاقة له بحبك موضوع طلاقها من عيسى.

إيه دولة المغرب

إيه أمة المغرب

إن نعش عشنا كرااااا

أو نموووت متنا كرااااا..

جدي الحاج سلام كان صديقاً لتلك المجموعة المختلطة من الوطنيين، في كل أنحاء المدينة، لم يكن مقاوماً بالمعنى الفعلي للكلمة، لكنه كان داعماً لهم بالمال، وكان ذلك كان كافياً لإثبات وطنيته، دونها حاجة إلى لقب.

قبل أن يرحل جدي في ذلك الخريف السيئ القديم، منذ أزيد من ستة عشرة سنة، أنصت وأنا مرافقة، إلى أكثر القصص إثارة عن المقاومة، كنت

أشعر براحة وثقة وأنا أستمع إليه، كنا نتحلق حوله في الصالون أو في حديقة بيتنا، في تلك المساحة العشبية تحت ظلال الأشجار، أبي وأمي وإخوتي، والضيوف الذين يصادف أن يكونوا عندنا.. كان يبقى أسفل ولا يصعد الدرج، وكنت أنزل إليه جرياً من غرفتي، كلما جاء عندنا..

أسس جدي تقليداً جميلاً، كان يأتي ليحكي، وكانت ملاحه السمحة وبقع الشيخوخة فوق بياض يديه وخديه، والعينين الملونتين الحائيتين، والشعر الأبيض القليل في فروة رأسه، يجعله مختلفاً ووقوراً...

حدثنا بحب وإكبار، عن القاعدة العريضة من المقاومين ورجال الحركة الوطنية بالمدينة والضواحي، الحرفيون والبحارة والعمال والفلاحون والتجار الصغار، كان يعرف كيف يصورهم لنا أبطالاً خارقين، أثناء تفجيرهم للقنابل وتعقبهم للخنوة، وتهريب الرصاص والمسدسات في أماكن لا تخطر للمستعمر على البال، وفوق ذلك صمودهم الأسطوري تحت التعذيب..

قال أيضاً إنه طار من الفرع في الخمسينات، حين علم بمقتل ذلك الضابط الفرنسي، الذي سمي نفسه بالنمر الذي سيأكل المقاومة، وكان قد لقبها بالحرشة، وأدرك لحظتها أن الله معهم، يباركهم ويرعاهم.

فكرة المنظمات الوهمية أضفت المزيد من الإبهار، ابتكرتها المقاومة، وكان الغرض منها تضليل العدو، (المشقة) (اليد السوداء) (ماو ماو)، بالإضافة تلك إلى الحقيقية، (اليد المباركة) و(أسود التحرير) و(فرقة الأحرار)، وكلها كانت على استعداد للتضحية.

أين راح كل ذلك الحماس؟.. من زرع اليأس بدل الأمل؟.. من أنبت الشوك في مشاتل الورد؟.. أين ذهبت أحلام جيل الاستقلال الملونة بالآمال الزاهية؟.. لماذا لم يتحقق ذلك الوعد الذي تكرر بالمفردات نفسها، عن العشرة دراهم التي كانت ستخصص أيامها لكل فرد من عائدات الفوسفاط؟.. ألم تروج لذلك الحركة الوطنية نفسها؟..

لماذا تحلقت المدرسة العمومية والصحة والخدمات؟.. لماذا تمت الاعتقالات والتصفيات في تلك الصفوف الكثيرة من خيرة الشباب؟.. تزاممارت، عين البرجة، درب مولاي الشريف، سجن العلو، سجن القنيطرة؟.. من أذنب في حق من؟..

إنها نوستالجيا جدي، أسئلته وعواطفه الجياشة، دمه الذي كنت أراه متحيراً في عينيه المتعبتين، كلما شده الحنين إلى زمن الخمسينات، زمنه وزمن أصدقائه، ثم أسفه الشديد على غياب تلك الروح التي يعتقد جازماً أنه لن تعود ثانية.

جربت أن أسأل الخالة عن صحة واقعة الانتحار، لكن شيئاً ما كان يدفعني إلى أن أتركها خلفي، ضائعة في الزمن الضائع..



لم تطلق الخالة من عيسى بسبب حرمانها من الأورجازم، اعتبروا حكاية الانتحار المضحكة ضرباً من المغامرة التي أنهت تلك العلاقة، وأن حمايتها انتهزتها فرصة، فاصطادت في الماء العكر، خاصة أن زوجها كان على سفر، وبذلك أنهت لفظة طالق تلك التجربة، بما فيها من خبايا وأسرار، وصار أمامي أن أنشغل بتفاصيل ما تبقى من الأربع زواجات اللاحقة.

للأسف حصل ذلك تبعاً، زواجاً بعد آخر، خاصة بعد أن فقدت أم هاني جدتها لأنها لالة هشومة، وصارت يتيمة بمعنى الكلمة.

بين بيت الجدة للأب، لالة خدوج، وبيوت الخالات والعمات، تنقلت أم هاني بضعة أشهر، وصار لزاماً أن تستقر.

خلال شهور العدة، تكرر إحساسهم بأن أم هاني أمانة في أعناقهم كلهم، نساء ورجالاً، وأنهم مسؤولون عنها، ومجبرين بأن يتخذوا من أجلها كل التدابير الوقائية وكل الحرص، خاصة في البيوت التي يوجد فيها ذكور لم يتزوجوا بعد.

لم يسمح أحد لأم هاني أن تخرج وحدها أبداً، ولا أن تسافر بمفردها إلى أي مكان، كانوا باستمرار حولها، خالاتها وأخوالها وعماتها وأعمامها، مختزلين وجودها في سلسلة من النظرات القلقة، والفضول الغامض..

وفي الخرجات القليلة والمقننة، لم يكن باستطاعة أحد أن يغامر، ويسمح لأم هاني بأن تتعد عنهم مقدار خطوتين، لم يكن الأمر مزحة على الإطلاق،

هنالك نظرات الإعجاب والحملقة أينما حلت، الذين تملأ الشهوة أعينهم الوقحة، والمراوغون الذين يتعدون قليلاً، لكن من أجل نفس الهدف، الحملقة، مما كان يستدعي الاحتياط..

لحسن الحظ لالة زينوبة لم تنجب سوى البنات، وهي الخالة الرحيمة لأم هاني التي كان يغزو بيتها السلام، وقد كانت الخالة تتمتع عندها بالحياة الهادئة، وتشعر كم هي حرة وطيقة، تصعد الدرج وتنزل، وتطل من السطح، وتكلم الجارات، لكن للأسف، سمعتها ذات ليلة تقول لزوجها بوضوح، في ذلك البيت العتيق ببرج موكة، مما جعلها تبتس:

- أم هاني شابة جميلة يا سي إبراهيم، بالله عليك لو تعرف أحداً من أصحابك أو أبناء أصحابك يليق عريساً لها، سيجازيك الله خير جزاء.

ابتهل الزوج بصوته الأجش:

- الله يسهل، إن شاء الله، يكون خيرًا.

قالت لي خالتي أم هاني:

- لقد جرحت خالتي لالة زينوبة كرامتي، كانت كأنها كانت تتسول رجلاً من أجلي، مع أنني كنت قد ارتحت، ولا أرغب في الزواج من أحد، لأول مرة كنت أنام وأشبع نومًا، دون تلك الأشياء التي لم أكن أحبها، المنغصات التي تحدث كل ليلة، وأحياناً في واضحة النهار، أنت وزهرك (وغمزت لي نحو حجري تحت).. هاهاها، لكن ماذا تقولين لأهلي؟..

عندما جهزوني وأخذوني إلى عباس، لم أكن منشغلة بشيء عدا التطلع الخجل لذلك الرجل الجديد الذي صار زوجي، إلى شكله وهيئته ويديه وكلامه، مع ما رافق ذلك من توتر.

كان أربعيناً تقريباً، وكنت في السادسة عشرة من عمري، رجل وسيم مطلق مثلي، من عائلة متوسطة، يتاجر في الحبوب في الرحبة قرب قصر البحر.

كان...

توقفت الخالة للحظة عن الحكيم، حينما رأته أتأمل لبعض الوقت، باب بيتها البني المصبوغ حديثاً، كنت قد أشحت بوجهي عنها وغيرت اتجاه نظري، مستنشقة برفق رائحة البحر التي تأتي مع هبات الريح، وتنتشر في أرجاء البيت، الريح الشمالية اللطيفة التي يحبها أهل المدينة، ويغتاظون من الأخرى التي تأتي من الشرق، محملة بالغبار.

ارتابت الخالة في تلك النظرة، فقالت موضحة:

- تظنين أنني سأحكي لك عن العرس؟.. لا تقلقي، انتهت الأعراس، كان حفلاً يشبه عشاء ختان، لحم بالبرقوق ودجاج بالزيتون، وقليل من الزغاريد مع الصلاة على النبي..

ثم حكّت أن خالتها لالة فاطمة حضنتها بحنان وأمرتها محذرة في همس، تقريباً مثلما كانت تفعل جدتها لالة هشومة، اسمعي يا ابنتي، أنت الآن

كبيرة ما شاء الله، فلا تجعلى الناس يشمتون فىنا، كونى امرأة عاقلة تحافظ على بيتها بالصبر، ولا تظنى أن الواحدة منا تعيش فى العسل، كل الرجال مثل بعض، لذلك أوصيك بأن تصبرى، وثبتى قدميك فى بيتك واسعدى زوجك، لأنك إذا طلقت ثانية، لن يتزوجك أحد، ها أنا أحذرك، سيقولون إن العيب فىك!!..

قالت أم هاني ضاحكة إن خالتها كانت كأنها تسكب الماء فى الرمل، وأنها خبيت أملها على عجل، ولم تكن فى مستوى نصيحتها الغالية، ولا فى درجة تحذيرها..

ولتوضح أكثر أضافت:

- الذى يده فى الماء البارد يا شىء، ليس مثل الذى يده فى النار، وخالتي لالة فاطمة كانت توصي وتحذر وكفى، ولا يعنىها إن كنت سأرتاح فى ذلك الزواج، أم أن المصائب ستهل على فى اللحظة والتو.

تمردت الخالة على عباس منذ الليلة الأولى، كان (كلامها من رأسها)، لا من رأس أحد آخر غيرها، وأنها كانت تطبق ما يعن لها، مؤثرة رأيها على رأي الآخرين ونصائحهم، مهما أعلنوا عليها الحب والموعظة.

قلت لأستوضح:

- طيب فهمينى لماذا تمردت على الرجل منذ الليلة الأولى؟.. حتى لا ينام معك مثلاً؟..

ردت على عجل:

- أبداً والله، لحيته كانت شائكة يا شيماء، لم أحس بوخز مؤلم مثلما أحسست بذقن عباس على وجهي.

اقترب مني بفضول، بجلبابه الأبيض وأنفه الكبير، ورائحة المسك البلدي الذي يعطر به ثوبه وجسده، تطلع إلي من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، وجهي وثيابي وزيتي، ناظرًا ومبتسمًا، مثل سلعة يفحصها ليشتريها، ثم جذبني نحوه وضممني بقوة، وشرع يقبلني قبلاً تامة، أشعلت النار في وجهي.

رغم أنها كانت حليقة تلك الذقن، لكنها كانت خشنة مثل المبشرة..
تصورني أن أحداً يحك وجهك بالمبشرة!!..

استهزأت منها:

- وماذا كنت تريدني؟.. رجلاً من غير ذقن؟.. أمرد يعني مثل وجه بنت؟..

- لم تكن تلك ذقناً يا شيماء، صدقيني.

مدت الخالة يدها إلى وجهها وتحسست بشرتها، ثم ضحكت ضحكتها الأليفة وصمتت.

قلت لها:

- لو أن الأمر توقف عند علاقة الزوجات بالذقون، لطلقت كل النساء،
واصلي يا خالة، ماذا بعد القبل والذقن الخشنة؟..

قالت محاولة أن تشرح أكثر:

- لا شيء، حاولت أن أخلص نفسي منه، أن أدفعه بعيداً عني، انكملت
على قدر ما أستطيع، دفنت وجهي بين ذراعي، اتخذت أوضاعاً كثيرة،
لكن ذلك لم ينفعني في شيء، ظل يتعقبني، هو يشد وأنا أدفع، وماذا تراني
أفعل؟.. هاهاها.

لكنها لم تقل إنها انزلت بعيداً عنه، إلا بعد أن ضحكت طويلاً، ثم
توجهت نحوه صارخة:

- ابعد كمّارتك عني، ستزهق روحي!!.. ما هذا؟.. هذه لحية أم
(قرشال)؟..

تفحصت بعيني بشرة الخالة البيضاء القريبة مني، فعلاً كانت صافية
ورهيبة كورق الورد، رغم تلك الغضون والتجاعيد الرقيقة، بشرة لا
تحتمل الوز.

فجأة سألتني باهتمام:

- لا أعرف لماذا ابتلي الرجال بتلك الذقن؟.. ولماذا هم يتباهون
بها؟..

ضحكت:

- إنها الرجولة يا خالة، الرجولة، ثم دعك من الخدلة، أنت أكملت الخمسين (جاملتها في العمر)، أظن أنك في عمر لا يسمح لك بمثل هذه الأسئلة، تعقلي قليلاً!!..

تذكرت أنني كنت أظل أصرخ وأخبط بقدمي الأرض، كلما عمد أحد من ذوي اللحى في العائلة، بتمرغ وجهه فوق وجهي وأنا طفلة، كان ذلك شيئاً صاعقاً بالفعل، ويترك بقعاً حمراء وحكة.

قلت معاتبه:

- لكن يا خالة من الليلة الأولى؟.. أما كان يجدر بك أن تصبري قليلاً؟.. أنت تعرفين أن الخشونة من شيم الرجال، أما أن تقولي له (كمارتك)، وأنتما لا زلتما عروسين، فذلك صعب.. ولو كنت أنا مكانه لكنت طلقتك في الحال، وجعلتك تخرجين من بيتي ومن حياتي، عائدة بمفردك إلى أهلك في ذلك الليل.

ردت براحة:

- يا ليته فعل، وتركني أذهب إلى حال سبيلي، لكن للأسف ظللت في عصمته ستة أشهر، من شعبان إلى محرم.

- ستة أشهر؟.. ياااه.. كل هذه المدة الطويلة!!..

قالت الخالة وقد التمتعت عيناها في هزء:

- اسخري، اسخري، أنت لا تعرفين شيئاً، وماذا لو قلت لك إنها لم يكن فيها يوم واحد (يحمر الوجه)، وأنها كلها كانت مجرد نكد في نكد.

- في الفراش يعني؟..

اعتدلت ومضت تقول في صوت ثابت:

- في الفراش وفي غير الفراش، في الأسبوع الأول تصرف معي وكأنه لم ير امرأة في حياته من قبل، ولا مارس ذلك الشيء أبداً، تصوري!!.. كل ليلة يعلق لي رجلي، مرة، مرتين، ثلاثة... مع أنه كان قد تزوج من قبلي اثنتين..

قلت لها محرجة إلى حد ما، لكن ضاحكة:

- جميل جداً.. هذا ما نريده.. وبعد؟..

- بعد ذلك ظهر على حقيقته.

نظرت إلى عينيها اللتين كانتا فيروزيتين في تلك اللحظة، متناسبتين تماماً مع لون قميص نومها القطني وقلت:

- دعينا أولاً في الفراش..

وسألتها إن كان ذلك يعني أن عباس كان ممتعاً، قصدت هل أمتعها بما يكفي، وجعل النوم معه في سرير واحد ذا بهجة وحبور..

حركت الخالة كفها الجميلة، وقربت أطراف أصابعها من وجهها وأشارت نحوي بسبابتها البضة وهي تضحك:

- أنت مثله، لا تفكرين سوى في (ذلك الشيء)، أعرف، لا يهمك أي شيء آخر، لذلك سأتيك من النهاية، لقد كان لا زين لا محيء بكري، لم تكن هناك غير المنغصات.

- يعني؟..

انقلب مزاج الخالة بسرعة، وتطلعت إلى بعينين مستاءتين، إنها عاداتها حينما تختار أسهل الطرق للتملص من موضوع لا رغبة لها للحديث فيه:

- إن تابعت على هذا المنوال، فسأقوم لأنام، أنا لا أحب مثل هذا الكلام.

ألا تملك امرأة حق الكلام عن الجنس، مثل أولئك الرجال الذين يتباهون بتجارهم وعلاقاتهم، وحتى بنومهم مع زوجاتهم؟..

ماذا سيكلف الخالة إن كانت قد قالت إنها استمتعت ذات يوم في الفراش، أم أنها ظلت رهينة إرضاء الزوج وتلبية احتياجاته، دون أن يكون لها نصيب من الحب؟..

لن تحتاج إلى أن تفكر في شيء، وفي ما إذا كنت سأرى في صراحتها

وجهرها بمكنوناتها، مجالاً للشك في أخلاقها..

أنا أكثر واحدة تتفهمها وتتفهم صراحتها ونزواتها الطيبة، وإنني بالمناسبة لا أجري تحقيقاً فقط، بل أفتح أمامها بالمناسبة المجال للبوح، وأدعوها إلى إفراغ ما في صدرها..

هنالك من تملك الشجاعة الكافية للحديث عن ذلك، وهن قليلات، في الغالب نساء من طينة أخرى عشن تجارب مختلفة، عاهرات مثلاً ممن شردهن الزمن، وانتهى بهن في مواخير تراب الصيني أو مواخير بوسبير بكازابلانكا، جاهزات للزبائن، وللجنود الفرنسيين الذين كانوا ينقلوهن إليهم، إلى حيث البابورات الراسية في عرض البحر.

لم تستطع الخالة أن تتأقلم مع أسئلتي، ولم تكن مرحبة بها، ولذلك حسمت الأمر بتهديدي بأن تقوم وتركني.

عباس لم يكن خشن الذقن فقط، بل لم يكن كريماً ولا نبيلًا مع الخالة، وكانت تنقصه الكثير من القيم الرجولية التي تغري النساء..

كان بخيلاً ومقتراً بشكل يستفز الأعصاب، والخالة لم تتعود على ذلك، ولا كان لها في الحسبان أن رجلاً سيدخل المطبخ ليضايقها، ويحصي عليها أنفاسها، يدخل عالمها الذي تعرف كيف تديره عن جدارة واستحقاق.

كان كلما سمع صوت الحنفية مفتوحاً، يأتي مهرولاً:

- إنك تضيعين الماء أيتها المخبولة، أنت تسكين الماء العذب في المجاري!!!..

لم يكن الماء كل هممه، الكهرباء أيضًا، كان يعلق في الغرف مصابيح صفراء كثيفة من فئة عشرين واطًا، مما يدخل الغم على القلب، ويتشعل من بين يدي الخالدة أواني الألمنيوم، كلما رآها تجليها بالجنس والصابون البلدي، صارخًا في وجهها:

- اتركيها، ستهرينها، تحكينها كل يوم كأن فيها الجذام.. أنت مصيبة، هذه المواعين لن يمر عليها شهر معك حتى يضربها الله، وأذهب لأشتري سواها..

ثم ينترها من يدها ويعلقها بعيدًا عن متناولها في العلية.

مرة وقف إلى جانبها في المطبخ، وسألها إن كانت ستلقي برأس ديك في المجلى.

نظرت إليه كواحد متحذلق وسخيف، ثم سألته وهي تضع الرأس فوق الأحشاء:

- وما الخطأ في ذلك؟.. لماذا لا أرميه بالسلامة؟.. أين سأضعه؟..

قال لها في شكل من الإجحاف:

- ضعيه مع اللحم واطبخيه، هل الديك حلال ورأسه حرام؟..

مجرد التفكير في اقتراح عباس، أصاب أم هاني بالمغص لمدة شهرين.
أطارت الخالة صواب عباس بهوسها، كان كلما فتح الباب، يسمعها
تردد لازمتها اليومية:

- الماء الساخن وفوطة الرجلين عندك، ضع بلغتك المغبرة عند المدخل،
ولا توسخ لي الدار.

كان عباس منصاعاً للخالة في الايام الأولى، عندما كانت تقف في
مواجهته بصحن البيت، ناظرة إليه بكل ذلك البياض والألق.. متحملاً
عبء تصرفاتها..

امرأة حباها الله بالسحر، حتى أن معظم النسوة، كن يتمنين لو أن الحظ
حالفهن ووهبهن مثل تينك العينين الساحرتين، وذلك الجسد المتناسق البديع،
وتلك الضحكة، والشعر الأشقر الذي ينسدل طويلاً ومسترسلاً..

كانت الواحدة منهن تتصور أنها ستقيم الدنيا ولا تقعدها تيتها وعجرفة،
وأنها لن تعرف البؤس ولا الضنك، والزوج يمكن أن يكون عبداً تحت
تصرفها وغاسل أطباق، فتركب وتدلي رجلها.. وتصير الآمرة الناهية،
مثل أم السلطان في الحريم..

لكن بعد شهرين أو ثلاثة، لم يعد عباس يعنيه ذلك الجمال، وصار في
وسعه أن يراه فارغاً من المحتوى.. دمرت الخالة ذلك بطريقتها المملة في
الإلحاح، ثم أنهتها بالضربة القاضية..

بدون استشارة عباس ولا طلب الإذن منه، خرجت الخالة ذات ظهيرة باتجاه ضريح سي الطاهر بل الكبير، المدفون بقصر البحر.

تصورت أن ساعة واحدة تكفي لتجدد نشاطها ثم تعود، تدثرت بحايكها الأبيض الناصع، ووضعت نقاب المسلمين المطرز، وقالت مع نفسها، ستضرب عصفورين بحجر، تزور الولي الصالح وتدرش قليلاً مع (الحفيدة)، وإن صادفت بعض القريبات بالداخل فذلك أفضل، ثم تغتنمها فرصة لتسرح ببصرها في البحر، فترى البواخر والمراكب وهي تمضي أو وهي تعود، هائمة في معيشها اليومي..

ولو أخبرها أحد أن ذلك المبنى الذي يوجد به الولي الصالح، بناه الاستعمار البرتغالي في القرن الخامس عشر، وأن به قاعة واسعة مخصصة للتعذيب، تعذيب إخوانها المسلمين والتنكيل بهم، لكانت غيرت رأيها، ولعنت سنسفيل أجداد من دفن ذلك الولي في تلك القلعة.

لم يكن جنب قصر البحر مجال لرؤية المزيد من الرمال الذهبية، كما هو الحال في البلايا الموجودة قرب المرسى، تلك الرمال الفريدة في صفرتها ونقاؤها، هناك صخور كبيرة، تغطيها الطحالب ومئات المحارات من كل نوع، أكثرها غزارة (كديرة البحر)، بشوكها المسنن الذي ينغرس في الأقدام.

الخالة وجدت نفسها فجأة أمام جمل، كأن القدر رتب لها ذلك المقلب حتى يفضحها... تلك الدابة المرعبة التي يأتون بها إلى المدينة، وعلى ظهرها الحبوب

وأغصان الرتم، الوقود الأخضر المستخدم في الأفران والحمامات..

ألا يقولون إن الرياح تسير بما لا تشتهي السفن؟..

بين باب البحر والضريح والرحبة، مسافة قصيرة يقطعها العابر في لحظات، يعبر سيدي بوالدهب، ثم درب البحر ودرب سيدي بوعزة، ثم يصير هناك..

أسرعت الخالة الخطو محمرة الوجه وهي تكابد الهلع، ملتفتة إلى الجمل بشكل طائش، لتصعد المرتفع بالخطأ، وتجذ نفسها عند مدخل سوق الحبوب، تمامًا خلف قصر البحر.

وأول رجل صادفته مقرفصًا أمام مكيال، تمسكت بكتفيه وتمتمت مذعورة:

- انظر يا سيدي إلى هذا الجمل يتبعني!!..

ارتفعت سحابة قاتمة أمام عيني الرجل، بعد سماع الصوت الخائف الذي يطلب العون، إنه صوت الزوجة أم هاني ما في ذلك شك، زوجته التي تركها في البيت.

انفض عباس كالمسوع، والتفت نحوها مذهولًا:

- أنت!!.. ماذا تفعلين هنا؟.. وما الذي أخرجك من بيتك؟..

قام عباس يمشي أمام أم هاني وهي تتبعه، ثم بعد مسافة صار يمشي

خلفها، ولم ينتظر حتى تصير بداخل البيت لكي يوجه إليها لكمات في ظهرها، انتهز الفرصة في الأزقة المعتمة، وفعلها، بينما هو يغتمم بحقن مكلما نفسه.

قالت الخالة وهي تربت بكفها اليمنى على كتفها اليسرى، وكأن عباس قد عاجلها بتلك الضربات في تلك اللحظة بالضبط.

- الحلوف قبضتاه كانتا قاسيتين كالحجر.

طلق عباس الخالة بالثلاث، كان خروج الزوجة من غير إذن في ذلك الزمن، يعتبر خطيئة، ولو كان منصفاً وصاحب ضمير، لكان قد سامحها، فالخالة لم تفضحه حين عاد إليها ذات مرة مطلياً ببرازه، بعد أن قضى ساعات يجتسي الخمر مع أصدقاء قدامى، تحت شجر مغبر بمقبرة سيدي بوزكري.

عرت الخالة مؤخرة عباس وحشرته بالمرحاض، وكشطت عنه الخراء باستعمال التيد وفرشاة الغسيل الخشنة. كانت شابة قوية، فقالت له غير خائفة لعلمها أنه إن سمع سينسى:

- أيها العيفة، ما دمت لا تقدر على الشرب، ما الذي أخذك إليه حتى تعود إلي هكذا، مرمداً مثل كلب!!..

ثم دخلت غرفة النوم وأقفلتها عليها، وتركته ينام متنعّجاً بمفرده في الصالون.

لم يحز في نفس الخالة أنه شرب وجاءها مطلياً ببرازه، بل كانت مرعوبة أنه سكر في تلك البقعة المقدسة التي يحبي فيها البحارة حفلاً دينياً كل عام..

قالت في نفسها، هذا الرجل سيصبح كافراً، فهذا هو يستهين بسيدي بوزكري سلطان الصالحين!!..

أولياء ووليات بلا حصر يتوزعون في أرجاء المدينة، وربما عدد الولايات أكثر: لالة أم علي، لالة هنية الحميرية، لالة شتية، لالة صفية، لالة ميرة..... عالم من البركات موزع على شتى العلاجات: الأمراض الجلدية، أمراض العيون، الجعرة، العنوسة، الاكتئاب.... كل تلك المقامات حظيت من الخالة بزيارات متكررة، زيارات كان يتهكم منها عباس.

قال للخالة في الصباح:

- من هو سيدك بوزكري هذا حتى أخاف منه؟.. وماذا يمكنه أن يفعل لي؟.. إنه بشر مثلنا، وقد مات وشبع موتاً من زمان..

لم يسبق للخالة أن سمعت أحداً يجدف ويقول كلاماً مرعباً مثل ذلك، فناولته القهوة المرة، التي تزيل الصداع وذكرته قائلة:

- ألا تسمع الناس يغنون: قوموا يا البحرية، قوموا برايسكم، قوموا يا البحرية، قوموا للفلايكم، سيدي بوزكري سلطان الصالحين؟..

لم يتركها تكمل، فقاطعها متهمًا:

- أولئك حمقى مثلك، مهاييل، ولو كانت عندهم ذرة عقل لما تغنوا بذلك.

طن ذلك الرد في رأس الخالة مسببًا لها الصداق:

- أنت وحدك الذي تفهم، أليس كذلك؟..

رفع رأسه نحوها مستنفرًا:

- طبعًا أنا وحدي الذي أفهم، أم أنت لك رأي آخر؟..

فجأة طلع جنون الخالة على عباس، استفزتها تصرفاته وكلامه، موقفه المفاجئ من الولي، فلملمت ذيل ثوبها استعدادًا للركض، بعد أن قررت أن تواجهه:

- لو كنت تفهم لما تغوطت على ثيابك أيها السكير، انتظر، سوف ترى ماذا سيفعل بك سيدي بوزكري.. سيطيرك إن شاء الله!!..

أظلمت الدنيا في عيني عباس، فقام على عجل، ولحق بالخالة مستخلصًا منها دينه بسلخة معتبرة..

استعمل كفيه أولاً، ثم بلغته القديمة حتى هراها على ظهرها، ظلت

بسببها طريحة الفراش في بيت خالتها لالة فاطمة لعدة أيام، تتكلم بصوت خفيض، وهي تحاول أن تشرح لها أسباب تلك الطريضة التي أكلتها في ذلك الصباح الباكر، والتي تركت بقعاً زرقاء على لحمها، أعقبتها كلمات كالرصاص:

- أنت طالق.. طالق.. طالق.

اشتكت أم هاني من أنه لم يكن يوجد أحد لـ (يفكها) أو يمد لها يد العون، وعزت ذلك إلى حظها الأسود وإلى يتمها، بينما هي تلتهم بشهية أطباقاً من الطعام والحلوى، تقدمها لها خالتها لالة فاطمة، مصحوبة بتعزيات لها، وبسيل من الشتائم لزوجها الفظ غليظ القلب.

تم ذلك في درب بوجرتيلة، في غرفة الخالة الجانبية ببيتها هناك، حيث كان بإمكانها الحديث طبعاً، والشكوى والشتم، دون أن يسمع أحد شيئاً، أو يراها وهي منهكة على تلك الحال.

لماذا لم يشفع كل ذلك الجمال للخالة أم هاني، ويجعلها تعيش سعيدة؟.. لماذا لم ينزلها منزلة الأثيرات ذوات الحظ المبتسم؟.. لماذا لم يهدئ من روعها، ويمنحها حياة مترعة بالأمل؟.. لماذا لم يصنعها في بيت مريح، فيه كل ما إمكانيات البيوت المرفهة، التي تليق بالجميلات؟..

يجمع الكل على اعتبار الخالة فلته قلما يجود الزمان بمثلها، أنثى بحق تستدعي الغزل، وكم هو شاسع الفرق بينها وبين الجميلات، اللاتي كان النخاسة يخطفوهن من الحقول في القرى، ويبيعوهن في الأسواق.

الخالة لو عرضت للبيع ستساوي وزنها ذهبًا، وبالمناسبة أم هاني ليست وحدها الجميلة، هناك خصمات لدوداتها لها في العائلة، وبين الأصهار والأقارب، منهن الشقراء والحنطية والبيضاء، سيدات قديمات ولدن قبل الحرب العالمية الثانية بكثير، ولهن أسماء نادرة: أم العيد، خدة، باشا، التايكة، منانة....

وكلهن من غير هفوات خلقية، لكن لا واحدة منهن مثل الخالة أم هاني.

السر في تفوق الخالة، جاذبيتها المهيمنة. السطوة تأتي من تلك العينين الزبرجديتين، والأنف الممشوق والشففتين الورديتين والخدين المكورشين، والرقبة العالية والأسنان التي مثل اللؤلؤ.

مثل هذا الوصف يبدو عاديًا، وينطبق على العشرات من الجميلات، لكن في تلك العينين اللتين تجمعان بين الأخضر الفاتح والبني الذهبي، ولون شعرها العسلي الميال إلى الشقرة، وحاجبيها المرفوعين إلى الأعلى، ما يعطي خلطة خاصة من الملامح المثيرة.

إنها من هنا وهناك، خلطة بشرية جاءت من مسرح التاريخ، تجمع بين

الأندلس ودماء أخرى من أسفي، عبودية ودكالية وربما حمرة أيضاً..
قلت لها مرة، وأنا أتأملها بنفس الإعجاب الذي ظلمت أكنه لها منذ
الصغر:

- تعرفين يا خالة؟.. لو كنت ممثلة لقضيت على الكثير من النجمات،
أنت جميلة أكثر من أية ممثلة عرفت في حياتي.

وكان بودي أن أقول لها إنها يمكن أن تكون قنبلة إغراء، خاصة لو أتيح
لها أن تقف أمام الكاميرات، مرتدية تلك الفساتين السوداء الشفافة التي
تحدد الجسد، وتكشف عن الساقين والنهدين وكامل الظهر، مثل فستان
ديانا الرائع، المسمى (فستان الانتقام)!!..

لم أكن لأمزح، لا أستطيع أن أرى ماريون كوتيار ورومي شنايدر وميريل
ستريب، دون أن أستحضر وجه الخالة الجميل وقوامها الرائع.

أخبرتني أم هاني بدورها وبطبيعية شديدة، أنهم زمان، كانوا يقولون
لها إنها تشبه فاتنة المعادي وزبيدة ثروت.

نظرت إليها قليلاً ثم سألتها بصدق:

- من هي فاتنة المعادي وزبيدة ثروت؟..

أصيبت الخالة بالحيرة.

- إنها ممثلتان مصريتان بعيون ملونة، لو شاهدتها في (ليلي بنت الشاطئ)

و(دليلة)، لقلت الخالق الناطق أنا...

تخيلت لماذا كانت الجدة لالة هشومة، مثلما حكّت أم هاني، تصر على أن تسر لها في كل مرة، وهما تمران من أمام مقبرة سيدي منصور، المقامة أسفل بيرو عرب:

- انظري يا ابنتي، نصف هذه الروضة مات أصحابها بسبب العين، وأنت من مواليّد سعد السعود، وهؤلاء مندورون بأن (تشد) فيهم العين، ولا تنسي أيضاً أن شجرة العائلة حلوة..

ثم علمتها كيف تخمس، وتقرأ الآية الكريمة في صمت: (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فهم لا يبصرون)، وألا تترك الشريفة العمارية تحمّل فيهما طويلاً، وإذا ما لمحتها عليها أن تتسلل على الفور مبتعدة، فقد شوّطت (احرقت) تلك المرأة فدائماً من الزرع الأخضر في أمزوغن، بمجرد ما نظرت إليه بعينيها الخطيرتين.

- والّاو، كم هي فاتنة هذه المرأة!!..

إنها نسخة من إبداء الإعجاب، كان كل من كان يراها يقول عنها ذلك..

مرة جاء ذلك الإعجاب من رجل من الأصهار يدعى قدور، كان له شكل مالك (كوريات) لتربية الدواجن، أو مستثمر في الماشية.

أدار قدور رأسه بخفة، وأعطى ظهره لزوجته التي تبرز مؤخرتها من القفطان، وشرع يسأل باندفاع قريبه الجالس إلى جانبه:

- من هي هذه المرأة، لقد حمقتني، لم أجمالاً ولا بياضاً مثل هذا.

لم يستطع أن ينزع الرجل عينيه عن أم هاني عندما رآها لأول مرة، تملأها من فوق إلى تحت، وهي في قفطانها المخملي، بشعرها الأملس الطويل ونهديها المكورين وساقها البضين، وقدميها الورديتين..

وحين صار في نقطة اللاعودة تقريباً، وبعد أن ألمه شيء أعاد السؤال بطريقة متلهفة:

- أتعرف من هي؟..

قال له قريبه معلّقاً بأسلوب ركيك:

- يبدو أنك (اتزعطت) فيها.. هاهاها، في الحقيقة لا، اسأل أصحاب الحفل.

ابتكر قدور كذبة سخيفة حين علم أن الخالة الشابة مطلقة، ادعى في حماقة بعد أيام من رؤيته لها أنه (ضربها)، أي نام معها...

قال ذلك سرّاً لرجال تافهين مثله، لكنه لم يجرؤ على التفوه بادعاءات مثل تلك، أمام رجال محترمين، كان يدرك أنه سيتهي الأمر إلى أن يبصق أحد عليه، أو يتلقى لكمات على وجهه، فالخالة معروفة أنها (نقية)، وبعيدة كل البعد عن ذلك الهراء.

لكن من لا يرى الخالة ولا يفكر في المعاكسة؟..

غير أن الخالة لم تتزوج ولو لمرة واحدة بتلك الطريقة، كأن يدمن أحدهم مطاردتها خلسة، ثم تتحول المطاردة إلى نوع من العشق...

للأسف ظلت الوساطة هي الطريق الوحيد لمجيء الخطاب.

لكن لم أكن أتصور أن المعاكسة يمكن أن تكون أسلوبًا يتطور ويرقى، مثل باقي الأمور الأخرى، كالأكل والشرب والألبسة، لذلك عندما سألت الخالة إن كان الرجال زمان يعاكسون النساء، ضحكت وقالت:

- المومسات هن من كن يتعرضن للمعاكسة، وكن معروفات، يكفي أن ترفع امرأة حايكها مقدار نصف شبر عن قدميها، وتفسح المجال لرؤية سرواها المطرز، فتكون تلك إشارة ضمنية للتعريف بمهنتها.

وحكت لي كيف كان (الصياد) يسبقها حذرًا بخطوات إلى الأمام، ثم يلتفت إليها غامزًا، وهو يميل رأسه أو طربوشه، وذلك دليل على أنه يريدّها، ولو جاءت يده في يدها، لسبب من الأسباب، كان يحك بلطف باطن كفها بسبابته.

ولأجل رفع اللبس أضافت:

- لكن لا تنسي، النساء كن قليلات التحرك في الأزقة والشوارع، مرت سنين كثيرة قبل أن يتاح لهن أن يخرجن أكثر من اللازم، غير مخفورات بالرجال، ويتجولن وحيدات في القيساريات... لم تكن الدنيا هكذا أبدًا.

ورحت أنصت إليها وهي تحكي عما رآته منذ يومين، الولد صاحب العرف الأصفر المصبوغ بالأوكسجين، الذي كان يصرخ بأعلى صوته ليقول لبنت من بعيد، واللقح.....، دون أن يعرفها، وجوقة الشبان التي تضحك من حوله، وعن الأحجار الكبيرة التي كانوا يرمون بها نحوها.

كان غضب الخالدة يتصاعد، كلما فتحنا موضوع المعاكسة، وشباب اليوم القليلي الحياء، والمصائب التي تراها بأمر عينها..

قالت وهي تنزل من السرير للذهاب إلى التواليت:

- أعود بالله، الناس زمان كانوا على خلق، لا أحد كان يمكن أن يؤذي امرأة في المعاكسة، كل شيء كان يتم باحترام!!..

ولكي لا أثيرها، لم أحدثها عن الفقر والجهل والامية، لأنها ستقول لي لا علاقة لذلك بالتربية، وأن الناس زمان كانوا وكانوا..... والكارثة أن البنات في الأحياء البعيدة، صرن في هذه الأيام يخرجن مصحوبات بأفراد من العائلة، لأن هؤلاء المتحرشين انتقلوا من استعمال الحجارة والكلام النابي، وصاروا ميالين إلى استعمال السيوف.

بقدر ما يكون الجمال نعمة فهو نقمة، تلك هي الخلاصة، وقد علمتنا الحياة التي تحتفي بشخص ما، خصوصاً لو كان امرأة، فتهبها الإشعاع والبريق كماسة نادرة، وتجعل من ملامحها وتفصيلها الجسدية المغربية، حضوراً طاعياً يسر العين، أنها من السهل ألا تتسع لأحلامها وآمالها،

وأن تحرمها بالمقابل من الطريقة الفذة، التي تستطيع أن تعيش بها غير مهمومة ولا مكدرّة.

الخالة منحتها الحياة الجمال، لكن منحتها بالإضافة إلى ذلك، طبعًا مشاكسًا وروحًا مفعمة بالعبث، ليس عبثًا بالمعنى الشائع، بل شيئًا من الالتياث الذي يدعو إلى التبرم، ومع ذلك فهو يثير التسلية.

خليط عجيب من ردود الفعل والمقدمات المبهجة، واستعداد طبيعي لتصديق أشياء لا يمكن أن تصدق، مما دفع البعض إلى القول عنها: إنها (خبز الله في طبقه) ..

ولولم تكن كذلك، لما رشّت على نفسها، هي المجنونة بالعبور، والتواقة إلى الأناقة والترف، من بخاخ منوم فوري للدفاع عن النفس، اشتراه حفيد ابن عمها من أمريكا.

راقها حجم العبوة وشكلها، فوجهت الثقب نحو وجهها وضغطت، فسقطت رأسًا في النوم. عادت ربة البيت من الخارج، فصاحت مرعوبة بعد أن وجدت راقدة على البلاط في غرفة الولد:

- قومي يا لالة أم هاني، قومي، ماذا حصل لك؟ .. لماذا هو وجهك أحمر بهذا الشكل؟ .. ولماذا تنامين على البلاط؟ .. أنت مريضة؟ ..

امرأة جانبها الحظ لسنين طويلة، وواجهت صعوبات من غير حصر، وتعودت أن تطرف بعينيها الزبرجديتين كلما صدمها موقف مزعج،

أو اعترضها عارض مشحون بالعداء، حتى صار عندها ذلك عادة، عادة أن تطرف بعينها طويلاً، كأنها تريد أن تفهم لماذا يحصل معها ذلك، لماذا يؤدي الآخرون مشاعرهما، ويجعلون وجهها الأبيض الجميل حزينا للغاية؟..

يذكرني حال أم هاني بحال أولئك الحسناوات التاريخيات، اللواتي تعرضن للشر، ولم ينعمن بالحياة الجميلة التي يستحقنها، ملكات وأميرات وغانيات، زنوبيا، شجرة الدر، مارلين مونرو...

هكذا تسرب النحاس إلى حياة أم هاني، حاملاً معه كرهاً مجانياً، وغيره من بعض لا يملكن مثل جمالها، وقصصاً تحكى وروايات ملفقة، وإشاعات، واستفزازاً يكون أحياناً لله في الله كما يقال.

قريبته لالة حبيبة، التي كانت تحبها الخالة كثيراً، لأنها تتمتع بمواهب رائعة، التريكو، الخياطة، التطريز... تلك المرأة التي لم تتعلم في المدارس، ومع ذلك تحفظ الكثير من السور القرآنية وبعض الأناشيد والأشعار، وتصر حاثثة المعزين على يرددوا عند خروج النعش: نادى الرحيل بالفراق هل بعده تلاق.. شاءت مرة أن تمزح مع الخالة وهي ضيفة عندها:

- آه عليك يا لالة أم هاني، كم كنت عفريته وأنت شابة، وياما عملت من (زبايل)، هاهما، أذكرين؟.. لن أنسى حكاية طلاقك من عيسى، عندما تزينت وارتديت تكش.....

لم تفهم الخالة الأمر على الوجه الصحيح، تصورت أن القرينة الطيبة

انضمت إلى شلة المتعبات، فقاطعتها على الفور:

- الزمي حذك يا لالة حبيبة، أنا أعمل كل ما يحلولي ولا يهمني أحد،
أعمل ما أشاء، ولو أحببت، أريتك بعضًا من ذلك حالا..

وكانوا ساعتها على مائدة الغذاء.

تمنت القرية لو أنها لم تفتح فمها ولم تقل شيئًا، وظلت بعيدة عن
الصداع:

- أنت تعرفيني يا لالة أم هاني، أحببت أن أمزح معك والله، قلت
تسلى قليلاً وتذكر تلك الأيام..

ثم مدت يدها بسرعة، وأخذت تفاحة من الصحن وقدمتها لأم هاني،
واجدة صعوبة في النظر إلى عينيها الزرقاوين على اخضرار..

قطبت الخالة جبينها، وأخذت تحدق مرة في التفاحة، ومرة في وجه
حبيبة التي ارتكبت تلك الحماقة عن غير قصد:

- تذكريني؟.. ومن قال لك إنني أنسى؟..

نساء العائلة اللواتي يجتمعن ليحتسين الشاي والقهوة لقتل الوقت، ويدخن
السجائر أحيانًا في السر، كن ينتظرن بفارغ الصبر مثل تلك الفرص..

إنهن كثيرات ذلك النوع من النساء، يتأنقن ويضعن الماكياج، ويصبغن
الأظافر، ويعلقن الحلي، لكن إلى أين المغادرة؟..

لا توجد في هذه المدينة فضاءات كثيرة، والمقاهي محظورة، ليست محظورة بالمعنى الحرفي للكلمة، لكن همها أكثر منها، كل الأقارب في كل مكان، خاصة الرجال الذين يثرثرون كثيرًا بخصوص النساء غير (المحكومات)، وزوجة فلان شاهدناها هنا، وبنت علان شاهدناها هناك..

تجتمع أولئك النسوة في بيوت القريبات، وتكرر الأسطوانات نفسها، الضحكات والنميمة والتسليلات الزائفة، ثم سرعان ما تنقلب الجلسة إلى عيادة للتذمر والشكوى، ويرحن يسردن ما حصل مع الأزواج والأبناء والشغالات...

لالة خدة المعاشية أكثرهن تضررا وشكوى، تشعر أنك أمام امرأة مستثارة على الدوام، وفي حاجة إلى عشرات الأذان الصاغية، والأيدي المربطة، تلقب زوجها بـ (بو العيالات)، تقول إنه يتركها غارقة في المشاكل، ويخرج لينشر رجليه في المقهى، راکضاً بعينيه خلف المؤخرات.

لكن الأخريات كن يتغامزن ويقلن سراً، إنه لا يتفرج.. إنه يصيد!!..

رجل زنديق بالفعل، لا يترك أية مؤخرة تمر دون أن يلتفت إليها أو يمشي خلفها، وحين لا تكون لالة خدة معهن، كن يتضحكن ويقلن إنه معذور.. وأن المرأة هي المؤخرة، ومؤخرة لالة خدة ضامرة، وكل لحمها مكدس في جذعها الأعلى، وأنها تضطر في الأعراس إلى أن تضع القطن في

كيلوتها عندما كانت ترتدي التكميشطة، وليس لها الحق في أن تستغرب إن كانت بنت خالتها القبيحة لالة نجاة، يعاملها زوجها مثل ملكة، ومخلص لها، ويسافر معها إلى سبتة ليشترى لها صحون الطاووس والبطانيات، ويدللها.. ألا تعرف لماذا يعني؟.. كل ذلك إكرامًا لتلك المؤخرة التي تشبهها لالة خدة البارابول، ولا داعي بأن تستشهد بذلك المثل، (ما هو بالشطيح ولا بالرديح، ما هو إلا بالسعد المليح)..

زوجها سي حميد كان يثرثر بالكلام محتجًا ومعبرًا عن حرمانه، كان يضحك على تلك المؤخرة، ولا يجد غضاضة في وصف زوجته بأن لها فورما السبع..

وكانت خالتي أم هاني التي تتعاطف كثيرًا مع لالة خدة، تعلق قائلة:

- وماذا فعلت لي مؤخرتي أنا وساقاي وشعري وشبابي؟.. لماذا لم يكن سعدي مليحًا؟.. معها حق لالة خدة، كل واحدة وزهرها، حتى في خليان دار أبيها..

لم يرتبط الجنس في ذهن الخالة بالنجاسة وبالرغبة المستمرة في الاغتسال، مثلما يحصل مع المغتصابات، ربما لأنه يدخل في نطاق (الحلال)، تلك الوثيقة الرسمية التي يخطها عدل، يحفظ الصيغة الشرعية عن ظهر قلب، بأسئلتها وروتينها، ليصبح الجنس بعدها أليفًا وشرعيًا، مهما كان شاذًا.

تركت الخالة نفسها للأزواج ليفعلوا بها ما يطيّب لهم، ويستمتعون بها كما يشاؤون، يقبلونها، يخوزقونها، يهبونها عصابات مضاجعاتهم، على الرغم مما عرف عنها من عناد.

استخلصت ذلك من أحاديثها القصيرة معي، لم تقل لي ولو لمرة واحدة أنها بعد الممارسة كانت تهرع إلى الحمام إلى التخلص من آثاره، أو أنها كانت تشعر بالقذارة والغثيان، وكان ذلك مؤشراً إيجابياً.

الجنس فقط جاء إلى الخالة في التوقيت الخطأ، وكانت وهي طفلة، قد أدركته إدراكاً غامضاً من وصايا جدتها المسرفة، وهي تشير بسبابتها إلى ما بين ساقيهما:

- اياك أن تلمسيه، أو تعبثين به في المرحاض، سمعت؟..

عند بعض الأمهات وصل بهن الحد إلى تهديد بناتهن بالكلي، أو حك الشفتين بالفلفل الأسود، كلما ضبطنهن يدخلن أيديهن في كيلوتاتهن.

أطل علينا أبي مرة ونحن نلعب متشابكين، بنات وأولادا، فنادى على أمي صارخاً بصوته المرتاب:

- ألم أقل لك انتبهي إلى البنت يا نعيمة؟.. تعالي فكي هذه (الجرة)، تحركي، خذي البنت من هنا.

جاءت أمي بسرعة وسحبني من ذراعي، من بين طبقات الأجساد الصغيرة المتعاركة، وسمعتها تقول وهي تتأملني وتسوي ملابسي، وتمسح

بكفها على وجهي الأحمر الذي كان ينضح بالعرق:

- اقعدي جنبي هنا وإياك أن تتحركي، سمعت؟..

وحتى اللحظة، ما زلت أذكر ولدًا صامتًا أكبر مني كان يتحسسني،
هل يكون قد رآه أبي؟..

لن أستغرب إن أنا لم أخرج في المحصلة بأي نتيجة، وأمامي تجربة
الخالة الثالثة، زوجها وعيشها ونومها، ثم تلك النهاية التي لا مفر منها،
الطلاق..

نساء بلا حصر كن مثلها، لم يشكل الزواج بالنسبة إليهن أية متعة، كان
مجرد حرمان في حرمان، ولا غرابة إن هن أصبن بال اكتئاب، ودخلن في
تلك الحالات الصعبة من التصرف والتفكير، وظللن بلا علاج..

هل اكتأبت الخالة؟.. أم تراها دبرت أمرها بوسائلها الخاصة، ثم ماذا
يمكن أن تكون تلك الوسائل؟.. هل هي مصابة بضعف جنسي؟.. أم أن
الخلل جاء من عدم ارتياحها لأزواج لم ترهم من قبل ولم تعرفهم، وأنهم
نزلوا عليها مثل القضاء والقدر؟..

خلع الملابس والنوم مع امرأة، لا يعني بالضرورة اكتمال البهجة،
فطبق البطاطس الرائع يكون من التبيل، الغزل وعبارات التودد تخلع
على الزوجة الحيوية والرغبة، تتسق كلها مع العناق والقبل، لتعزف لحن
الحب قبل المضاجعة.

لكن من سيفكر في أمثال أم هاني؟..

بيد أن الرغبة في الاستماع إلى الخالة وهي تحكي عن تجربتها الثالثة، كانت لا تزال تشدني إليها، كان لا يزال هناك أمل في اكتشاف الجديد، إنها خمس زواجات، وأنا لن أعدم مادة مناسبة للكتابة، وتحقيقاً مسلياً.

قلت للخالة سابقة الأحداث:

- لدي إحساس بأنك استمتعت وعشت حياتك كما ينبغي مع زوجك الثالث، و(ضربت يدك) أيتها العفريتة.. قولي الحقيقة ولا تخفي عني شيئاً.. أرجوك.. اعترفي..

قهقهته الخالة عالياً، وقالت من غير مقدمات:

- مع صالح؟..

سألتها مجازية:

- اسمه صالح؟..

وأخذت تصوري لي الرجل بشكل مضحك، قالت إنه كان طويلاً ونحياً مثل سلك، وأصفر، ولا شيء من الإثارة فيه، وأي امرأة كيفما كان نوعها، ما كان يمكن لها أن تلتفت إلى شكله، أو تقبل به شريكاً تنام إلى جانبه.

غضبت غضباً شديداً، وانتابتنني حالة من الرثاء لما حل بالخالة، وإحساس بالعبثية جعلني أتساءل على نحو خائق، وصادر من القلب، ما هذه الصدف السخيفة يا رب؟..

قالت الخالة موضحة، إن ذلك كان زواج الغيرة والسم، ومن؟ .. من ابنة عمته لالة شميسة التي أقامت في بيتها فترة، وكانت متحمسة لها وراغبة في أن تؤنسها، لكن بعد أيام اجتاحتها الغيرة، فماذا عساها تفعل؟ ..

سعت القرية ما أمكن إلى أن تتخلص من أم هاني بأن تزوجها من حماها الخضار، دون أن تخبرها بأنه مدمن كيف، وأنه شخص كان يسير مترخياً في الأزقة والدروب، بذيل قميصه المدلى إلى الخارج، وكميه المدبوغين، كواحد هرم شديد السقم، بينما هو في الواقع، كان دون الخمسين، وأنه كان مصاباً بالإمساك المزمن، ويستعين بدبوس الشعر الأسود pince plat الذي كانت تضعه النسوة في مقدمة الشعر في المرحاض.

قالت لها لالة شميسة بلهجة مصرة، وقد ذهبت إليها في ذلك الركن الهادئ الذي كانت تجلس فيه في بيتها، وتشتغل بالتريكو:

- انظري يا لالة أم هاني، المثل يقول (عز الخيل مرابطها) يا ابنة خالي، ونحن النساء لا كرامة لنا إلا في بيوتنا، ما رأيك؟ .. سي صالح مستعد للزواج، لقد أخبر زوجي، وكما تعرفين، فهو لا يزال أعزب.

تمنيت لو أنني كنت أعرف تلك القرية التي غادرت من زمان، بعد أن ورطت الخالة، وأوقعتها في تلك الزيجة المخزية، ولكنك سألتها لماذا هي شريرة؟ .. ولماذا فعلت بابنة خالها ذلك، ولعبت معها ذلك اللعب الحامض؟ .. وأنها كان يجب أن تكون قريبة منصفة، فتخبر الخالة وتخبرها

قبل أن يقع الفأس في الرأس، عارضة عليها تلك التفاصيل المقرفة، التي عادة ما تكون لصيقة بمدمن الكيف.. الخمول والبصاق والبلغم والأسنان المتآكلة والبشرة الصفراء؟..

فلو كان صالح الرجل الوحيد في العالم أجمع، ما كانت الخالة لتتزوج، أعرفها جيدًا، لولا مقلب ابنة عمته الرهيب.

قلت وقد دخلت إلى ذلك الجزء المضجر من المسألة:

- ما هذا الهراء يا خالة؟.. لماذا تركتهم يلعبون بك الكرة بذلك الشكل؟..

كنت بصدد إثارة أسئلة لا علاقة للخالة بها ولا بأجوبتها، أعرف أنها ليست هي من اختارت ذلك الوضع، وأنها تملك ما يكفي من القدرة على التمرد والحرن، مما كان يمكن أن جنبها الكثير من المصائب، لكن على رأيها: ماذا سيفعل الميت أمام غسله؟..

لم يكن أحد يستشير العروس في أمر زواجها، كان ذلك يحصل اعتباطًا، والسبيل الوحيد لمعرفة تفاصيل عن شكل العريس وعن سنه، كانت تأتي من الوسطاء، غير أن تلك التفاصيل قد لا تكون أحيانًا دقيقة، فتحت إغراءات مادية أو معنوية، كثيرًا ما كانت تنقل أوصاف ملفقة.

ليست العروس وحدها من يمكن أن يحصل لها ذلك، العريس أيضًا كان يمكن أن يعيش مثل تلك المقالب المزعجة..

قالت لي خالتي أم هاني مرة:

- سأضحكك قليلاً يا شيباء، شوفي، عمك سي عبد الرحيم كان يقول لزوجته لالة خديجة حين يحب أن يضايقها، لفوك في إزار وجاؤوا بك إلي في جنح الليل، لاكتشف في الصباح أن أصابع قدميك مثل البطاطا القصبية، هاهاها.. الله يرحمهما.

تطلعت إليها بأسى:

- لكن واحدة في مثل جمالك، كان من المفروض أن تكون تاجاً فوق الرؤوس، لا أن يلعب بها من يشاء، التفتي إلى أغلب الزيجات حولك، قريباتك اللاتي لا يصلن إلى نصف حسنك، ومع ذلك ارتبطن بأزواج وسيمين ومميزين، ولازلن مستقرات في بيوت محترمة.

سرّها أن تسمع مني ذلك، ثم انبرت تقدم الدلائل على أنها لم تتهاون أبداً في حق نفسها، ولم تتنازل، وأنها كانت تطلب الطلاق على عجل، وأن الكثير من تلك الطلاقات كانت من تدبيرها، وأنها كانت ترد لهم الصاع صاعين، يزوجونها من هناك، فتطلق من هنا، وأنهم مهما تأمروا وأصروا، كانت خططها هي الناجحة، وسريعاً ما كانت تعود إلى جدتها منتصرة!!..

قالت موضحة:

- حتى لو تمنعت وحرنت، من كان سيسمعني؟.. من كان سينصت

إلي؟ .. هناك إياد خالية من الرحمة، كانت جاهزة دومًا إلى الدفع بي إلى الزوينة (جهنم)، الجمال الذي تربيته كان مثار حسد وغيره، كان بوسع الكثير من القريبات أن يجنبن أزواجهن مجرد رؤيتي، أو السلام عليّ.

ثم أصرت على أنها لم أكن تعرف الخوف من الفشل، ولا كان يعينها النجاح، وقد سعت إلى الطلاق على قدر ما تستطيع، فطلقت للمرة الثالثة.

قلت بأقل قابلية ممكنة في الكلام:

- وكيف طلقت من صالح؟ ..

- لقد جعلني صالح أفنط من حياتي، كان كل همه الحصول على الكيف بأية طريقة ممكنة، وبأي ثمن ..

ثم حكّت كيف كان يقرّص منشغلًا في تلك التفاصيل، الفرز، التنقية، الفرغ، مستعملًا في ذلك لوحه الخاص الذي كان يخبئه في مكان لا تعرفه، خائفًا من أن تستعمله في تقطيع البصل.

- رأيت، مبوق (مسطول) ومنتبه إلى حاجاته.

منذ اليوم الأول من رمضان، فرض صالح على الخالة أن تهبيء مائدة الإفطار عند العصر، فامتثلت له صاغرة.

الخوف والارتباك كان يجعلها تضع الجبانيات ومغارف الخشب، وتضع التمر والشباكية والسفوف على المائدة، وتصلق البيض وتغلي الحليب قبل ذلك الوقت بكثير.

لم يكن الأمر مزاحًا، قالت لي.. ولم يكن هناك مجال للنقاش مع (خارم)..

في ذهن الخالة صورة عتيقة عن المدمن (المقطوع) في رمضان، المستعد للعراك في الشارع باللكمات، تحت أي ظرف، وأي استفزاز مهما كان بسيطاً يمكن أن يجعله شخصاً آخر مختلفاً عن المعتاد، تاركاً الرصانة والتعقل خلف ظهره، وخائضاً في المصارعة، حتى أن الآخرين كانوا يستغربون: لماذا يتغير بعض الرجال بذلك الشكل؟.. هل يمكن للخمرة والسجائر والكيف فعل كل هذا؟..

عند طرف المائدة كان صالح يجلس ماداً ساقيه النحيلتين، مطرقاً برأسه، وعابساً بوجهه الأصفر المجدور، وشعره الأشعث، يشبه في ذلك إلى حد ما، واحداً من شمامي الجوارب والسيلسيون، الذين يطوفون الشوارع في أيامنا هذه، وأمامه السبسي والمطوي، واضعاً الواحد جنب الآخر، مع علبة الكبريت الصفراء (وقيد السبع)، المرسوم على سطحها رأس الأسد.

لم يكن صالح يجد شيئاً يشفي غليله، غير الصراخ في المدفع الموضوع قرب فتحة السور العريض في بيرو عرب، كانت تلك وسيلته لإطلاق ما في نفسه من ضجر ونفاذ صبر، بينما الخالة تظل بعيدة، تطل برأسها لتستطلع الجو مثل دجاجة..

كان يخاطبه بغل، منتظراً أن يسمع طلقاته المدوية في فضاء المدينة، وإلى حدود الأحراش:

- اضرب.. الله يضربها لك في القلب!!..

يردد تلك اللازمة يوميًا، على مدار ما تبقى من الوقت، بطريقة مضحكة، لكن من يجرؤ على الابتسام في وجه رجل مدمن وهو صائم؟..

كانت الخالة تشتمه بصوت خافت، وهي في الحمام أو في المطبخ:

- أهذا كل ما لديك أيها (الخارم)؟.. بربك اصمت، هل هذا صيام؟.. لو أنك (خرطته) لكان أفضل، أنت تجوع نفسك مثل كلب، لا دنيا ولا دين، ولن تنال إن شاء الله، لا جزاء ولا شكورًا.

لم تتمكن الخالة من أن تتأقلم مع سير الأمور، فأعصاب امرأة هشة تختلف كثيرًا عن أعصاب أخرى عادية، كل شيء فظ في الحياة تراه الخالة إساءة شخصية لها، وعربون جفاء، فما بالك بمقطوع؟..

قالت لي مستعيدة فصلًا من تلك الفصول المضحكة، وكأنها تستعيد معه شعورها الأول بالخوف، والساعات التي كانت تقضيها مختبئة:

- أتدريين؟.. كنت أخبئ سكاكين المطبخ كلها في كيس الطحين، وأبقى في الحمام أطول مدة ممكنة، متوجسة، أنصت إلى أقل حركة إلى أن يحين الإفطار، وأحيانًا كنت أركض مذعورة عندما يصرخ، لأندس تحت الملاءات.

أعطتني الخالة الفرصة لأنفس عن غيظي، فقلت لها:

- دمرتني يا خالة، ليتني لم أفتح معك سيرة هذا التحقيق، صحيح، يحق

لك أن تتتحري، لكن ليس بتلك الطريقة إياها، من الأحسن لو كان ذلك بخلط دواء البرغوث بالماء، وشربه دفعة واحدة في غمضة عين..

رد فعل (المقطوع)، الذي كان يمكن أن يذهب راجلاً عشرات الكيلومترات، بحثاً عن المزودين وبائعي تلك العشبة في السر، ومستعد أن يدفع أكثر، ليس غريباً أن يفعل ذلك في رمضان.

فكرت قليلاً، ثم قلت مهمومة:

- أذلك السبب لم تنجبي يا خالة؟..

ردت من غير أن تفكر ملياً في سؤالي:

- بالعكس، كم كنت أشتاق أن يكون لي طفل أو طفلة من واحد من أزواجي، خاصة الأخيرين، بعد أن كنت قد كبرت قليلاً، وصرت أرى كيف يمكن لذلك أن يعوضني عن سعدي الأسود، لكن تلك كانت مشكلة أخرى، فأنا عاقر.

لم تنجب الخالة لأنها تعتقد أن حماتها أم عيسى سحرت لها، ولم تصدق قريباتها طبيب النساء الذي كان يرى في تزويجها وهي طفلة، أحد أسباب العقم.

كلنا تزوجنا صغيرات، هكذا قلن لها، وأغلينا حاضت أول مرة وهي في بيت زوجها، لست الأولى ولا الأخيرة، وها أنت ترين، لم يمنعنا ذلك من الإنجاب (حتى من رموشنا).. ما يقوله الطبيب كلام فارغ!!..

والأكثر عطفًا عليها، كن قد طلبن منها أن تستيقظ من الدوخة، لأنهن واثقات إنما هو سحر أسود، من حماتها أم من غير حماتها، لا يهم، ولا تزال الفرصة أمامها سانحة لفكه، ونصحوها بالذهاب إلى سبت كزولة، عند الفقيه ولد المش (القط).

لم أسأل أم هاني إن كانت قد امتثلت لتلك النصيحة، وقطعت تلك المسافة نحو تلك القرية، منتظرة مع العشرات من الزبائن، ممن هم مستعدون للإطلاع خباياهم وأزماتهم، حتى قبل أن يسألهم أحد، أو يبدي أي استعداد للسمع.

لكن ما أنا متأكدة منه، أن الخالة جمعت بعض أغراضها ذات صباح، وانسلت عائدة إلى بيت جدتها، هنالك حيث يمكن لها أن تعيش في سلام، دون جلبلة ولا صدادع رأس، تمارس حياتها الطبيعية، تأكل وتشرب وترقص كلما اقتضى الحال، قارعة بصاجاتها النحاسية الصغيرة التي لا تفارق حقيية يدها..

غادرت أم هاني بيت الزوجية من تلقاء نفسها دون رجعة، وقررت بنفسها، ومن دون أن يرغمها أحد على ذلك، أن تطالب بحقها في الطلاق..

وهكذا تزوجت الخالة صالح في شعبان، وطلقها في رمضان.

إنني أكده من أجل لا شيء، بكل الصفات التي تقتضي أن يتحلّى بها الصحفي الناجح، كما صرح بذلك هارولد ايفانز مدير (التايمز)، وأمتلك البصيرة وسعة الإدراك مع روح الدعابة، مثلما امتلكت من زمان، حسًا عاليًا

بالخالة وتعاطفًا كبيرًا معها، وعندما دارت بخلدي فكرة التحقيق، كنت على يقين بأنني أسير في الاتجاه الصحيح، كصحفية غير محترفة، وبوسعي أن أحقق بعضًا من وصاياه، وأنجز عملاً يدخل السعادة والرضى على قلبي.

ربما أسأت التقدير وراهننت على حصان خاسر، لكنني مصرة على مواصلة اللعبة بالاستماتة والصبر، رغم بوادر الإحباط.

طويت ملف صالح نهائياً، ذلك الزوج الخامل، فليس من الضروري أن أنبش أكثر فيه، فالعشاء اللذيذ تطلع رائحته عند العصر، ونكاية في أم هاني، فتحت (طبائع النساء)، وواصلت القراءة و(عينها تحرقها)، رغم ما وجدت من انتقادات مكتوبة عنه في الانترنت، باعتبار العنوان لا علاقة له بالمحتوى، وأنه يركز على الأخبار بدل الطبائع، ويولي أهمية لأوصاف الجسد والقصص التراثية المروية، وأن النوادر تغطي على دراسة الطبائع. كان الحرية لا تزال تنضج على مهل، وثمة رائحة الطماطم والكرفس والكزبرة، تعبق في الأرجاء.

لمحت (طبائع النساء) بالصدفة، في سلة قصصية يبيع فيها صاحبها كتباً مستعملة، بملتقى السوق الخانز مع شارع الرباط، التقطته وتصفحته، متصورة أنه دراسة لفهم طبيعة تركيبة المرأة وعوالمها الخاصة.

ترى ما الذي دفع بذلك الأديب إلى خوض تلك المغامرة الصعبة؟..
تعودت أن أشتري كتباً مستعملة، كتب التراث والآداب القديمة،
روايات من الأدب الفرنسي، الروسي، الانجليزي، البؤساء، أنا كارنينا،
السلم والحرب، مرتفعات ويدرنيغ....

رغم دراستي للتاريخ فأنا ميالة إلى الأدب، وقد ظلت العلاقة بيننا جيدة
من أيام الشعر والأناشيد والقصص المصورة، وروايات عبير...
كنت بصدد الذهاب عند الخالة، ولا زلت أعيش الدور كصحفية جادة،
لا تكتفي بتعليمات مدير التايمز، بل تسعى إلى تقديم رشوة.

وها أنا في الخامسة مساء تقريباً بزئقة سيدي الشهري، أشتري رأس
كبش مبخر من صاحب القميص المبقع بالشحم، وكنت قبل أن يحين علي
الدور، أرى كيف يدخل يديه في القدور، ليعمل شندويشات غريبة من
شفاه البقر وأذائها وعيونها، ويلفها للزبائن في الورق.. كانت رؤوس البقر
جنباً إلى جنب مع رؤوس الغنم..

قلت في نفسي، لو شاهد عبدة البقر هذا الفتى المبتهج، ماذا تراهم كانوا
سيفعلون؟.. وكنت قد قرأت الكثير عن تلك الجرائم التي ترتكب ضد
أكلي لحوم البقر، في تلك البلاد البعيدة..

لم أكتف برأس الكبش وحده، بل شفعت به بعض الفواكه، تفاح، إجاص،
برتقال....

انتقيت أفضل ما في واجهة العرب، مما جعل البائع الأحول يغتاز،
وكنت سعيدة وأنا أشتري للخالة كل ذلك.

وجدتها في ذلك المساء ترتدي بدعية بنفسجية مشغولة بالراندا، بينما
شعرها القرنفلي مشدود بشريط، وكانت لا تزال تتابع المسلسل التركي الذي
خلب لبها، (حريم السلطان)، متاهية مع كل ما يحصل، وتعيش الدور
بشكل مضحك، الخلوة والمكائد ودس السم في الأكل، وقتل السلطان
لأبنائه وأصهاره، والحروب والثلج والحصار، والإبادات الجماعية، والجوع
والمرض والسبايا، والأحصنة السريعة والرسائل السرية والخصيان...

كل ذلك كانت تحافظ على التواصل معه، مرة بالضحك ومرة بالشتائم،
ومرات كثيرة بالبكاء، ليس أمامي، كنت أعرف ذلك من رموشها المبللة بعض
الشيء، وأنفها الأحمر، بالإضافة إلى ما كان يبهرها، الحلي والأثواب والقفاطين
فوق تلك الأجساد البديعة، والمتنقة تمامًا كما يليق بالقصور...

ظلت الخالة صامته إلى أن انتهى الجينيريك، فالتفتت نحوي ضاحكة،
وقالت وذهنها لا يزال مع الأحداث:

- جئت؟.. كيف حالك وحال موالين الدار؟..

قبل دقائق كانت قد فتحت لي الباب على مصراعيه، وأعطتني قبلتين،
وعادت تهرول نحو الغرفة.

- لا، لم أجيء بعد، خيالي هو الذي جاء.. (وضحكننا معًا). كلهم بخير
ويسلمون عليك، خصوصًا ماما.

لا يمر ذكر اسم أمي دون أن تتغزل الخالة، وتقول فيه شعراً.

ردت بفرح وقد لمعت عيناها الملونتين:

- يسلم عليها الخير والريح، شوفي، لا توجد امرأة في الدنيا مثل ابنة خالتي لالة نعيمة، امرأة محبة للخير وعطوفة وسخية، ولا تسمعين منها كلمة العيب، يا ليت كل النساء مثلها.

نبهت الخالة، وأنا أسحبها من معصمها بخفة، إلى أن كيس البقالة الذي أدخلته إلى المطبخ ووضعته قرب المجلى، يوجد به رأس مبخر، من أفضل ما عند صاحبها (مول الروس)، الذي تثق به وتفضله على الكثيرين..

شع كل وجهها دفعة واحدة، وأمسكت بقراصة من فوق الطاولة وغرزتها في شعرها:

- صحيح؟.. من سيدي الشهري؟.. الله يعطيك الخير، بالمناسبة عندي زعلوك الباذنجان، وفول مشرمل، وكمون بلدي طحته هذا اليوم..

قلت:

- ولو أنني ترددت كثيراً قبل شرائه، بصرامة صرت أخاف عليك من الفوضى، الدهنيات ستسبب لك الكوليسترول.

ردت وقد نهضت وأعطتني ظهرها:

- لا تخافي، أنا كما ترين، تحليلاتي ما شاء الله، الطيبة نفسها استغربت،

قالت لي إن ذلك بسبب المشي، أنا مشاءة وأقطع من زمان مسافات طويلة، ونادرًا ما أركب الطاكسي أو الأوطوبيس.

كنت أنتظر بصبر أن يحدث شيء ذو أهمية في تحقيقي، وأن تكون توقعاتي عن زيجة الخالة أم هاني الرابعة في محلها، لكنها فاجأتني بعد العشاء إن كنت لا زلت مصرة على أسئلتي:

- ما زلت تفكرين في ذلك الموضوع الممسوخ إياه؟..

سؤال لا يبشر بالخير.

- طبعًا، وما تظنين؟.. هل أنا ألعب؟.. إنه عمل.

تململت الخالة ورفعت كفها الأيمن إلى مستوى وجهها، وانشغلت قليلاً بتأمل أظافرها، ثم قالت لي مغمغة:

- حسنًا، ماذا أقول لك بعد؟..

- ماذا تقولين!!!.. أنت حرة في أن لا تنطقي بكلمة (وأشحت بظهري عنها)، على كل لن أغضبك على شيء، حتى لو طردوني من العمل واضطرت إلى أن أبيع البيض.

ضحكت الخالة ضحكتها الرقيقة:

- تبيعين البيض؟.. وماذا سيفعل أبوك بأمواله وعقاراته إن شاء

الله؟..

عند العشاء، كنت موزعة بين الأكل وتصفح (طبائع النساء)، وكان ذلك هو الافتراء بالنسبة لأم هاني.

تجاهلت انشغالي في البدء، لعل وعسى، وبلعت لقماتها على مهل، ووضعت أمامي قطعة من لسان الكبش المفضل عندي، قشرتها ورشتها بالكمون، لكن سرعان ما ألقت علي نظرة متسائلة:

- مالك هذا المساء؟.. لا تأكلين (في خاطرك)، ولا تتكلمين معي، في ماذا تدفين رأسك؟..

- قلت لها وأنا أبتسم:

- أدفن رأسي في هذا، انظري، إنه كتاب.

قالت مستهينة بردي:

- أعرف أنه كتاب، وهل قلت إنه مسمنة (فطيرة)؟..

كنت بتصر في ذاك أجعل الخالة مثل قطعة محبوسة في قفص، كلما جئت إليها وفتحت كتاباً، كانت تدير أسطوانتها العتيقة تلك، مدعية أنني أهملتها، وقضيت على رغبتها المرححة في أن تضع ساقاً على ساق، وتحكي لي آخر النكت الساذجة التي سمعتها، وآخر القفشات، وندردش ونضحك معاً، وتسألني أسئلة كثيرة عن نشرة الطقس، وغلاء السمك، وندرة اللفت، ومن زار أمي ومن لم يزرها، وتسألني عن أخبار البستاني الذي كان يترك المقص ويركض نحوها ضاحكاً، حين كانت تحمل إليه الشاي في بيتنا،

وتناديه بوسيعب (بوشعيب) من بعيد، وأخبار لمياء العفريته التي صارت تحبها..

الصمت من أكره الأمور عند الخالة، حتى وهي وحيدة، تستطيع أن تسمعها تتحدث مع نفسها لترجية الوقت، أو تدخل في حوار مع الأصوات البعيدة أو الراديو أو التلفزيون، تشتم أو تعلق، وأكثر شيء مع نباتات الظل، عندما تنحني لتخاطبها وتفحصها، وتشعر في إزالة الديدان الجشعة التي تصنع خروماً في أوراقها الهشة، وتلمها في ورقة، واضعة بعضها فوق بعض قبل أن ترميها في الزبالة..

سمعتها مرة من خلف الباب تقول لها بالصدفة:

- كيف تتمكنين من فعل ذلك أيتها الجنية؟.. حتى أنت لديك أسنان مثلنا؟.. ها أنا أمسك بك من بطنك، وسوف أجعلك تندمين إن فكرت أن ترجعي عندي....

حتى أنني اشتبهت بداية في أنها ربما كانت تكلم طفلة..

وأكثر شيء مضحك عندما تقلد الباعة المتجولين الذين يجوبون الأزقة، كل بنغمته الخاصة ولحنه المنفرد، فتقول مقلدة إياهم: ييب هريبي، هالابن، هالابن، والازط والازط، هاشيبي هاشيبي... وتستطيع بسهولة أن تعرف ماذا يبيع هذا وماذا يبيع ذاك.. الشيخ أو اللبن أو طاب وهوري أو الزعتر أو هرينكا أو الأواني...

وكثيراً ما قالت لي مستاءة وهي تترجاني:

- بالله عليك يا شيء إذا جئت عندي، لا تحضري معك لا كتباً ولا جورنالات، لا أحب أن تحشري أنفك وسط هذه الأوراق وتتركينني وحدي.

ولو اضطررت إلى القراءة وكان لذلك علاقة بالعمل، كانت تسرقها بعض الإغفاءات.

مرة صحت مذعورة فتنحنحت وقالت حازمة:

- أقوم لأنام، أنا متعبة هذا المساء، وحملقي أنت في هذه الأوراق، سوف تربحين النبق من هذه الكتب، ها أنا وها أنت!!..

ووضعت بالمرة طرف سبابتها فوق لسانها، ثم مررتها فوق الجدار.

ماذا أفعل بهذه الطفلة التي لا تشيخ؟.. وبكل ذلك الماضي؟..

جاريته بدوري:

- على رأيك، لقد قالها المعلم نونو في رواية خان الخليلي، هل تطيل الكتب العمر؟.. تدفع القدر؟.. تمنع المكتوب؟.. تجنب الشقاء؟.. تملأ الجيب؟..

ردت بما يناسبها:

- أنت (تدفعين علي شبابك غالي، مثل خيزو في الليالي)..

تصنعت الذعر وأنا أسمعها تقرن بيني وبين ندرة الجزر في الشتاء:
- أية تهمة هذه يا خالة؟.. إنك تضعيني في مصاف الأنانيات، وأنا والله لست كذلك، وأنت تعرفين..

لم أتجبر على خالتي أم هاني أبداً، ولم أتفرعن عليها، ولم يقل اهتمامي بها على الإطلاق، وظلت مساحة الشوق تكبر إليها كل يوم، واهتمامي بها يزداد، ولم يفلح أي شيء، لا البرد ولا المطر، في إخفاء عاطفتي الجاحجة نحوها، ولا منعي من القيام بزيارتها.

أمسكتها من يدها وشدتها نحوي بلطف:

- انظري، تعالي ولا تنامي، سأحدثك قليلاً عن هذا الكتاب، إنه عجيب (وربت على صفحاته الصفراء)، إنه لابن عمك، عبد ربه الأندلسي.
- ابن من؟..

كنت أفهم وحدي، من دون سائر العائلة، كيف أغير طبيعة مزاج الخالة بسهولة، وأحوّلها مائة وثمانين درجة، في الاتجاه الذي أريد، مستغلة تعاطفها معي، وتنازلاتها التي لا تقدمها لأحد سواي.

- صاحب هذا الكتاب أندلسي مثلك يا خالة، وقد ألف هذا الكتاب عن طبائع النساء، وها أنت ترين، أليس ذلك يدعو إلى القراءة والاطلاع؟..
جلست الخالة ثانية، وكان ذلك كافياً أن يتيح لها أن تنظر نحوي صاغرة،

متناسية أنها اتهمتني منذ لحظة بالعجرفة، ثم تهكمت، لكن ذلك التهكم لم يكن موجهاً لي، بل كان موجهاً للمؤلف:

- وما الذي أخذه إلى ذلك الأقرع ليمشط له رأسه؟..

ضحكت من ذلك المثل، كان مفهوماً، عكس غالبية الأمثال الأخرى التي كثيراً ما استشهدت بها الخالة، وقد جرت العادة ألا يمر حديث، دون أن تعلق بتلقائية أحسدها عليها، وتجد الروابط المناسبة لتسخر أو تزكي أو تدحض.. كانت في الحقيقة أبرع من يجيد ضرب الأمثلة، ووضعها في السياق المناسب.

وكنت في الواقع أضحك حتى عندما كنت لا أدرك مغزى تلك الأمثلة، ولا أفهم لماذا ضربتها أصلاً، غير أن استحضار المثل في حد ذاته كان يضحكني، بتلك الكلمات المحلية التي تنتمي إلى زمن آخر.

امثلت أم هاني لرجائي، وجلست متراخية وهي تسوي وضع منديلها فوق رأسها، بينما عيناها ظلتا مسطتين عليّ.

بدأت أقرأ لها من الكتاب بصوت عال، كانت تلك فكري وليست فكرتها:

- (إنه يقدم لنا لطائف من أخبار النساء، وطرائف من حياتهن، لنزداد لهن فهماً، ومنهن قرباً، وبهن معرفة وأنساً، مما يجعلنا أقدر على حسن اختيارهن)..

توقفت للحظة عن القراءة، وتطلعت إلى أم هاني مستفهمة:

- أفهمت لماذا كتب الرجل هذا الكتاب يا خالة؟..

فقلت ببرود تام:

- لا، لم أفهم، فهميني أنت، وقولي لي لماذا لم يكتب صاحبك هذا عن طبائع الرجال، وكتب عن المرأة وحدها؟..

سررت أن الخالة فكرت بذلك الشكل.

قلت لها بفدلكة:

- إنه رجل ولا يريد أن يفضح الرجال، لا تكثري من الأسئلة، وانصتي إليّ قليلاً.

(النساء وصفاتهن وما يحمد ويذم من عشرتهن.... إذا كان ذلك مقصوداً على الخليفة الصالحة، والزوجة الموافقة، والبلاء كله موكل بقريئة السوء، التي لا تسكن النفس إلى كريم عشرتها، ولا تقر العين برؤيتها، أقول عنهن ما قال الأصمعي: حدثني ابن أبي الزناد، عن عروة بن الزبير، قال ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله، بمثل منكح صدق، ولا وضع أحد نفسه بعد الكفر بالله، بمثل منكح سوء، ثم قال لعن الله فلانة ألفت بني فلان بيضاً طوالاً، فقلبتهم سوداً قصاراً، وفي حكمة سليمان بن داود عليه السلام، المرأة العاقلة تبني بيتها والسفينة تهدمه، وقال، الجمال كاذب والحسن مخلف....).

عضضت على شفتي السفلى وهزرت رأسي، يا إلهي ماذا أقول؟.. توقفت عن القراءة، وتطلعت إلى الخالة.

(العاقلة تبني بيتها، والسفيهية تهدمه)؟..

من حق الخالة أن ترتاب، كأني وطدت العزم قصداً على إسماعها تلك الكلمات، وإذا ما شخصت محدقة في بعينها الزبرجديتين باعتباري أهنتها، فسألتمس لها كل العذر، ولن أجادلها في ذلك.

علقت بسرعة باحثة لي عن مخرج:

- ماذا يقول أخونا هذا!!.. يبدو أنه أحمق، انظري، كتابه هذا كان موضوعاً في سلة مهملة، بجانب كتب الطبخ والتجميل وفك السحر بالسوق الخازن، اشتريته بالصدفة، لكن على ما أعتقد، سادعه جانباً ولا داعي للانشغال به.

حل هدوء ظاهر على أم هاني..

- قولي هذا الكلام لنفسك.. أنت التي حرمتنا هذا المساء من جلسة ممتعة، وحشرت أنفك بين الأوراق.

فكرت أن أغير الجو من أجلها، وأن أقوم بحركة مضحكة من حركاتي التي كنت أسلي بها الخالة، عندما كنت أجدها أحياناً متبرمة، وكارهة الدنيا وما فيها..

انتصبت فجأة واقفة ألوح بيدي كيفما اتفق، مثلما تفعل بعض التلميذات

في الابتدائي، وصوتي يتصاعد بالتدريج:

- أنت تشبهين التحف الغالية أيتها الخالدة، وتستحقين جدارة الخلود،
أنت صدى لوردة وأنوثة وكريستال، نبع عطر ونار مقدسة، أنثى شهية وإلهة
من رخام، من أول الأحلام حتى آخر المرایا... قطعة شهد في فم قصيدة.
أمل حلو في ليل رائع، نجمة تضيء بلمعان الغرام.... تعالي لأضع خرابك
على خراي، ونمزق قمصان الحلم، تعالي لنعري بنظرة عشق حنين اللهب،
يشعله الهمس والعسل، رمل يؤسس لخيمتنا والإغواء، إغماضة نهطل فيها
كما المطر على جنائن اللون، وعطر الحديقة، تعالي تعالي تعالي..

لم يكن ذلك جديداً على الخالدة، كنت من أجلها أعمل أشياء طريفة
ومضحكة، أشترى لعبة ثعبان وأرمني به نحوها، عقرباً، ضفدعاً يشتغل
البطاريات، أمكيجه حينما تطلب مني أن أعمل لها ماكياج اللبانيات،
فآتي بعلب الزينة، وأضع لها (الفراشة) حول زاويتي عينيها، فتمسك بمرآتي
المدورة، وتظل تلف بها وتدور حول وجهها، من اليمين إلى اليسار، ومن
فوق إلى تحت، وحول عينيها وحاجبيها وخديها وفمها وجبينها، راضية
تماماً عن نفسها.... وها أنا أتلو أمامها هذه المرة ما دونته من فترة، متصورة
أنه شعر.

وصلة هزلية تحتاج إليها الخالدة، مثل الفرح والاحتفال، والقهقهات
المرتفعة عالياً في الغرفة، أفكر بالموضوع على ذلك النحو، ثم لا بأس بالعودة
إلى الجدية..

تركت الخالة تضحك كما تشاء في استراحة معقولة، صارت فيها روحها
منتعشة، وعينيها بليتين، وبدت مسرورة فعليًا بعد تلك الكتمة التي أزعجتها
عن صدرها..

فقلت قبل أن تتهرب، وتدعي أن الوقت تأخر:

- فلبداً يا خالة، كفى مزاحاً، الآن جاء دورك، هيا اخرجي من (رونديك)،
والله نحن نضيع الوقت أكثر من اللازم.
وكان الوقت قد تأخر فعلاً في ذلك المساء.

بدأت أشعر بضغط الوقت، فركت يدي عمداً وقربتني من فمي، أمامي
على المائدة ذات الأرجل القصيرة أوراقي البيضاء نفسها، الخالية من الكتابة،
والأقلام والمسجلة.

بمجرد ما خطوت إلى بيت الخالة ذلك الأربعاء، بدأت في التذمر:

- سأموت يا خالة، الرطوبة تخنقني، تصوري.. طلعت هاتين الخطوتين
إلى بيتك بصعوبة، كأنني قطعت عشرات كيلومترات، وليس هناك أي ظل،
لا أعرف لماذا لا تزرع البلدية شجراً كثيراً في هذه الطرق الصعبة؟.. يبدو
أنهم يستمتعون بمرأى الشمس وهي تشوي الناس..

كان شعر الخالة الناعم الخفيف مشطاً ومفروقاً من جنب، ولا ممعاً تحت

النور، وكانت ترتدي بيجامة قطنية وردية اللون بنصف كم، اشتريتها لها مؤخرًا من سيدة تأتي إلى بيتنا، تباع الملابس المهربة من سبتة من صنع إسباني، بينما ارتديت أنا الأخرى على عجل، شورت من الجينز يصل إلى ما تحت الركبة، وتي شيرت مكتوب على صدره: i love shoes bags and boys..

أنا والخالة لا نستطيع أن نستخدم في الصيف إلا الألبسة المصنوعة من القطن الصافي.

انتبهت سريعًا إلى أن الخالة أخطأت هذه المرة في رقم صبغتها، فشعرها المقصوص على شكل كوب كاري coupe caré، قصتها المفضلة منذ السبعينات، صار يميل إلى الباذنجاني.

- خدي دش لو أحببت، سيخفف ذلك عنك.

قالت لي الخالة متعاطفة معي.

فكرت في ذلك، لكن كيف لي أن أقف لأستحم تحت الرشاش في ذلك الشبر ونصف، دون أن أختنق، صحيح هو نظيف ومعطر ولا تشوبه شائبة، وهي التي اجتهدت واشترت اللوازم من مالها الخاص وركبته، لكنني أفضل على ذلك عصير البرتقال المثلج.

سألتها أيضًا وأنا متذمرة إلى أقصى حد:

- متى سيأتي الشتاء يا خالة؟.. كم أحسد أصحاب المدن الداخلية،

قلت في نفسي، هذا المساء إما سأوفق في تدبيج توليفة متكاملة عن التحقيق إياه، أو ينتهي كل شيء إلى لا شيء، وسأكتفي بكتابة مقالات خاضعة للصدفة.

وفيما كنت أنتط في الكلام، متصورة أن زمام الأمر بيدي، وفيما كنت أنتظر أن تحدثني الخالة عن زوجها الرابع النجار، انبثق أمامي سؤالها المرتاب: - تعالي أنت إلى هنا... أرى أنه لا شغل لك ولا مشغلة غيري، صارحيني.. ألم تعرفي أنت رجلاً أبداً؟.. ولم (تتعاشقي) مع ولد؟..

تفاجأت بسؤال الخالة، شيء لم يكن ليخطر لي على البال أبداً في تلك الجلسة بالذات، ولا كان وارداً في ذهني، خاصة بعد أن ظلت الخالة متحفزة تتطلع إلي بنظراتها المتفحصة، ومصممة على أن تعرف. - هه؟..

لأول مرة تسألني الخالة عن علاقتي بالجنس الآخر، وتفتأخني في موضوع العشق.

ما الذي حدا بها إلى أن تصمت كل تلك السنين؟.. أكانت تظن أنني بلا قلب؟.. وأن عواطفني التي أكنها لها، لا يمكن أن تستوعب شخصاً آخر إضافياً غيرها؟.. أم أن لها تبرير آخر مختلف، كأن تصور مثلاً أنني كنت مشغولة بدراستي، وأنني لم أكن أفكر أبداً إلا في مستقبلي ونجاحي.

لكم ضايقتني الخالة بسؤالها عن غير قصد، وقلبت مواجعي، حتى أنني

تلوت أمامها مقطّعا من ذاكرتي، وكنت قد أدمنت لزمن، بعد تجربة حبي الفاشلة، قراءة طوق الحمامة، واستمعت إلى أغاني الحب المبكية، وكتبت ثلاثة قصائد سخيفة، كلها تسير في اتجاه ماهية الإخفاق، فاعتبرت ذلك أفضل رد يمكن أن أجيب به الخالة:

- (الحب أعزك الله أوله جد، وآخره هزل (قلبت القولة قصداً)، الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة، في أصل عنصرها الرفيع).....

قالت الخالة، وقد اعتبرتني أتلاعب بها:

- أنا أسألك وأنت تمزحين.

- لا والله يا خالة، أنا لا أمزح، أنا جادة، عشقت نعم، لكن للأسف كان ذلك من طرف واحد.

كانت الخالة في حاجة إلى أن تفهم:

- من طرف واحد يعني ماذا؟..

- أنا التي أحببته.. أما هو فلا.

استشاطت الخالة غضباً:

- وماذا ينقصك يا ابنتي لتحبي رجلاً لا يحبك؟.. من هو ذلك الكلب الذي فعل معك ذلك؟.. ألا يعرف من أنت؟.. من يظن نفسه؟.. أين

يمكن أن يجد مثل جمالك ورقتك وأخلاقك؟.. ابن من هو؟..

ربما كان من الأفضل ألا أخبرها..

- براني يا خالة، ثم ما ذنبه هو؟.. إن كان أحد يستحق الشتم فهو أنا، أنا من فتشت عن صداع الرأس ذاك..

سر الخالة أن أستعيد معها نتفاً من تلك القصة كما عشتها في الجامعة، وظلت تسأل وتستقصي عن الرجل الذي أحببت ولم يجيني، عن اسمه وشكله ولونه، ووظيفته، وابن من هو، وأمه وأبوه وإخوته... كأن الأمر جدي للغاية، وأن العلاقة بيننا لا زالت سمن على عسل..

ابتسمت واتسعت حدقتها، حين أخبرتها أن جمال كانت له عينان واسعتان، وشعر أسود ناعم، وبشرة قمحية، وقامة فارهة، وأني التقيته ذات مرة في مقهى بمراكش، وأنا أقبع مسترخية أقرأ جريدة، بانتظار ابنة عمي سمر، وأنه لم يكن طالباً في الماستر مثلي، بل كان مهندساً متخصصاً في المعلومات.

فرحت خالتي بسذاجة، كأنني أحكي لها عن شخص تعرفت إليه منذ يومين، وثمة ما يكفي بيننا من الأحلام والمشاريع..

قلت لها إن كل شيء قد انتهى من زمان، وأني امتنعت نهائياً عن ذكر معاناتي، وكيف عشت لأيام مشوشة أضرب أخماساً في أسداس، أحاول فك لغز جمال وأسباب مجارتي له، والتمشي برفقته في الشوارع، والأكل

معه في المطاعم، والاستراحة أمام الطاولات في المقاهي.. ثم فجأة اختفى دون سابق إنذار، دون أن تكون لي المقدرة على حدس ذلك، أنا التي كنت أدعي أنني أستطيع التمييز بين الناس من أول جلسة.. من الصادق ومن الكاذب، من الحقيقي ومن المدعي، وأن الجمال لم يكن شفيعي أنا الأخرى في أن يجنبي تلك الصدمة الحقيرة الخرائية، وهكذا ألفتني وقد تلاعب الرجل بروحي وحطمني، فقبعت لأيام حزينة في غرفتي، مكتفية بالجلوس على كرسي، ومضغ ظفر سبابتي..

تجهم جمال ومضى، منذ أن رفضت النوم معه.. فاتحني مرات بطرق ملتوية، وكنت أتحاشاه، فاضطر أن يقولها لي صراحة، عندما كنت مرة مغتربة..

ظل يتكتك لذلك طيلة شهرين، كانا بالنسبة لي أجمل شهرين عشتها في حياتي، أسمعني خلاهما من الغزل وكلمات الحب ما يكفيني دهرًا.. كان بارعًا في ذلك مثل أي دونجوان، وكنت مجرد فتاة عديمة التجربة..

بأي حق فعل ذلك؟.. ثم إن الجنس ليس كل شيء، ألم يجد في حضوري ما هو أكثر تشويقًا منه، مرحليًا على الأقل؟.. ألا يعرف ماهية الحب عديم الإحساس ذاك؟.. وهل التألق والعطور والبدرات وربطات العنق، كل ذلك من أجل جذب كفراشة نحو النار؟..

لم تتفهم الخالة كيف تركت الأمور تجري من دون أن أقدر عواقبها،

فصممت على أن تجزرنني، رغم أنها تعرفني، وتعرف أكثر أنني كرسيت كل جهدي لها ولدراستي، وأن ذلك حصل في تلك المرحلة الصعبة التي غادرت فيها أسفي، وتوجهت إلى الجامعة، وأنني تحاملت على نفسي وتركت الندم ورائي، واعتبرت أن جمال لا يستحقني، وأنه كان الخاسر الأكبر فلم أكتب، واستطعت أن أقدر ذاتي وأستهزيء من نفسي، وأن أعتبر جمال مجرد مخادع وكذاب، كان يدعي أن حياته لا يمكن أن تكتمل من دوني.

- ممكن؟..

تلك كانت أول كلمة نطقها جمال، حينما جلس على المقعد الشاغر قربي بالمقهى، ثم مديده نحو الجريدة..

لم يكن ذلك الاقتحام كافياً للدلالة على وقاحته؟..

ابتسمت ابتسامة عمقت الغمازتين على خدي، كنت أقبع قريباً منه مسترخية في جينز محكم وقميص خفيف، بشعري البني، وعيني العسليتين، بينما هو ببذلة كحلية وكرافة حمراء، كاريز ما جذابة، وكنت أحب ذلك النوع من الرجال.

كنت مبتهجة في ذلك اليوم لسبب لا أعرفه، نوع من الطاقة الايجابية الزائدة، ربما لأن الفصل كان ربيعاً، وزهر شجر البرتقال الذي يملأ الشوارع والأزقة، يجعل مراکش جنة، لذلك كنت على استعداد للرد على كل أسئلته وتقبل فضوله، بكل الثقة المعهودة في نفسي:

- ما اسمك؟..

- شياء.

رد بمكر:

- اسم حقيقي أم مستعار؟..

رفعت كتفي وصمت.

- أنا جمال، بيضاوي، وأنت؟..

- من أسفي.

ابتسم وقال:

- بلاد الزهو والنشاط، الجرة والعيطة.

غريبة!!.. لكن لا بأس، كلهم يقولون ذلك عن تلك المدينة المهملة،
مدينة الشيوخات.

تغاضيت عن التلميح السخيف، وبدأنا نتحدث في التاريخ
والماركوتينغ.

بدالي لحظتها أن الأمور بخير، إحساس بالدفع والخفة، الأوله في
الغرام والحب شبكوني، كم صرت أحب أم كلثوم التي لم أكن أحبها،
ولبست بنفسجي الذي أكرهه، لأن صديقتي سارة قال لي أيامها إنه
مجلبة للحظ..

حكيت للخالدة عن لهفتي، وعن المساجات التي وصلتني، وعن فرنسيته الناعمة، وكيف سمحت له في ذلك اللقاء أن يودعني بقبلتين على خدي، ولو كان بإمكانني أن أقرأ على الخالدة رسائله المليئة بالشعر والموسيقى وتفهمها، لأدركت أن الأمر لم يكن لعباً.

(أعشقتك، وأنتظر الليل فيك وأنت بعيدة، فأتعري مع نجمة تشبهك في سرير السماء)...

(أتخيلك وردة تشتعل بالعطر والشوق والدفء، وأعريك بنظرة حنين إليك، أنت فيها أشهى من شهرزاد)...

(أحس بكل دفئك وأنوثتك، يا طعم الزيتون ورائحة البحر، وجهك قارة للنعاس، فكيف لم أراه من قبل؟.. أنا الذي يشتهيّه أكثر من أي وجه...).

(أشعر بك، أشمك وأتعري في عينيك وذاكرتك ونهديك، أحسك مع أول غناء العصفير، وأنت تستلقين علي، فأتي لأستلقي عليك....).

لم أقل للخالدة أنني احتفظت لزمان بتلك الرسائل، بعد أن نسختها على الورق، قبل أن أمزقها وأرمي بها في الزبالة، وأني كنت أنام وأصحو لأقرأها، ألف ألف مرة، حتى بعد أن أكتشفت أنني كنت مجرد ضحية، وأن جمال كان مجرد زير بنات.

منذ كنت طالبة، والظروف توقعني في شبان تافهين، حاولوا أن يتصرفوا

معي بانتهازية، باحثين عن متع سريعة.. الجنس أولاً ثم بعده العاطفة، ولا بأس من استعارة المفاتيح للخلوات المشبوهة، بيت الصديق الأعزب، لكنني كنت أقطع عليهم الطريق جميعاً، فأنا بنت ترغب في الرومانسية، وتحلم بالورد والهدايا البسيطة، ومستعدة لأن تعطي مقابل ذلك الحنان والرقّة، ولست واحدة يمكن أن يغويها رجل، لئلا تتزع منها حياتها وفرحتها بعد أن يحملها سفاحاً ويفضحها.. وإذاك لن تنفعها آلاف الشكاوى..

- أليس كذلك يا خالة؟..

قالت الخالة بلطف:

- معك حق، من غير حب، لا تكون سوى المشاكل..

- ثم ألم تخبريني أن جاراً فظاً غليظ القلب، كان (يُسرّح ويُمْلَح) زوجته الحامل لأنفه الأسباب بحزام بنطلونه؟.. لدرجة أنها أنجبت طفلها أحول؟.. وآخر كان يقذف زوجته بكل ما هو بقربه، تيمومة، مجمر، منفاخ، يد الهاون؟..

تعكر مزاجها بقولي:

- كل الرجال كذلك، أما أنت فعقلك كبير وترزين الأمور بشكل جيد، وحسناً فعلت أنك تركت ذلك الكلب وانتبهت إلى دراستك.

سؤال الخالة المتأخر عن تجربتي، منحني الإحساس بالراحة، كأنها مسحت بكف من حرير ما تبقى عالقاً في قلبي من ضجر..

اقترحت علي الخالة فجأة أن نخرج ونسير باتجاه عقبة بياضة الخلفية،
أحببت أن تنهي الموضوع وتقلب الصفحة ..

قلت لها ضاحكة:

- أين كنا وأين صرنا يا خالة!!..

كانت الخالة تعرف أنني مدمنة غروب بامتياز، ثمة أوقات مفضلة لدي
فيها دواء للملي، في أجواء أسفي الرتيبة، المشهد السريع للشمس الذي يتخذ
أوضاعاً كثيرة وألواناً مذهشة، من الوردي الشاحب إلى القرمزي إلى الأحمر
الناري... تنويعات تتشكل بالتدريج لترسم لوحة أخاذة.

ميزة حي الخالة الجديد قربها من البحر، نلف إلى الغرب فنرى الشفق
من الهضبة، بؤرة الضوء فوق سطح الماء، وقد صارت خافتة بعد أن كانت
كبيرة لماعة، وكأنها قرص من الذهب الأحمر، ثم النوارس التي تحلق في
الأعالي والبواخر... عرض فني طبيعي يجري في الفضاء الرحيب.

لدي كوكتيل من الصور الملونة بالأحمر والبرتقالي، التقطتها بكاميرا
هاتفني، ونشرت دزينة منها في الفيس بوك على صفحتي.. مرات خطر
ببالي أن أبروز بعضها وأقيم معرضاً، كانت لدي ثقة عالية أن ذلك شغل
فنانة محترفة، لكن أين وكيف؟..

بصعوبة كانت الخالة توافق على الالتفاف معي إلى خلف الحي والانخراط
في التأمل، رغم كل الإغراءات، كنت أعدها بأن أشتري لها الذرة والحلزون

وحبات عباد الشمس... تلك التسليات التي كنا نقضي وقتًا حولها في المساء، غير أنها كانت تتذمر وتقول لي إن غروب الشمس لا يعني لها شيئاً...

في المساء تخف الرطوبة ويصفو الجو، وإيّا ما كان سبب اقتراح الخالّة للخروج، للتخفيف عني أو للتخلص من الحوار، فسأنتهزها فرصة ولن أتخلّى عن تلك الفكرة، سأشتري قرطاساً كبيراً من بذور القرع وعباد الشمس المملحة، وسنظل نمرره بيننا، بعد أن أقترح على الخالّة أن نذهب أبعد، أن نركب طاكسي ونصعد سوياً إلى سيدي بوزيد، ما دمت لم أقتن سيارة بعد، لأنني أعاني من فوبيا السياقة.. هنالك يمكن أن نجلس على سور الكورنيش براحة، ونحن ننظر إلى جهة الغرب، حيث سيغطس قرص الشمس في الماء.

كنت أحلق لأسفل أحياناً، نحو الأمواج البعيدة، التي تبدو كـرغوة بيضاء فوق سطح الماء الداكن، مع تحويل بصري على نحو متكرر، بهدف اللحاق بآخر مرآى لقرص الشمس وهو يهبط أسفل، نحو أمريكا التي جاءت منها البواخر واحتلت أنفاً في الأربعينات، فالتحفت النساء بـ (الكسيات)، وخرجت معهن جدة أم هاني إلى الدرب، وسمعت يهودية تقول لأخرى، تصنعي البكاء مثلهن، فهؤلاء هم من سيكون لنا معهم شأن!!...

بدأت أشعر أنني سأستأنف مسيرتي مع الخالّة، التي جلست مستسلمة تتنهد بين الفينة والأخرى، ومنذ ذلك الحين، صارت تعرف أن شيئاً غامضاً ومريحاً، يمكن أن تجلبها لها تلك الجلسة..

اسمه علال زوجي الرابع، وكان صاحب ورشة نجارة كبيرة، تقع خلف الصيدلية الفرنسية الكبرى، على خط تماس مع سيدي الجزولي، وسكة الحديد المتجهة إلى الميناء.

رجل أربعيني مطلق، ثقيل السمع، ولديه من زوجته الأولى ابنتان تعيشان معها، وكنت قد رجوته بعد أسبوع من زواجنا أن يرجعهن إلى البيت، وأن نعيش معاً كأ أسرة واحدة، ولما لا؟.. أجرب أن أعيش مع ضرة تؤنسني وأؤنسها، وتبادل الأدوار الليلية، أنا وهي بخصوص علال، عوض أن يستفرد بي، ويظل ملتصقاً بي مثل العلقة.

أزعجني أن أتزوج مرة أخرى، وأن أترك بيوت خالاتي وعماتي، وصحبة بناتهن الطيبة، والضحك والتمشخير، والعمل الجماعي أو تقسيم الأدوار في المطبخ، وباقي المرافق..... وأذهب إلى حيث لا أدري.. لكن ما العمل؟..

كنت في الخامسة والعشرين تقريباً، عندما قالت لي خالتي لالة فاطمة، التي كنت أشعر بالأمان في بيتها:

- أتودين أن تظلي عبئاً على الآخرين يا ابنتي؟.. من هي هذه المرأة التي تستطيع أن تؤويك، مهما كانت علاقتك بها قوية وحميمة؟..

وراحت تسألني এমন سیصرف علی ویلبي طلباتی؟.. من سيشترى لي الأحذية والشراب والجلايب والذهب؟.. ومن سيدفع عوضاً عنها ثمن

الأدوية إذا مرضت لا قدر الله، وأنه بודהا أن تفعل، لكنها لا تستطيع، تعرفين الحياة والغلاء، ثم إن الزواج ستر وغطاء، خاصة لشابة مثلك، جميلة ويثيمة.

لم يكن ثمة شيء ليشغل الأهل عن التفكير في تزويجي، كانوا يتبادلون الأحاديث والاقتراحات بخصوص الخطاب، ولا يهنا لأحد منهم بال، إلا بعد أن يلتموا حولي فرحين، ومخرسين الألسنة، فأم هاني ما عادت مطلقة، بل هي مصونة لأنها صارت في عصمة زوج.

قالت الخالة إنها لم تكن تتواصل مع علال بسهولة، وكانت تفضل ألا ترد عليه حين كان يصرخ طالبا شيئاً أو سائلاً عنه، كانت تخشى أن يظن الناس أنها تتشاجر معه، لأنها عندما تضطر أن تصرخ مثله، ويعلو صوتها، ستبتد تلك الفكرة عنها أنها امرأة رقيقة وطيبة، وسيقولون عنها بدل ذلك، أنها (صلصلوية)... ثم تلك الأسرار الأخرى بالليل!!.

لكن رغم ذلك، كان علال يمتلك الكثير من المزايا الحسنة، خلافاً لكل أزواجي الآخرين، الحق يقال، كان يحب الذهاب إلى السينما مثلاً، ومرات أخذني معه، كان من النوع الذي يود أن يقتسم الفرجة مع الآخرين، إن لم يكن مع أصحابه، فلا بأس بأن يكون معي..

وحين كنا نعود إلى البيت في المساء، كان يستمر طويلاً في استعادة ما شاهد، والتعليق عليه بالصراخ، وأنا كنت أظل فرحة ودائخة من نور

الشاشة، الذي كان يبقى لمدة طويلة يغشى بصري...

تفرجت معه على (وداد) و(الوردة البيضاء) وعلى (دراكولا)، وكينكو (كينغ كونغ)، واشترى لي مرة كيس كستناء مشوي على الفحم، من العربية التي كانت تقف عند مدخل سينما رويال، وكان المطر يهطل مدراراً.. وأمرني ألا أفتح الكيس إلا بعد أن ينطفئ النور، وبإمكاني ساعتها أن أقشر الحبات بلطف، وأكلها من تحت النقاب.

أسفني كانت شيئاً آخر يا شيماء، مدينة خالية من المشاكل والعيوب، نجوبها كلها في ساعة أو ساعتين، ولم يكن أحد يستطيع أن يفترض أن تنتهي هذه النهاية القبيحة.

في الطريق إلى ورشته، كان علال كثيراً ما يأخذني إلى أهلي، العمات والخاللات وبنات العمات والخاللات... كان من الصنف المؤمن بصلة الرحم، إيماناً لا يزحزحه شيء، وكان يردد أن الله أوصى بذلك، ولا يتركني إلا بعد أن يطرق الباب طرقتين قويتين، ويكح ويتنحنح، وعندما يسمع صوتاً نسوياً من الداخل، كان يغادر مطمئناً وهو يأمرني بألا أعود بمفردي.

كنت أسمعها يأمرني وهو ذاهب:

- سأمر عليك عند المساء، كوني جاهزة بعد صلاة المغرب.

استبشرت خيراً بتلك البداية الطيبة، قلت مع نفسي ها هو الحظ سيحالفني هذه المرة، وأن هذه التجربة لها خصوصيتها مادامت فيها سينما، وصلة

الرحم، وكيس الكسثناء... في وقت كان من النادر على رجل، أن يكون بصحبة زوجته في مثل تلك الأماكن..

لكن للأسف سرعان ما أدخلتني الخالة في اليأس، وكسرت مجاديفي، وألقت بي مرة أخرى بعيداً عن متناول قصدي.

لم يكن (المعجون) غريباً عن الخالة، ولا هو شيء خارج عن المألوف، لقد كان جزءاً من الطقوس اليومية تقريباً، يستهلكه الناس مثلما يستهلكون الكثير من الأشياء التي تفرج الهم وتعدل الأمزجة، وتجعلها في الأعلى، وتستدعي الضحك المमित من غير سبب.

الكثير من أفراد العائلة، خاصة الذكور، كانوا بارعون في تهيئته: قعقلا، بسييسية، الكوزة، لسان الطير، اللوز والجوز.... وفي المناسبات ينتهزون الفرصة، ويوزعون على الحاضرين، أو يوزعون (غريبة) بدلا منه.

يوم تناولت الخالة المعجون لم يبهجها كما حكّت لي، ولم يجعلها تدخل في تلك النوبات من الضحك المديد الصامت، كما يحصل مع عباس، بل بالعكس، أدخلها في حالة من الهوس والفوبيا..

انتهزت فرصة غياب الزوج ذات عشية، وأخذت ملعقتين من جبانيته التي كان يضعها في خزانته، كانت تود أن تجرب نفس إحساسه، وتتولد لديها الرغبة في الضحك، الضحك الصامت من لا شيء، لكنها أخطأت عندما قامت وخرجت من بيتها مباشرة بعد بلعت الملعقتين من ذلك المعجون الحلو..

كل شيء صار حول الخالدة يمد ويتهاوى، والوجوه تتداخل ملامحها وتختلط كأنها هي منعكسة على صفحة متواجة من الزيت، وأخذت البيوت والأبواب تمر أمامها تباعاً، وهي واقفة، وكانت تتمنى لو يمر باب بيت خالتها أو عمتها، أو أي قريب أو قريبة لتدخل وترتاح، خاصة عندما استطال أنفها، وامتد إلى الأمام مقدار نصف متر، فحركت كفيها مكرهة لتحميمه، ولا تتركه عرضة لأن يصطدم به المارة..

تابعت أنصت إلى الخالدة بمرح، تصورتها وهي على تلك الحال، امرأة وحيدة محششة، تقف عند ناصية الدرب، وقد فقدت مداركها وخيم عليها الشعور بالفرع، والناس ينظرون إليها مستغربين، وهي تدفعهم بعيداً عن أنفها.

لم يسبق لي أن تحششت ولا عشت تلك التفاصيل، لكن سمعت حكايا كثيرة عن ذلك، واستمتعت بذلك التأثير المضحك الذي يحصل للبعض.. شيء أشبه بالحمق المؤقت.

قلت لها معلقة، وراغبة في أن أسمع المزيد:

- يبدو أن عقلك خفيف يا خالدة.

- جداً يا شيماء، ملعقة أو ملعقتين من المعجون كادت أن تحمقني، ربما كانت المقادير غير مضبوطة، عباس يخرج أحياناً، لذلك كان مفعوله عكسياً.. تصوري.. مرة وزعت جارة في (المكفول) نوعاً قوياً.. بعض

النساء صرن يرضعن أطفالهن من المؤخرات، هاهاها.. إحداهن نامت على ظهرها وعلقت رجليها، وأخرى شرعت تصرخ خائفة من القردة التي صارت تراها تتقافز من حولها!!....

وراحت تستظهر كيفية التخلص من تأثير المعجون، دون أن تسأل نفسها ما الذي يمكن أن يورطني فيه:

- إذا تورطت مرة يا شيماء، ابلي ملعقة من السمن البلدي واشربي براداً من الشاي، سيتلاشى مفعوله السيئ بسرعة.

والذي كان يطلب أحياناً من أمي أن تحضر شيئاً من المعجون من زوج خالتي سمية، هنالك بيوت معروفة بإجادتها تحضير تلك الوصفة، كان والدي يحبه، لكنه لم يدمنه على الإطلاق.

أجهل كم مضى من الوقت، عندما عدت بالخالة إلى موضوعنا الأصلي:

- كان علال لطيفاً معك في ما يبدو يا خالة، السينيا والكستناء، ويعلم الله أية أشياء أخرى لم تفصحي عنها بعد، أليس كذلك؟..

ابتسمت الخالة في صمت.

تابعت أشجعها بصوت ناعم:

- كان مولعاً بك، أليس كذلك؟..

ضحكت وقد استعادت صورة للمساة حميمة، كان يوقعها عباس على جسدها البض، برضاها أو من غير رضاها:

- كان يتحسني ويجوس لحمي بيده اليسرى، مثل سراق الزيت (الصرصار)، وكان يستعمل اليمنى رغم أنها كانت خالية من السبابة والإبهام، قطعهما سهوًا ذات يوم بالمنشار، وكان ذلك يضايقني.

- جميل جدًا، ثم بعد؟..

- بعد ماذا؟..

- رجل له كل تلك المزايا لابد أنك انسجمت معه، وكنت راضية عنه، هل يمكنني أن أسألك عن النوم معه، هل أمتعك؟..

أحنت الخالة رأسها قليلًا، ثم بعد ذلك هزت كتفيها على مهل، وبطريقة طبيعية للغاية ردت وهي تمط شفتيها:

- لا أدري.

- لا تدريين؟.. ومن يدري؟.. أنا؟..

ضحكت:

- في الواقع لولا أنفاسه المدوخة، ربما كان حصل ما تقولين، عباس حقق لي أشياء كثيرة، وكان مختلفًا عن بقية أزواجي، كان بمجرد ما يصلي العشاء يتفرغ للمعجون، تلك الملاعق التي يتناولها على مهل، كانت تجعله

شخصاً آخر، يتكلم بهدوء، ويضحك، ولا يعنيه إن كان يسمعي أم لا.

كانت الخالة تقبل على مضض أن تراقب أوراق الكيف، وهي تغلي لساعات على مهل فوق الفحم، قبل أن يعود عباس ظهراً ويعزل الزيت عن الماء، الزيت الأخضر قوام المعجون، الذي كانت الخالة تشبهه بالمازوط.

كنت أود أن أسألها هل كان يحلو له الجنس مع التبوية؟.. وهل كان سي إبراهيم قادراً على الانتصاب؟.. وكيف كانت تبدو له الخالة ساعتها؟.. مجرد ملامح متداخلة، كما حصل لها، أم أنها تزداد ألقا وبهاء في عينيه؟..

شعرت كم أن تلك الأسئلة مخجلة، وتنقصني الشجاعة الكافية لطحها، وأن الخالة لا تكون تلقائية وفي كامل الراحة، إلا إذا لم أحاصرها بالأسئلة، وأن ما تحكيه عبر تلك الحياة البعيدة والغنية، أكثر أهمية من الحديث عن النوم مع الأزواج، ومعرفة أخبار الأورجازم.

أخذت أفكر بتلك الكيفية، وأتلهى قليلاً باللعب بلفافة الخيط الفارغة، التي كانت قد وضعتها الخالة على حافة المائدة، بانتظار أن ترميها في القمامة..

لو كانت زوجة أخرى لاستغلتها فرصة ونامت مع علال منتشية.. ماله المعجون؟.. هنالك من يتناول ما هو أسوأ من أجل أن يستمتع بالجنس، يدخن (الصواريخ) ويحتسي الويسكي ويشاهد البورنو ويتلع أقراص (حبوب السعادة)، وسائر المنشطات المتاحة..

يعن لي أن أترك الخالة أحياناً وأجنح بالخيال، وما الغريب في ذلك؟..

تلك العوالم البعيدة بتفاصيلها يمكن كتابتها كما روتها أم هاني، وما تبقى عن الاورجازم والطلاق بإمكانني فبركته..

هل يمكن أن يتسنى لي كتابة ذلك بتلك الكيفية؟.. وما المشكل، إذا كانت الكثير من الكتابات الصحفية تفبرك وتتجنى؟.. من سيتقصى ومن سيسأل؟.. خاصة وأن الخالة أخبرتني أنها تسلفت ذات صباح من بيت النجار، كما تتسلل الريح من بين الشقوق، ولجأت إلى بيت خالتها لالة فاطمة، التي حبكت مع أقربائها ذلك الزواج، مقررّة عدم العودة إلى علال مهما كان الثمن..

أوجزت الخالة وقالت إن الدوخة صارت تلازمها منذ أول أسبوع عند علال، وعندما صار الكل ضدها، وأنهم لم يجدوا أي مبرر يدعوا إلى رغبتها الحمقاء في الطلاق، قالت إن رائحة أوراق التبغ المغلية في المطبخ الصغير، يعبق بها البيت، وأنها صارت تعلق بجلدها وبالملابس والأواني والجدران، ولا تستنشق شيئاً سواها، وأن ذلك شيئاً صار فوق طاقتها..

وهكذا تخلّى عباس عن الخالة مثلما تخلت عنه، خاصة حين رأى كيف لم يشفع له شيئاً عندها، لا السينما ولا صلة الرحم، ولا الكستناء المشوي على الفحم أمام سينما الملكي، وأنه ذهبت امرأة وستأتي أخرى، وكان الله في عون من سيقبل بالخالة كزوجة سخيّة وعقلها خفيف!!..

عندما اضطرت أن أعبر عن إعجابي بالخالة، وأن أقول لها إنني لم أكن أتصور أنها بتلك العظمة، وأن الطلاق والعيش بمفردها، الذي لم يكن يعني لها شيئاً، أكد لي أن كرامتها فوق كل اعتبار، وأنها امرأة حرة، أحست بالفخر وداخلها السرور، وصارت تنبش أكثر في الماضي.

كنت أعرف أن التبكيت ليس من ورائه أي طائل، وأن نفسية الخالة لا تحتمل اللوم، بل بالعكس، كلمة أو كلمتين حانتين، وتبدو الخالة بعدها مشرقة وأكثر حفاوة وإمتاعاً للآخرين، الآخرين الذين بالدرجة الأولى أنا. كل تلك الأشياء التي تحدثت عنها في ذلك الزمن كانت تعينني، وكمغرمه بالتاريخ، كان يحلولي أن أدفع بخالتي أم هاني باتجاه الماضي.

كنت أستحثها على القول مثلاً:

- يا اه، كم تغيرت الحياة يا خالة!!.. ويعلم الله ماذا تحبى لنا الأيام في المستقبل.

سألتها مرات عديدة عن العادات والتقاليد، وعن الشائعات التي كانت تنتشر بسرعة البرق، من غير ما حاجة إلى الميديا، الأماكن وطرق العيش، الأحداث الكبرى، الاحتفالات، أيام السببية (الفوضى) والجوع والتيفويد، الحرب العالمية الثانية، الذين ذهبوا ولم يعودوا.. الاستعمار، محمد الخامس، الاستقلال.. سخينة اليهود يوم السبت في الأفران الشعبية، المواصلات، والنزاهة في سيدي بوزيد وامزوغن....

الخالة لا تفك الحرف تقريباً، لكنها تعرف الأرقام وتكتب اسمها المركب بشكل مرتبك، تعلمت ذلك من زمن انتهائها القصير إلى دروس محاربة الأمية في بداية الاستقلال، لكن إمكانية استعادتها للماضي كمكان وزمان، بالاسم والتوقيت كانت استثنائية.

قالت لي مرة وهي تتحسر على عدم إتاحة الفرصة لها لإتمام تعليمها:
- كم كن محظوظات بعض البنات من جيلي، ممن تعلمن بمدرسة المدينة للبنات، كن يصعدن إلى المنصة ويلقن (خطباً) في حفلات عيد العرش أمام الجماهير، مستعملات الميكروفون، وكان أهلهن يفخرن بهن لأنهن مثقفات وواعيات.

لم أضطر أبداً إلى أن أصحح لها بعض المعلومات، في ما يتعلق بالتاريخ القريب، أخبرتني ذات مرة ونحن نعيش طقساً غربياً، استمرت السماء فيه تمطر لمدة أسبوع، أن آخر (حملة) أغرقت المدينة كانت في بداية الخمسينات، فأفسدت كل شيء، السلع والمؤن والأثاث في البيوت... وعندما عدت إلى الوثائق تأكدت من صحة ما قالت.

لا بد أن تاريخها واحداثها الشخصية والعائلية تتسق في ذهنها بنفس الدقة والترتيب، وعليه، عندما جاء دور الحديث عن أزواجها، واحداً بعد الآخر، كنت على يقين أن ما سترويه لن يجانب الصواب في شيء.

أدرك أن ثمة أشياء غير طبيعية في الخالة، وأنها منجذبة إلى بعض الأمور

الخطأ، وراضية بها، مما يجعلها شخصاً مثيراً للفضلكة، لكن بخصوص اللطف والرقّة والصدق والطبخ والمتع والتسلّيات والوفاء وصفاء الذاكرة، لا أحد يجادل في ذلك...

أعرف أنني سأكون محبّطة ومغتاطة، كصحفية متحمسة، لكنني كرسّت جهدي أن أتقبل من الخالة كل شيء، ثمّة ما يكفي في الحياة من الفوضى واللااستقرار، المعقول واللامعقول، المفارقات..

بهذه المشاعر كنت مستعدة لتقبل الأمر، واعتبار زواج الخالة قرارات منفصلة عنها، ومفروضة في نفس الوقت، فهي ضحية للجهاز، لكن ما كان يحز في نفسي أن يكون استهتار الخالة أحياناً، ومزاجيتها ومطبات طباعها نقطاً سوداء محسوبة عليها، وهي التي حالت بينها وبين النجاح.

تلك الليلة روت لي أشياء كثيرة ومثيرة عن زوجها الخامس، تاجر الألمونيوم بسيدي بو الذهب، الذي كان يسمى سي إبراهيم، أشياء متشابهة في الروتين والحياة اليومية مع ما سبق، وأخرى مختلفة، تتناسب مع ذوق سي إبراهيم ومزاجه وطناطنه...

وأغرب ما في الأمر تلك الحكاية التي ورط فيها الخالة، ودفعها إليها عنوة، وكانت تلك هي ما قلب موازين الخالة وجعلها تقرر مصيرها من جديد، وتقطع دابر تلك الزيجة، وترحل تاركة أمر الزواج خلف ظهرها إلى الأبد، أو هو ما تركها، بعد أن صار (رسم) زواجها وطلاقها في حجم حصيرة، على رأي المتحكم أبي.

لم أكن أعرف من هو سيدي ششكال ذاك، الذي رأى في منامه ملاكًا أعطاه ترخيصًا بحج الفقراء إليه، كالحج إلى مكة.. لكنني اكتشفت أنه ولي غامض، يتربع ضريحه على صخرة معزولة شبه دائرية، بالساحل قرب (كاب كانتان)، داخل بناية لا يوجد بها أي تابوت، سقفها من الخشب وعظام الحيتان، تحيط بها مياه الأطلسي، التي تعزلها عن اليابسة عندما يعلو المد..

- الحج؟..

سألت الخالة مستغربة، وقد أحسست أن شيئًا ما في الأمر غير واضح.

- الحج الحج.. ألا تعرفين؟.. إنه سيدي ششكال..

كان هرج العيد على أشده، نشطت المدينة وحولت الأغنام المنازل إلى حظائر تفوح منها رائحة البعر، وصار التبن والقش يباع في كل مكان، في سوق الغزل وعند باب الشعبة ومداخل الأزقة والدروب، ونشطت معها تجارة السكاكين والتوابل والمنافخ والأسياخ.

عندما وصلت الخالة إلى هناك، كانت الشمس مشرقة والسماء صافية، وكان البحر هادئًا أشبه ما يكون ببحيرة.

قالت مغتظة:

- استجمعت قواي (على وعدي وسعدي)، واشتركت غصبًا عني

مع حبيج مختلط من البوادي والأحراش، رجالاً ونساء وأطفالاً حليقي
الرؤوس، وطففت معفرة القدمين بالرمل سبعة أشواط تحت الشمس
الحارقة.. تصوري!!..

قلت لها مرتابة:

- لا تمزحي يا خالة أرجوك، ولا تدوخيني.

شبكت كفيها البضين حول ركبتيها، وطلبت مني أن أسأل إياً كان،
فهني لا تمزح:

- من لا يعرف سيدي ششكال في طريق البدوزة؟..

- غريبة.. كيف فاتتني هذه؟..

فكرت أم هاني ألا تتم المناسك، كانت لا تزال أمامها أشواط أخرى
من التعب.. تصعد هضبة الولية (لاله نواره) الوعرة المليئة بالشوك، والتي
هي بديل لجبل عرفات، وتشرب وتغتسل، وتملأ قارورات من بئر هناك
يسمونها بئر زمزم!!..

فماذا تفعل؟..

حاولت أن تتحایل على زوجها متظاهرة بأنها فقدت الوعي، فارتمت على
الرمل ونامت مكومة على جنبها، وسي إبراهيم الذي لا تفوته فائتة، يعرف
حيلها الطفولية المضحكة، لذلك دقق فيها قليلاً ثم أنبها مستعجلاً:

- قومي، قومي وإلا سأكسر لك رجلك، هذا ليس وقت الفشوش،
عندما تعودين إلى بيتك تدلي كما تشائين، أنت هنا في الحج!!.. لبيك اللهم
لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك..

وظل يمشي خلفها وهو يزعم نافذ الصبر:

- تحركي، تحركي، هل تمشين على البيض؟..

إنه (حج المسكين)، هكذا أوضح لها في البيت، حين ود استدراجها
للذهاب معه، قال لها جادًا:

- أجدادنا كانوا يحجون هناك، من تعذر عليه السفر إلى الشرق يحج
هنا، وأنت في سيدي ششكال كأنك في مكة، عند العودة من هناك سيناديك
الناس بالحاجة، ما رأيك؟..

قالت له في البداية حرنة:

- أجدادك أنت وليس أجدادي، أجدادي كانوا يذهبون إلى مكة والمدينة
بالفعل، وليس إلى سيدي ششكال..

نظر إليها إبراهيم من غير نعومة وشدها من ساقها البضة، ثم جرّها
نحوه:

- أنت أيتها المبرزطة.. آآه لولا حمقك!!.. أحيانًا يقول لي رأسي أن
أخذك إلى (بويا عمر)، وأتركك هناك في (الخلوة) حتى تحمضين، أو أذهب

بك إلى مرشيش، وأجعلهم يسلسلونك في ذلك المستشفى العفن حتى تعرفين أن الله حق، فإما تعقلين، وإما تجنين رسمياً، وننتهي منك ومن صداك.. هاهاها..

وراح يذكرها بالحماقات عملتها، منذ وطئت قدماها أرضية بيته، وتحدث عن عنادها، وقال لها إنها من النوع الذي (يخاف ولا يحشم).

الوسيط الذي لعب الدور ما بين عائلة الخالة وسي إبراهيم، نقل صورة مشرقة عنها، قال إنها امرأة حسناء وربة بيت لا يعلى عليها، لولا الحظ، ولم يذكر أي شيء يمكن أن يسيء إليها، بما في ذلك مزاجيتها وانفلاتاتها المزمنة.

قطعت الخالة مع زوجها في الصباح الباكر، مسافة ما يزيد على ثلاثين كيلومتراً تقريباً، داخل حافلة بالية شديدة الارتجاج، ذات مقاعد صلبة، وملأى بالأصوات والروائح الكريهة، رائحة التبغ والعرق والمازوط.

تأففت الخالة من ذلك بصوت خافت، فلكزها زوجها في جنبها، وكان قد أجلسها لصق النافذة وجلس بجانبها، وألزمها أن تبقى صامتة..

ساروا عابرين طريقاً ساحلية ضيقة وملتوية باتجاه الشمال، على أطرافها اليمنى أراض صخرية لا تصلح للزراعة، وعلى يسارها مهاوي رهيبة وجروف وعرة، تحوم في فضائها أسراب النوارس والغربان، حيث السيارات المنقلبة بالسكاري العائدين ليلاً من حانة الكاب.

منذ أن هدد الزوج الخالة ببويا عمر، ومستشفى مرشيش للأمراض العقلية، لم تكف عن الدفاع عن نفسها، كانت تنتهزها فرصة لتعاتبه:

- ماذا فعلت لك لتتمنى لي ذلك؟.. اسم الله علي، أطبخ لك ألد أكل، وأنظف البيت أحسن تنظيف، وعملت القديد الذي أضعه لك في العدس، ورقدت مؤونة عام أو أكثر من الزيتون الأخضر والأسود والفلفل الحار والليمون والكبار، وأعمل المربي بكل أنواعه، السفرجل والبرتقال والمشمش، والبيت على رأي المثل، ابصق في شونك ولا تبصق فيه.. مراية.. فماذا تريد مني أكثر من ذلك، ماذا ينقصك؟..

فكان يرد عليها في الحال:

- أنت من ينقصك هذا (مشيرًا بسبابته إلى صدغه)، مادام هذا غير موجود، فلا معنى لكل ما تفعلين!!..

لم يكن عند الخالة تلفون في البيت، حين أملى عليها زوجها قراره بالسفر، الهواتف أيامها كانت قليلة لا يملكها سوى (التجار)، ولم لو يكن المساء قد حل، لذهبت أم هاني إلى البريد لتخبر أحدًا من أقاربها، وتقول لهم إنها ذاهبة إلى الحج!!..

من سيدي ششكال إلى بيت خالتها مباشرة، هكذا تركت الخالة إبراهيم في ذلك المساء قبل العيد، وعادت سعيدة إلى قواعدها سالمة، لتستمتع معها بأكل لحم الرأس في الصباح، وتفرج على الناس وهم يتراشقون بالماء يوم

بوهيروس، وفي المساء تتابع من شق الباب أو من السطح، الفرجة على هرج وموج السبع (بولطايين)، ذلك الفتى الذي يخرج إلى الدرب مغطى بفراء الكبش، وواضعاً على رأسه قرنين، يصاحبه الصياح والأهازيج..

قالت الخالة منتصرة علي:

- عذراً يا شيماء، بعد هذا الذي سمعت، هل تبقى لدى الواحدة منا الرغبة في الزواج؟..

- أبداً والله يا خالة، كان الله في عونك، ما هذا السخف؟..

- أرايت؟.. ومع ذلك كلهم يقولون إنني أنا السبب في الطلاق!!!.. هل يعقل ذلك؟.. لو كنت مكاني، ماذا تراك كنت ستفعلين؟..

أيقنت أن الخالة إن لم تكن ناضجة بما يكفي، وتنقصها تلك المقتضيات التي تكون بها النساء خائعات، فكل ما أبدته من ردود أفعال، ساهمت فيها تلك الزمرة من الأزواج.

طبعاً ليست الخالة وحدها من شهدت مثل تلك التجارب، كل النساء سواسية في ذلك، كثير من فروض الانضباط والطاعة، وقليل من الشكوى، وهن مجبرات لأسباب قاهرة أن يقبلن بالتعايش، بينما الخالة بالمختصر المفيد كانت تزدرى ذلك الوضع، وتعلنها حرباً شعواء على الظالم والمفتري، مطبقة قانونها الخاص، دون أن يجبرها شيء على الخنوع، حتى يمين الطلاق، الذي كانت تغادر إثره بيت الزوجية مفعمة بالإحساس بالتححرر، كما لا يخطر لامرأة نسوانية على بال!!!..

لم أعرف بالمناسبة شيئاً عن نوم الخالة مع سي إبراهيم، ما عدا سبب الطلاق، الذي أصبحت الخالة بعده حرة...

أنا والخالة صنفان من البشر، نرى الدنيا بعيون مختلفة، ونقيس الأمور بنزق، ذلك ما تدعيه بعض المتحذلقات، ممن ظلمت أحاول أن أتجنبهن، بل يرين في الخالة واحدة يمكن أن تجلب الضغط وتعجله بالكمد، أما بالنسبة لي، فالخالة لا تحتاج إلا إلى القليل من الفهم، ودرجات أعلى من الصبر، وفي أحيان أخرى بعض التواطؤ.

أشاطر أُمي الرأي، أن الخالة مثلها مثل بعض أفراد العائلة، تمتلك شيئاً من الهوس والطباع الانقلابية والنزوات، غير أننا كلتنا، كان ذلك يجلب لنا المرح.

كل قصة أو حكاية أو نوادر تروى، لم تكن تجد أُمي بينها وبين الهبل أيما علاقة، بالعكس، كانت تفهم ذلك على أنه نقائص، جاءت إليهم من الاحتفاظ بدمائهم الأندلسية نقية دون اختلاط، وبرفضهم أية زواجات خارج شجرة النسب!!.. مما زاد للأسف من عدد العوانس، وتسبب في ظهور عناصر من المهووسين والمهووسات، لكن من النوع الذي يبعث دوماً على الانسراح.

المهووسون من الرجال اكتسبوا لأنفسهم كنيات فوق ألقابهم الأصلية،

أطلقها عليهم الرعاع، وظلت قائمة رغم مرور الأعوام، قوينصو، الرايكا، الزقيوة.. وصاروا عجائز ورغم ذلك بقيت الكنيات لاصقة بهم، ولا يعرفون إلا بها في الشارع.

وكان الباعة يكدرونهم باستفزازات تثير حفيظتهم، أولئك الذين يقفون ليتشمسوا أمام الحوانيت، لأنهم أصلاً كانوا إما متعجرفين، أو يقرفون ممن يقترب منهم، أو يهشون المارة في الأماكن العامة، وفي الطريق يكلمون الخيالات، خاصة السكارى منهم، القادمون من زانزي بار، أو المحششين على الدوام بالمعجون..

المستفزون الذين ينادوهم من الخلف بتلك الكنيات، يعجبهم أن ينصتوا إليهم وإلى شتائمهم.. من بعيد لبعيد، فتصلهم إلى حيث هم: الصلكوط، ولد السوق، المهيف..

أكثر واحد مضحك ومثير للجدل هو (الرايكا)، كان يرتدي الجلباب في رمضان، ويحمل السجادة والمسبحة ويذهب إلى الصلاة في المسجد، ثم فجأة بعد العيد، كان يهرع عائداً إلى جلسته خلف الكونتوار في الحانة، وأمامه على بعد شبر صدر راشيل الوفير، البارماتة اليهودية المعروفة، ومنفضة السجائر، وأغاني جاك بريل وايديث بياف... وفوقه المروحة.. non, je ne regrette rien

يجلس جلسته المعتادة فوق المقعد العالي، ليرقب كل داخل وخارج،

ولا شغل له ولا مشغلة إلا الشتائم، ورؤية كيف يشرب الآخرون، وماذا يفعل هذا وماذا يفعل ذاك، جائلاً بعينه بين الموائد...

يعرفهم جميعاً رواد زانزي بار، فرداً بعد آخر، وحين كان لا يأتي أحدهم، خاصة أصدقائه، كان يسأل عنهم النادل الذي يوزع القناني ويفرغ المنافض:

- ألم يمر اليوم فلان؟.. ألم تره؟..

لكن هناك بالمقابل من كان يتحاشاهم بالمرة، ويبدو مغتاضاً منهم، وعندما كانوا يدفعون الباب النصفى دالفين نحوه، كان يتمنى لو يستطيع أن يمنعهم من الدخول، ويأمرهم بالعودة من حيث أتوا..

كان من عادته أن ينحني برأسه ليرى الأحذية، شكل الحذاء بالنسبة للرايكارمز للشياكة، ولو كان الحذاء مغبراً، ومهما كان غالي الثمن، فذلك عربون على الهمجية وقلة الذوق، ولا يستحق صاحبه أن يشرب في بار. مرة صرخ يسأل البارماتة بصوت أعلى من صوت الموسيقى، وهو يتطلع إلى رجل أسمر:

- ماذا يشرب ذلك (العزوة) الجالس في الزاوية هناك يا راشيل؟..

ردت البارماتة في تواطؤ وهي منشغلة بمسح كأس:

- ويسكي.

- ويسكي؟ .. وبماذا يخلطه؟ ..

- يخلطه بكوكا.

التفت الرايكا مسعورًا نحو الرجل البعيد، الذي توجد أمامه نصف قنينة من الويسكي، يسكب منها بنفسه، ويشعل واحدة من سجائره، وناداه صائحًا:

- أيها الخبيري (الجاهل) ماذا تفعل؟ .. هل هكذا يشرب الويسكي؟ .. أين تعلمت ذلك لعنة الله عليك .. sale proletaire .. همج!! ..

كان الرايكا الأسوأ في المهوسين من العائلة، والأكثر إثارة للشغب، وكثيرًا ما تعرض للضرب، لكمة من هنا وأخرى من هناك، أو ينهض أحد ليقبله من فوق الطابوري ثم يدوس عليه، وكان وجهه يظل مليئًا بالسخط والكدمات، وممتعض حتى وهو ثمل، ولديه إحساس غريب بالتفوق لا يزول.

أما المهوسات من النساء، التي تعتبر الغوغائيات الخالة واحدة منهن، فأمرهن داخلي، وألقابهن لا تتجاوز عتبات البيوت.... وهن على العكس من الرجال، هوسهن مختلف، يبدو في تلك الأشياء اليومية التافهة، والبيتيزات التي تغطي عليها مزايا كثيرة، كونهن رغم كل شيء، ربات بيوت صبورات ومدبرات، وناقلات الخبرة من سلالة إلى أخرى، في كل ما يتعلق بالطبخ والطرز والحلوى... وبالمعتقدات الشعبية.

أذكر كيف كانت الخالدة تصر أن تعقد طرف قميصي، عندما كانت ترى حيرتي وانشغال بالي، وأنا أ مسح المكان ذهاباً وإياباً، بحثاً عن أشياءني التي أضعها ثم أنسى أين وضعتها، هاتفي، مفاتيحي، نظاراتي....

كانت تهدئني قائلة:

- تعالي، اجلسي ارتاحي، واقربي يهدوء (ووجدك ضالاً فهدى) سبع مرات، ستجدين ما تبحثين عنه بعد لحظات.

أو تحذرنني من أن أسكب الماء على الجمر حتى لا ترتفع الأسعار!!..
وهمست لي مرة، ونحن نجلس في عرس بنت عمي سلوى حول المسبح، وقد كان الطقس لا يحتمل:

- قومي قولي لهم أن يبعثوا ليأتوا بديك حي، ويعلقوه من (فراقشه)، ستوقف هذه الرياح الباردة الملعونة، التي عذبتنا في هذا الليل..

وكإفراط في النشاط، تلك الأشغال الأخرى التي تنجز في صمت واستكانة، الطرز والخياطة والتريكو، وأخيراً كنز الحكايات الموهلة في القدم، التي تحفظ عن ظهر قلب، ولا تحكى للصغار إلا في الليل، حتى لا ينجبوا أطفالاً رؤوسهم قرعاء!!..

بتلك الحكايات، وأنا طفلة، صار ارتباطي بالخالدة أقوى، وحاجتي إليها تزداد كل مساء، وربما نمت تحت تأثيرها، قبل أن تعيدني خالتي أم هاني إلى أمي، بعد أن تستطيل الظلال كثيراً، وتوشك الشمس على المغيب...

عالم آخر مختلف ذلك الذي كانت تنتمي إليه الخالة، وأمور وانشغالات أخرى كانت تشدها وتشغل بالها، على خلاف نساء اليوم، اللاتي جن جنونهن بالبوتوكس والسيليكون وتزفيت الحواجب، ونفخ الشفاة... أليس ذلك هو الهوس؟..



ما يذهلني في الخالة، وفي الحقيقة لست وحدي في هذا الأمر، هو احتفاظها بروبقها رغم انقضاء كل ذلك العمر، على عكس بعض نساء العائلة المسنات من جيلها، اللاتي نضبت أنوثتهن، وصرن رخوات ومتهدلات كأنهن ينتمين إلى زمن غير الزمن، وتدهورت ذاكرة بعضهن، وأصبحن زهايمريات بما يكفي كي لا يعرفن من هن، بينما الخالة لا زالت صامدة، ومحتفية بنفسها على الدوام..

ربما لأنها شغوفة بالحياة وعاشقة لتفاصيلها الصغيرة، تلك التفاصيل التي تشكل بالنسبة لها اجترار أشياء كثيرة تحبها، دون الرضوخ لأي ضغط أو إقامة اعتبار لأحد، متسلحة بالشجاعة واللامبالاة: ارتياح الحمام مرتين في اليوم، الأكل الجيد، اللباس الأنيق، العطور التي أقتنيها لها، لعب الكارثة، الدخول إلى السينما، الذهاب أحياناً إلى بوديس، الاستماع إلى فريد الأطرش وبهجة إدريس: (عطشانة ومكوية بالنار، والماء يجري قدامي)...

أضف إلى ذلك كرهها لأحاديث الأعمار، كانت متهربة دوماً من قول

الحقيقة، ولا تذكر إلا العمر الذي يناسبها في تلك اللحظة، ربما لتطمئن أن في إمكانها اللعب بالزمن وبالأرقام، مثلما يلعب هو الآخر بها..

نبهتها مرة، وقد سمعتها تجدف ولا تأبه بما تدعي:

- لا تعودى إلى القول إنك في الخمسين يا خالة، هل أمي أكبر منك؟..
ما هذا؟..

- وكم أقول يعني؟..

- قولى إنك في الستين مثلاً، أو في السبعين!!..

شهقت بخوف عندما سمعني أقول ذلك:

- السبعين؟.. أعوذ بالله.. هل أنا قربت من الموت؟..

قلت لها مطمئنة:

- من قال ذلك؟.. عن أي موت تتحدثين؟.. أنت لن تموتى أبداً، أنت ستموتين الموت نفسه، ثم ما لها السبعين، في التقويم الحالي تعتبر مرحلة من مراحل الشباب المتأخر يا خالة..

أنظر نحو الخالة ضاحكة فأراها كأنها هي فجر يطل، أو ضوء غامر ينتشر دفعة واحدة، ولا تزال تقاطيع وجهها الجميل رغم الكبر، فيها الكثير من النعومة والانسجام، وحين ترفع يديها وهي تتكلم معي، كنت أنبته إلى شكل أصابعها البضة، وأظافرها المقصوفة، والنمش الذي يزخر ف ظاهر

كفيها.. كانت يدان راسختان ومخمليتان رغم التجاعيد الطفيفة وخاليتان من الزغب، يدان منسجمتان معها تمامًا كما يليق بها، كأنهما لا تطبخان أو تتلو ثابن بشيء، بما في ذلك برازي، حينما كانت تنظف مؤخري البضة وأنا طفلة، أو عندما تنظف السمك أو الكرشة..

شيء يدعوني إلى أن أتطلع بالمناسبة إلى يدي، فأجدهما مختلفتان عن يديها بالمرّة، أصابع عظمية طويلة تشبه أصابع عارضات الأزياء الهزليات، بخطوط عصرية مرسومة باعتبار، لا علاقة لها بتجاعيد كفي الخالة أم هاني.

قلت لها مرّة، وأنا أبسطهما أمامها:

- انظري يا خالة، كم أكره هذه العظام الناتئة، ليت لي أصابع بضّة مثل أصابعك، لا عظام تظهر فيها ولا أوردة ولا أي شيء.

تطلعت لوهلة إلى كفيها، وقلبتهما من الباطن والظاهر، وجاملتنني ووجهها منشرح:

- مالها أصابعك يا شيء؟.. إنها جميلة، أصابعي هي التي تشبه الصوصيص، (وضحكت)، أما أنت فكلك جميلة، وتشبهينني في تفاصيل كثيرة.

- وشفتاي؟..

- شفتاك؟.. ما لهما؟.. مثل الخاتم ما شاء الله.. آية في الجمال.

- لكن هذا الحجم لم يعد موضّة يا خالة، أفكر أن أحشوهما بالبوتوكس.

- تحشيها بماذا؟..

دفعت بشفتي إلى الأمام:

- أحب أن يصيرا هكذا.. مملتان على الآخر...

حملت في مرعوبة:

- مثل سوة (سواة) الدجاجة؟..

وخطر لي أن أفتح الانترنت، وأترك الخالة تتفرج على بعض الصور، أتركها تشاهد سيدة الأعمال التي أحبت أن ترضي زوجها الملياردير عاشق النمر، فأجرت عمليات تجميل كثيرة من أجل أن تصير ملامحها أقرب إلى ملامح نمر، غير أن العمليات فشلت كلها، وصار وجهها مهزلة..

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تتحدث فيها الخالة عن الشبه بيني وبينها، وهو صحيح على كل حال، كلما تأملت وجهي في المرآة، أجد أنني بأنفي المستقيم الذي يرتفع قليلاً إلى الأعلى، وخدي المكورين، وعيني الملونتين بالأخضر الفستقي المنق بالعسلي، وحاجبي العريضين المرسومين بدقة، والغمازتين، والشعري الكستنائي، وبشرقي النقية مثل بشرة الأطفال، أشبه الخالة إلى حد كبير..

ولو أضفنا مسألة الذوق، فكلتانا تكره اللفت وطبيخ الملفوف، وتحب الملوخية والبطاطا القصبية، أما الفواكه، فنفضل (المزاح) و(حب الملوك)!!!..

ذات مرة قدمت لي الخالة خلاصة جديدة، دفعتني إلى التأمل:

- ألم تتبهي يا شيماء؟.. نحن لا نشيخ بسرعة، خاصة ذوي البشرة العسلية منا، والملامح الكحلية..

- نحن من يا خالة؟..

بدت فعليًا مسرورة بإخباري:

- جزء كبير من العائلة لا يفقدون نضارتهم بسرعة، وحتى لو كبروا، لا تكون التجاعيد كثيرة وبارزة، تأملي وجوه والدك وعماتك وأعمامك، وخالتي لالة فاطمة ولالة هبة.... في الحقيقة أغلبهم (لا يعطون أعمارهم)..

تكفلت بالباقي:

- وأولئك الزهايمريات؟..

- ذلك بسبب الرجال وليس بسبب العمر!!.. هم من قهروهن، بالإضافة إلى (تمارا) في البيت ومشاكل الأولاد.

قليل من الناس من يملكون نعمة أن يصمدوا أمام الزمن، ولا يعث الخراب بهم، بل يصيرون أجمل وأبهى، وكأن الأيام تتشبث بهم وهي تعبرهم كمجاز فحسب.

أتصور ألا علاقة لذلك بالأفence أو الكريبات المغذية للبشرة، بل هو نابع من الداخل، من الوراثة والجينات، ومن القلوب البيضاء الخالية من

الهم والغم والنكد والحقد والكرهية والغيرة، وإلا كانت أفلحت بريحيث باردو بإمكانيتها المادية الهائلة، في الحفاظ على خلجاتها سالمة من العطب، باستعمالها لتلك الكريبات...

ذلك الوجه الذي كان فاتنا أتلفته التجاعيد بشكل مروع، وتهذلت الشفتين الممتلئتين، وصارتا لا علاقة لهما بشفتي بريحيث باردو التي كان يعشقها أبي، وأدمن جمع صورها في ألبوم، وصار يتفرس فيها يوميًا، ويتطلع إلى جسدها وساقها ونهديها، غارقًا إلى ما لا نهاية في تجربة عشق صامت، لا يستطيع البوح به، كأنما عاش معها قصة حب حقيقية، قبل أن تتركه لأجل خاطر ذلك الأشقر ذي العينين الزرقاوين، آلان دولون، قبل أن يخبيء ذلك الألبوم في مكتبه، في ذلك المبنى البنكي الوحيد، الذي لا توجد له فروع في المدينة (كريدي ليوني)، عندما تزوج أمي..

وعوض الصور صار يلاحق أفلامها بهوس من سينما إلى أخرى، من روكسي إلى الأطلس إلى الملكي إلى مرحبًا، ويسافر إلى مراکش أو البيضاء خصيصًا من أجلها، وكل مناسبة تطل فيها بريحيث من الشاشة، أو يرد اسمها عرضًا في ذكريات فنية قديمة، كان أبي يتحسر عليها، وعلى ذلك الجسد اللدن البديع، لتلك الفرنسية الفاتنة، الذي كانت لا تغطيه في الصور إلا الماما، باعتبارها نجمة إغراء بامتياز، كانت قادرة على أن تنافس مارلين مونرو بجدارة.

قال والدي مرة متأثرًا بصدق:

- ياااااا!!! لا يمكن.. بريجيت باردو؟.. أين ذهب كل ذلك الجمال والفتنة التي تمشي على قدمين؟.. لو لم أربعيني ما كنت صدقت، كل ذلك التغيير، كل ذلك التلف؟.. ماذا يجري لبعض النساء يا إلهي؟..
والتفت سريعاً ليطمئن على ملامح أُمي..

حلّمي بإنجاز التحقيق تبخر أو كاد، ولم يبق أمامي في حالة اليأس تلك إلا تأمل الخالة، وممارسة كتابة من نوع آخر، كتابة بصرية، عبر النظر إلى تلك المرأة التي تصورت أن حياتها ستكون حافلة بما يليق بها من متع، وها هي تحتزل كل شيء في مجرد تجارب بسيطة للغاية، ككل النساء العاديات، الخاليات من الرقة والجمال.. والسبق الصحفي الذي حلمت بإنجازه في أولى خطوات عملي، ربما سيتحول معها إلى مجرد وهم.

قلت لها وأنا أطلق تنهيدة عالية، بعد فترة صمت:

- كأنني كنت أسكب الماء في الرمل يا خالة!!!.. تصوري كم جلسة جلسناها لحد الآن، أنا وأنت؟.. وكان من المفروض أن أكون قد أنهيت عملي، أو على الأقل على وشك الانتهاء منه. تعرفين لماذا كل هذا التأخير؟.. أقول لك... السبب بسيط، إنك تستهزئين بي وتضحكين عليّ!!!..

تفاجأت الخالة من خلاصتي المغرضة:

- أنا أستهزيء بك وأضحك عليك؟.. أعوذ بالله.. بأية أمارة؟..
أنت التي تسحّين لساني، وتجريّنين خلفك إلى شبقوات (قضايا) لا معنى

لها؟.. لماذا تريدن بالضبط معرفة ما الذي حصل في الفراش بيني وبين أزواجي؟.. ثم من ستتجراً وتقول لك الحقيقة؟.. أنا مثلاً؟.. هل تتصورين أن الواحدة منا تستطيع ببساطة أن تفتح صدرها، وتترك تحشرين أنفك في ما لا يعينك؟.. مستحيل طبعاً، لا امرأة في هذه النقطة بالذات، تستطيع أن تحكي، وتجعلك تطلعين على ما لا ترغب فيه، تلك الخصوصية التي تبقى بين الزوج والزوجة، هما من يعرفان حقيقتها، وما يحصل وكيف ومتى.. ثم إن التي ستحكي عن ذلك وتدعي الصدق، إنها هي كذابة وقليلة الأصل.

كنت أقول لنفسي وأنا في بداياتي عملي، لا بد من الكدح، وأن السبيل إلى النجاح لا يتحقق بسهولة، وكنت أنتقد الكثير من المقالات المنشورة في الصحف، وأجدها تشابه بشكل فاضح، حتى أنني كنت أرى أنها تركز في الغالب على نفس المرجعية، وتعتمد نفس الصيغة أحياناً، وادعيت مراراً أن الزملاء الصحفيين لا يجتهدون بما يكفي، كي تكون مقالاتهم مميزة، وهذا ما يؤدي بالصحافة إلى الكساد!!..

بيد أن التنظير يبدو أسهل من التطبيق، وأن خطر الوهم وارد على كل حال..

كل هذه المدة الطويلة التي تلت آخر زواج وآخر طلاق للخالدة، في الستينات كما يبدو، ومع كل ذلك الألق، كنت أود على الأقل أن أعرف، كيف استطاعت أم هاني أن تقاوم رغبة الأهل في تزويجها من جديد،

والكد في البحث لها عن عريس بأي ثمن كان، وبأية تنازلات، بعد أن دأب صيتها في تلك الأوساط المحدودة، كامرأة مفروحة، لا تجيد الصبر والتريث، مثل باقي النساء؟..

لم ترغب هي نفسها في ذلك أصلاً، أم أنها هجرت جسدها وهي لا زالت في الثلاثين من عمرها أو في الأربعين، وركنته جانباً وهو لا زال ينبض بالشهوة، وكيف انصاع لها وخمد، وصارت تعيش لذاتها الأخرى وشهيتها المفتوحة للأكل وانتقاء الوجبات والألبسة والعطور؟.. وماذا تخبيء هذه السيدة الفاتنة عني؟..

لم تكن الخالة ملهمة بالنسبة لي، ولا كانت مادة خام في تحقيقي، لكنها جعلتني متشبهة جداً، بل ضاعفت من سعادتي أنها حكمت لي أموراً لم أكن أعرفها عنها، وعن الحياة في ذلك الزمن، وأنها بذلك فتحت مداركي، وجعلت إحساسي اللطيف بها شبيهاً بتلك اللحظات التي كانت فيها تصد عني الجارة العجوز، التي كانت تأتي إلى بيتنا وأنا في الإعدادي، طالبة مني في كل أسبوع أن أكتب لها رسالة من العامية إلى الفصحى، لترسلها إلى ابنتها في أكادير، ثم ترغمني بعد ذلك على أن أتلوها عليها جملة بعد جملة، بعد أن يكون إخوتي قد ركضوا في الاتجاهات كلها، هاربين منها، وتاركينني وحدي تحت رحمتها!!..

كانت الخالة تنظر شزرًا نحو العجوز، ثم تقول لها ممتعضة:

- شوفي يا لالة سامة (شامة)، قولي للبنت كلامًا معقولًا تستطيع أن تكتبه، وإلا اتركها لحالها، كيف ستكتب لك كل هذا التخريب؟.. إنها مشغولة بدروسها، اختصري وإلا اذهبي وابحثي عن غيرها..

بمشاعر من التسامح والفهم كنت مستعدة لتقبل الأمر، وعدم اعتبار الخالة غير متعاونة، بل بالعكس، كنت قد أدركت أن خيارات زواجها كانت مفروضة عليها، وأنها تقبلتها كشيء مجبر لا محيد لها عنه، وتقبلت معها الجنس والنوم تحت رجل في فراش غريب، دون تجاوب، ولا حصول على أية لذة، فلم يكن بمستطاعها لا هي ولا غيرها في زمنها أن تقرر في مصير زواجها، وذلك ليس ضعفًا منها ولا قلة حيلة، بل هي تلك القواعد الأقوى، والعادات التي يثير اقتحامها المشاكل.

نظرت إليها فأحسست أن مزاجها في ذلك المساء كان مكدرًا، وأنها لسبب ما ليست على ما يرام، وقد علمتني التجربة من أية زاوية يمكن أن أدلف منها إليها، وأستأنف معها الحوار والحياة.. أن آخذ الأمر بالجدية اللازمة إذا اقتضى الحال، أو أكمل المزاح الذي لا زال معلقًا بيننا منذ آخر جلسة..

قلت لها مستفهمة:

- كيف حال أم هاني؟..

أصغت إلي بملامح مشدودة وأنا أحتسي قهوتي.. كنت كأني أود أن
أستطلع أخبارها، بينما سؤالي في الواقع، كان المفتاح الذي كنت أجرب أن
أفتح به سر ذلك التجهم، وأفهم لماذا الخاله عابسة في ذلك العصر.

مسدت بيدي على ظاهر كفها، فمررت هي الأخرى كفها على شعري،
وارتخت أعصابها ثم أخذت تحقق في نقطة ما في وجهي.

تجاوبت مع حركتي.. كانت تعرف أن تلك وسيلتي التي أقول لها
بها من غير كلام، إنني قلقة من أجلها، وأفسح المجال أمامها لتخرج من
صمتها وتوترها.

نهضت ببطء وتجاوزتني بخطوتين، وضغطت على زر المسجلة الموضوعه
على قاعدة زجاجية أسفل التلفزيون، فانطلقت الأغنية.. كانت تستمع إلى
نعيمه سميح، قبل أن آتي إليها منذ قليل..

ياك يا جرحي جريت وجاريت

حتى شي ما عزيتو فيك..

واسيت وعالجت وداويت..

وتمنيت الله، الله يشافيك..

تلك الأغنية التي كانت كلما سمعتها تحزن، وحين لا أكون معها تطلق
العنان لدموعها كي تنهمر، في ما يشبه الأنس والانسجام.

انتهت الحكاية، ووصلنا إلى الذروة...

اختصرت الطريق وقلت للخالة ألا داعي للتحقيق، صرفت النظر عن كل ذلك، ربما كان مزاجها المعتكر إعراباً عن حسرتها من أجلي، هو ما جعلها تتخلى عن ضحكتها، ولا تستقبلني كما هي العادة بالأحضان والضحكات، وجئت يا (عمارة الدار)، وغيرها من كلمات الترحيب التي لم تقلها لأحد سواي.. حتى لأزواجها الخمسة..

لدي ما يكفي في الحياة مما يصلح للكتابة والتحليل، ثم إنها فكرتي على كل حال، ولست مجبرة على إنجاز أي شيء..

اغتمت الخالة قليلاً حين سمعت ذلك، ربما استعادت في ذهنها مزحة حكاية طردي من الشغل فصدقتها، وسوف يكون ذلك شيئاً سيئاً لنفسيتها وإحساسها تجاهي..

كانت الخالة تحيك في ذلك المساء جوارب وصدريات وقفازات بخيوط وردية، لمولودة أخي فريد وكاميليا..

كل مواليد العائلة القريبين من الخالة، كانت تحيك لهم ذلك، لم يكن أحد يصدق أن تلك الأشياء الصغيرة المتقنة، التي تشبه التحف عبرت من بين يديها.. كانت أكثر النساء براعة في ذلك، خاصة وهي تضع لها الشرائط الحريرية الرقيقة، وتضع الخرز والأصداف، وكانت سعيدة وهي تفعل ذلك، وترتّب بحنان على ما تنسج، ولا بد أنه في مكان ما من ذهنها،

كانت ترى كيف كانت تمضي حياتها من غير تلك السعادة والفرح..

وماذا لو لم أكن موجودة إلى جانب الخالة وفي صلب حياتها، بنت نصف متبناة منذ الصغر؟.. وكurst كل جهدي بعد أن وصلت إلى الإعدادي، أن أفرض على والدي أن أبيت أحياناً عندها، في تلك الأحياء الهامشية البعيدة، متحدية وسأوسه عن النوم في تلك البيوت غير المحمية، التي كان يرى كأنها هي بين الأدغال، والتي من أجلها لقبني إخوتي بالشماكرية، تدفعني الرغبة الجاحمة في الذهاب لإيناسها، وفك عزلتها؟...

قالت الخالة فجأة وهي منهمكة في الحياكة على مهل:

- بالمناسبة، لم تسأليني عن الموضوع إياه، الذي كنت قد أجلت الرد عنه من قبل، وقلت لك ذات يوم بأنني سأحكي لك القصة كاملة عندما تكبرين..

حاولت أن أستحضر شيئاً ما في ذهني، أن أستذكر، ليس هناك شيء معين بالضبط، ولا أدري فعلاً ما هي القصة.

قلت مستوضحة:

- تحكين لي عندما أكبر؟.. عن ماذا؟..

رمقتني بنصف عين.

- بسرعة نسيت؟..

استعدت كلامنا الأخير وحواراتنا، وبعض ما له علاقة بالماضي:

- تكلمنا في أشياء كثيرة يا خالة، وأعطيتني وعودًا كثيرة ويا ما أخللت بها، ثم لا تنسي أنا وأنت، دائمًا نتقافز مثل القردة من موضوع إلى آخر، طيب، ذكريني على كل حال.. جل من لا يسهو!!.

بدا الأمر جديًا للغاية من مسحة التردد البادية على وجه الخالة، ثم وهي تحني رأسها قليلًا، لتدفع بالمنديل نحو جبينها العريض.

- ألم أقل لك مرة إنني أخبئ عنك شيئًا لا أعرف كيف أقوله، وسيأتي يوم أحكي لك فيه كل تفاصيله وخباياه؟..

أمعنت فيها النظر:

- بخصوص ماذا يا خالة؟..

- ألم تسأليني ذات يوم، من أزور هناك في المقبرة بـ (بوديس)؟..

بسرعة دار الشريط في الاتجاه المعاكس، خاصة أن الخالة كانت لا تزال مواظبة على تلك الزيارة، التي لم أعد أطرح أسئلة عنها.

- يااااه، نسيت والله، كل تلك السنين!!.. يبدو أنك ما زلت عند وعدك، احك، ها أنذا أسمعك.

لم تكن الخالة جدية معي في أسلوب كلامها بذلك الشكل أبدًا، وحازمة، ولا تنظر في عيني مباشرة، مثلما كانت تفعل في كل أحاديثنا وضحكاتنا في

أيا منا وليالينا، وقادرة على اختيار المفردات اللازمة، ووضعها في السياق الصحيح..

والأكثر من ذلك، أن تضع سبابتها اليسرى على ذقنها، وتثنأى وتغمض عينيها، ثم تفتحها وتوزع النظرات بيني وبين ما هو موجود حولنا، في اليمين وفي الشمال، ثم تزم شفيتها قليلاً، لتعطيني الانطباع بأنها تفعل ذلك من أجل أن تركز أكثر، وتبذل قصارى جهدها، حتى لا تفوتها بعض التفاصيل...

كانت كأنها مصرّة على أن تشدني إليها، وتبعث الحياة في ما ستقوله من جديد.

سكنت في حي سيدي واصل لمدة معقولة، مرات وليست مرة واحدة، وكنت خلالها قد عرفت بعض الجارات وعرفني، وأطلقن على بيتي كما هي العادة، دار المدينة، وأحياناً حين كنت أستشهد أمامهن بعض الايات التي أحفظها عن ظهر قلب، أو أتهجى لواحدة بعض الحروف وأقرأ الأرقام، ظنن أنني متعلمة، فسموني (الطالبة)..
وأخر مرة تصابحت خلالها مع جارة، وكانت شوافة طيبة، أو هكذا

ظهر لي في البداية، امرأة بدوية جميلة يشع منها سحر خاص، ربما لذلك شدتني إليها من دون سائر النساء.. وعملت منذ أن تعرفت إليّ، على كل ما يمكن أن يقرّبني منها، من أدب جم ولباقة، جعلتها تدخل قلبي قبل

أن تدخل إلى بيتي وتتفرج على أثاثي، وترى بفضول زائد صوري وصور عائلتي، وتدهش من الأناقة والجمال، وتسألني إن كان أهلي نصارى، تقصد إن كانوا فرنسيين، من شدة ما هم مختلفين تمامًا عن أهلها، التي صارت تضحك وتنعتهم بالحرشين (الحشنيين) ..

تعرفين، أنا لم أكن معنية كثيرًا بقراءة الفأل، ولا كان يهمني سماع أولئك الهداويات، اللائي كن يجبن الأزقة والدروب مناديات على الزبائن: (ضربو شي فال)، فتفتح هن الأبواب ليدخلن البيوت، ويقعدن في الباحات يلعبن بالودع في الدقيق، ويكذبن على النساء ..

جدك لأبيك، وجدي وأقرباء آخرين راسخين في العلم، كانوا يفهمونا أن ذلك مجرد خزعبلات، وأن الله وحده هو القادر على كل شيء، وأن ما عدا ذلك مجرد دجل في دجل ..

لا أدري كيف (لبستي) تلك الأفعى السامة، وكيف اخترقت حواجري ودخلت إلى قعر بيتي، بأساورها الذهبية الكثيرة التي تزين معصمها، وبقرطي اللويز المدليان من شحمتي أذنيها، وبشعرها الأود الفاحم الذي كانت تصبغه بتاكاوت، ووشمها الأخضر، وصارت تحكي لي نكتا خلية لتضحكني، دون أن تنسى أن تتغزل في، وفي محاسني وفي طبيخي ..

اضطرت أن أغالب تحفظي، وأجلس معها لساعات نلعب الكارثة في بيتي أو في بيتها ونحتسي الشاي، وروت لي أشياء من مراحل حياتها

المهنية المختلفة، وقالت إنها اشتغلت عاملة في الفابريكا أولاً، تقطع رؤوس السردين، لكنها وجدت أن ذلك شيئاً مضمناً، وأن الكابران كان لا يسجل لها كل ساعات العمل، ويسرق منها بعضها ويسجله في كاري عشيقتة، وأنه أراد أن يجعلها لفترة مجرد قوادة، يطلب منها أن تتوسط له عند التعاملات اللائي كن يعجبته، وهن لم يكن راغبات فيه..

تركت السردين وعملت مساعدة مع زوجها المتوفى، قبل أن تتعلم منه (الحرفة)، وأن ذلك كان هو المكتوب، وأنها تعيش مرتاحة في ذلك البيت الذي اشتريته، من طابق واحد، تغطي جانبه الأيسر كرمة تعرش في الربيع، وأن ذلك من فضل الله أولاً، ثم بعد ذلك من فضل الزبائن..

كنت لحد تلك اللحظة لا أزال صامته، كانت الخالدة وهي تحكي في ذلك المساء، تبدو لي مختلفة تماماً عن كل ما عرفتها عليه، امرأة أخرى، جادة كما يليق بها، لكن بعينين ضائعتين مع شيء من الشجن.

تلك المرأة يا ابنتي، أوقعني في الغلط، في الواقع لا أدري إن كان ذلك غلطاً حقاً أم هو شيء آخر.. تصوري، تلك اللحظات التي (صادتني) فيها، لا زلت أعتبرها هي اللحظات الحقيقية، التي استمتعت فيها برجل في حياتي.

كان أصغر مني قليلاً، شاب مفعم بالقوة، قضى حياته طالباً منغمساً في دروسه، من الابتدائي إلى الثانوي إلى الجامعة، كل همه أن يحصل على

الليسانس ويصير أستاذًا، قبل أن تسحر له إحداهن سحرًا أسود، أوقعه في براثن المرض، فلم يعد يأكل بصورة جيدة، وكانت أمه تتشاجر معه بذلك الشأن في كل مرة يعود فيها إلى المنزل، وينحي الأكل ويجلس ليدخن..

قلت للخالدة على عجل، وأنا مأخوذة بما أسمع:

- أسفة يا خالدة، سأقاطعك، أكان لك زوج سادس، دون أن يعرف أحد؟..

كان الطريق أمام الخالدة لا يزال ممتدًا، طريق الكلام، ذلك الذي قطعته بسؤالي السخيف، بينما هي تحاول أن تقطعه شوطًا بعد آخر، من أوله إلى آخره...

طمأنتني بيدها:

- سوف أقول لك الحقيقة كاملة وبأمانة، لا تتعجلي، إنه لشيء مخجل، لكنني لن أتردد في فتح صدري وإطلاعك عليه، وأرجو ألا تسيئي الظن بي.. كنا نلعب طرحًا من الكارتة ونحتسي الشاي ذات عشية، عندما فتحت جازقي الشوافة موضوع ابنها..

لم تترك من قبل تفصيلا في الموضوع لم تروها لي، وأنها غيرت البيت من أجله، وغادرت حيها القديم الذي كان يعج بالزبائن والزبونات، وانتقلت من زين العابدين إلى سيدي واصل، عسى أن تترك وراءها الشر، وتفتح

لابنها باباً آخر للحظ والتخلص من المرض، ذلك الشاب الذي سكنته الهواجس، وصار غير قادر على مواصلة الدراسة بعد حصوله على الباك، بعد أن أصبح يرتاب في كل شيء..

كنت قد لمحته أكثر من مرة مغادراً أو عائداً إلى البيت، كان نظيفاً وصامتاً، لكن للأسف أخبرتني أمه أنها بدأت تسمعه يكلم نفسه أحياناً، وأنه صار يشتكي لها يومياً من أناس يلاحقونه، ويحصون عليه الأنفاس، وقال لها إنهم لا بد من البوليس السري، وسوف يتهمونه بالسياسة، ويقبضون عليه ويزجون به في تلك المخافر، التي لا يدخلها أحد ثم يخرج منها أبداً على خير..

قلبي كان ينفطر عليه، وأنا ألمحه يشعل سجائره بصعوبة بسبب يديه المرتعشتين، وسوف تدهشين لو قلت لك كم كان يبدو جميلاً، بعينه السوداوين الواسعتين، وشعره الأملس، وحاجبيه العريضين المقوسين، وأنه ما شاء الله، تريته وتقولين إنه عمر الشريف، وأنه كلما اقترب مني كان يلقي على التحية بخجل، وأحياناً كان لا يلتفت نحوي، وكانت أمه تترجاني أن أجاريه وأكلمه، وأن أراقبه عن كثب وهو عائد، فربما انبهر بجمالي، فخفف ذلك عنه الغم..

كان صوت الخالة غريباً عني في ذلك المساء، صوت امرأة أخرى، مختلف عن الذي كانت تحكي به عن أزواجها الخمسة، صوت فيه الكثير من النعومة والرقّة والابتهاال، كصوت الأمهات والحبيبات، اللائي يذبن

عذوبة، وكصوتها حين كانت تناغيني وهي آتية نحوي، عندما كنت طفلة، وتحضنني بذراعيها المتعجلتين المهتاجتين، وتغني لي أغاني المهد اللطيفة، حين يكون في مقدورها رؤيتي، في باحة بيتنا، في تلك الصباحات التي كنت لا أنام فيها عندها.

وجدت نفسي أنظر في عيني الخالة وأنا صامته، بانتظار المزيد، تفاصيل إضافية عن تلك الجارة وابنها، وكان نور المصباح يكلل شعرها الذي صار أصهب هذه المرة، بهالة خفيفة من الصفار الباهت.

فضولي كان قوياً دوماً اتجاه الشوافات، في مراکش بالضبط، وأنا أعبر ساحة جامع الفنا باتجاه السمارين، وهن جالسات على كراسي صغيرة، كانت أولئك النسوة الأميات المتزينات بالكحل والحناء، يجعلنني أتوقف للحظات لتأملهن وأنصت إلى لهجتهن المراكشية، وهن يدعونني لأقرب، لأعرف فألي، وكنت أقارن بينهن وبين المنجمات الثريات اللاتي يتزين بالماس ويظهرن في التلفزيون، ليقرأن مستقبل الرؤساء والشعوب والبرلمانيين الكبار ورجال السياسة، فلا أجد أي شيء يجمع بينهن، خاصة وهن مرتديات تلك الجلابيب البالية، ويرددن تلك الجمل المضحكة في تلك الساحة العارية، قرب بائعات الخبز، الجالسان بدورهن تحت مظلات مهترئة.

عند منتصف الليل تقريباً، كنت قد عرفت الحكاية كاملة، وكانت الخالة قد أحكمت إغلاق بيجامتها وغطت شعرها، وصارت على استعداد للنوم..

كان مساء آخر مختلفاً وغريباً عني في بيت الخالة، مشحوناً بالغضب..

ذلك الذي اعترفت الخالة به، لم يكن ينبغي لها أن تقوله، بعد أن مر كل ذلك الزمن.. إنها تجترح الحماقات وتصر على أن تفعلها حتى معي، أنا التي ظلت أرى أن كل ما قامت به طوال حياتها، مجرد نواذر وملح وحركات تستدعي الضحك، وها أنا معها تواجهني وأواجهها في موقف صعب، لا أدري كيف علي أن أقيمه وأعطي رأبي فيه..

أحسست بكم هائل من الإحباط، عندما تصورت أن ثقتي الغالية في الخالة لم تكن في محلها، وها هي تخبرني بتلك التفاصيل، ثم تبتسم ابتسامتها المنهكة، وهي تنظر إلي بطرف عينا، وعلى وجهها تعابير الانتظار.

مالت نحوي إلى الأمام، وركزت نظراتها علي هذه المرة:

- أرايت؟.. ها أنت غاضبة مني.. مع أنك كنت تموتين شوقاً لسماع جوابي، ومعرفة إن كنت قد استمتعت يوماً في الفراش مع رجل، ذلك الشاب الذي مات في الشارع، في حادثة سير مفاجعة.

أبقيت رأسي منخفضاً لفترة طويلة مع تقطية حادة، ماذا عساني أقول في هذه الحالة؟..

بدت لي الخالة مكشوفة أمامي وعارية أكثر مما ينبغي، وكنت إذا قطبت حاجبي لأي سبب، كانت لا تتخرج من أن تأمرني أن أبعد الغضب عن

وجهي، لكن في هذه المرة لم تفعل.

كانت تأمرني بكياسة، كأني أم عاقلة تحب صنع المعروف في ابنتها:

- أزيل هذه (الغوباشة)، إنها لا تناسبك، ثم إذا رأك أحد على هذه الحال ظن أن ذلك من طبيعتك، ابتسمي، ودعي ملاحك في راحة، البنت المقطبة لا يمكن أن يقترب منها أحد.

تقصد ألا يتقدم لخطبتها أحد..

لم أنزعج لأن الخالدة استمتعت كما ادعت، وعاشت علاقتها الغريبة لمدة أسبوع كما أخبرتني، مع ذلك الشاب المريض الذي ربما كان انفصامياً، أو كان يعيش حالة من البانوراي، وعانقته وقبلته وتعرت له، وألقت بنظراتها على جسده، وتلى جسدها الأبيض البض من فوق إلى تحت، وعانقها هو الآخر وقبلها وضاجعها، ولم يصل بي الحال إلى أن أوبخها، أو أن أقيم نفسي رقيباً على سلوكاتها، لكن ما حز في نفسي أن تتخذها الجارة لعبة..

أخبرتني أن تلك الأفعى السامة أوقعتها في المطب، ظلت تقترب منها على مهل، تغازلها وتتسامر معها وتحكي لها النكت وتلعب معها الورق، إلى أن شوشتها ولعبت بعواطفها، فاحتالت عليها منفجرة ذات يوم أمامها بالكاء..

تصرفت مثل أم محروقة على فلذة كبدها، شاب يضع من بين يديها، في كامل قوته وفحولته، وهي لا تعرف ما الذي يمكن أن تفعل من أجله،

خاصة وهو عنيد ولا يرغب في التعاون، ورفض بالمطلق كل اقتراحات والدته، واستعدادها بأن تلف به أضرحة الأولياء والصالحين، من أجل أن يشفى، كما كان يكره دخان البخور التي كانت تطلقها في غيابه في غرفته، لإبطال السحر وطرده الشياطين والجان والعين، ويعود من حيث أتى..

- يا لالة أم هاني، لدي أمل واحد، أن أعرف إن كان ابني لا يزال (رجلاً)، ادخلي غرفته وتقربي منه، إنه نظيف ومسال.. فهميتيني؟..

انطلق صوت الجارة مستعطفًا ومطبقًا على الخالة، حاثًا إياها في رجاء على التجربة، كانت امرأة لعبوبًا بحق، وذات خبرة، ومن نظرتها إلى الخالة أدركت أنها يمكن أن تضعها تحت إبطها، وأن كل ذلك الاعتداد والتكبر، ما هو إلا قشرة، وأن خلف ذلك امرأة جميلة محرومة، عاشت من غير أن تعرف المتعة في السرير..

لمست الشوافة ذلك من خلال نظرة الخالة إلى الشاب وتطلعها إليه، وسؤالها عنه، كان في ذلك لهفة تتسع لكل الاحتمالات، وصدق باد في تعابير وجهها، ممهورًا ببعض الحزن، هي التي لا تعرف كيف تداريها..

قالت الخالة منكسة رأسها شيئًا ما:

- تعرفين عندما يعمى القلب وتعمى البصيرة؟.. كنت قد صرت كذلك.. كل شيء حضرته الشوافة بإتقان، وصارت تغمرنني بالدعاء، وأشعلت النار لتدفيء ماء الاستحمام، ثم اختفت من أمامي تاركة لي حرية التصرف..

لم تستطع خالتي أم هاني أن ترفض رجاء الشوافة، كانت لا تزال شابة هي الأخرى، كما قالت، بجها لها المعهود، وكل ذلك الألق.

نامت الخالة مع الشاب مرات عديدة، جلست وإياه، وسرحت أمامه شعرها الطويل الأشقر، وضحكت له من قلبها كواحدة منتشية، ورقصت من غير موسيقى وغنت، وألقت برأسها فوق صدره، عاطفتها القوية قربتها منه، وكسرت تلك السدود المنيعه التي ظلت الخالة تقيمها حول نفسها، حتى لا تسمح لأحد بأن يجعلها تستمتع بالحب!!..

وها هي في النهاية، تلف لتدخل دربه، عابرة إليه من بوابة أخرى وكأنها منومة، حيث أمكن بعد أسابيع أن يسري الخبر، ثم تنطلق الهمسات والغمزات والسخرية المرة..

وللأسف ستكون الخالة هي من ساهم في ذلك، وفتح الباب على مصراعيه للتهكم عليها والتندر بتلك الحقيقة، ففمها (يحرقها) على رأي أمي، فقد أسرت بذلك لقربيتها التي جاءت لتقضي اليوم عندها، وأخبرتها بكل شيء، وكم هي حزينة ويعتريها الأسى، لأن الشاب كان قد مات..

قررت بعد صمت أن أستعيد رباطة جأشي وأرفع رأسي وأنظر نحو الخالة، كانت قد رقدت ساكنة، من غير أن تمسد ركبتيها بالزيت، من الزجاجة المعبأة بالأعشاب العطرية، القرنفل والخزامى والزعر... ..

حككت علاقتها القصيرة تلك، وتمددت مدعية بصوت ضعيف أنها

ترغب في النعاس، فاضطرت إلى أن أفعل مثلها..

أمعنت التفكير في تلك المفاجأة، كم بدت لي غاية في الغرابة في ذلك الليل، بيد أنه يحصل عموماً أن نتعب كثيراً ونحزن، بعد أن ندرك ماهية معنى أن نستوعب الجنون..

قلت للخاله بعاطفية شديدة، وأنا أطوي الورق وأطفئ النور استعداداً للنوم، ألا تقلق، وأنني سأتحاشى كل شيء، وسأنسى أنني سمعتها...

لست أنا من يصدر الأحكام، ولا يحق لي ذلك، خصوصاً معها هي بالضبط، وأن ثمة أمراً على الخالدة أن تعرفه، أنه مهما حصل، فأنا آخر من يلتفت إلى الوراء، كما لا أحب الندم، وستظل بالنسبة لي تلك المرأة الجميلة التي أحبها، ولن أدون أبداً شيئاً يسيء إليها أو يضر بسمعتها، فحين يتكتم المرء، فإنه ينثر ما يكفي من الرماد على التربة التي أخصبت تلك الأسرار.

اندسست في الفراش بثوب نومي القطني القصير، وأحنيت رأسي أكثر وأكثر نحو صدري، ولمت ركبتني اللينتين القابلتين للطي، وحاولت أن أنام وأنا أفكر في الغد، وفي تلك الأجمة الكبيرة من الحقائق والزيف، محاطة بجدارين أبيضين، وصور من الماضي، وشخير الخالدة المتقطع الخفيف، متصورة نفسي في وظيفة ما، أحب عملها، بدل هذه التي جلبت إلي الصداق..

